الشرق الأوسط الديمقراطي

فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد 56 آذار/ مارس 2022م

محاور العدد

الفلسفة البيئية من تيودور أدورنو إلى المفكر الأمميّ عبد اللّه أوجلان

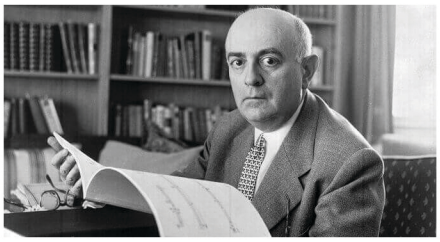

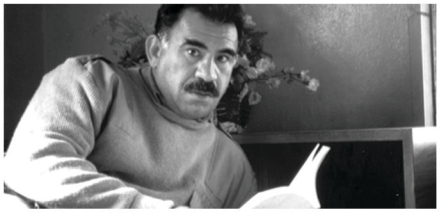

- الإيكولوجيا
- موراي بوكتشين
- من جلاسكو إلى شرم الشيخ
- متى يسرع العالم لإنقاذ الحياة على الأرض

العقد الاجتماعي السوري، دستور سوريا التوافقي ومبادئه الأساسية

- أصول الفكر الإرهابي لجماعة الإخوان المسلمين
- دول الشرق رهينة الجيوش غير النظامية
- القوى الناعمة ودورها في السياسية الدولية

في العدد أيضاً

- لماذا يتمرد الكردي؟
- العلاقات الكردية العربية – ٣
- القضية الكرديّة ما بعد الحرب العالمية الثانية
- الصراع والعداء التركي الفرنسي تاريخه، وأسبابه

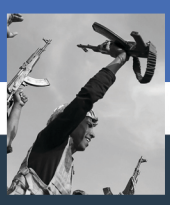

الشرق الأوسط الديمقراطي

مجلة فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد ٥٦ آذار/ مارس ٢٠٢٢م

إدارة المجلة

مجلس الإدارة

الاشراف العام

زياد محمد

رئيس التحرير

صلاح الدين مسلم

هيئة التحرير

روشن مسلم

عواس علي

أحمد دالي

مصطفى شيخ مسلم

اسماعيل خالد محمد

الهيئة الاستشارية

السيد عبدالفتاح

حسن ظاظا

جاسم الهويدي

ياسر شوحان

الإخراج الفني

كليستان كوسا

الآراء المنشورة تعبر عن رأي أصحابها وليس بالضرورة أن تعبر عن رأي المجلة

وسائل التواصل

يمكنكم متابعتنا والإدلاء بآرائكم ومقترحاتكم وإرسال مساهماتكم عبر وسائل التواصل التالية:

http://www.alawset.info

serqalawset@gmail.com

@AlawsetMagazine

@KovaraAlewset

@/alawsetmagazine

رقم الاعتماد
لدى نقابة الصحفيين العراقيين
١٤٨
رقم الإيداع
دار الكتب والوثائق ببغداد
٨٦٨ لسنة ٢٠٠٥

لدى وزارة الثقافة المصرية
دار الكتب والوثائق في القاهرة
رقم ٢٤٢١٧

مكتب القاهرة:
18 شارع ضريح سعد - القاهرة
ت: 27907104 / 01554349602

محتويات العدد

العدد: 56 ـ آذار ـ 2022

كلـــمة العـــدد — رئيس التحرير — ٣

◆ قضايا أيكولوجية

الفلسفة البيئية من تيودور أدورنو إلى المفكر الأمميّ عبد الله أوجلان — اسماعيل خالد محمد — ٤ - ١٢

الإيكولوجيا(النشأة والدوافع والمبادئ – القوة القانونية والأخلاقية)..... — أحمد دالي — ١٣ - ٢٠

دراسة في نظرية المفكر موراي بوكتشين ..... — عواس علي — ٢١ - ٢٧

مع ازدياد المخاوف... متى يسرع العالم لإنقاذ الحياة على الأرض ..... — روشن مسلم — ٢٨ - ٣٣

التغييرات المناخيّة من جلاسكو إلى شرم الشيخ..... — احمد العناني — ٣٤ - ٣٥

◆ قضايا فكرية

العقد الاجتماعي السوري؛ دستور سوريا التوافقي ومبادئه الأساسية .... — سيهانوك ديبو — ٣٦ - ٤٣

أصول الفكر الإرهابي لجماعة الإخوان المسلمين ..... — أنمار نزار الدروبي — ٤٤ - ٥٥

دول الشرق رهينة الجيوش غير النظامية ..... — ولاء أبو ستيت — ٥٦ - ٦٢

القوى الناعمة ودورها في السياسية الدولية ..... — أحمد شيخو — ٦٣ - ٧٦

◆ الشرق الأوسط فكرياً وتاريخياً

لماذا يتمرد الكردي؟ ..... — صالح بوزان — ٧٧ - ٨٣

العلاقات الكردية العربية (الجزء الثالث) (بداية العصر الحديث)..... — عبد الله شكاكي — ٨٤ - ١٠٢

الصراع والعداء التركي الفرنسي تاريخه، وأسبابه ..... — جمال علو — ١٠٣-١١٤

القضيّة الكُرديّة في خِضمِّ الحرب الباردة بين الشَّرق والغرب.. التّحالفات والانقسامات — جميل رشيد — ١١٥-١٢٥

◆ مواضيع أخرى

داعش وماذا بعد سجن الصناعة؟ ..... — حسين عمر — ١٢٦ - ١٢٩

جبهة التحرير الوطني لفيتنام «الفيتكونغ»..... — مصطفى شيخ مسلم — ١٣٠ - ١٣٢

الحرب الروسيّة على أوكرانيا... (دروس وعِبر)..... — صلاح الدين مسلم — ١٣٣ - ١٤٤

كلمة العدد ٥٦

هيئة التحرير

ها هو عددُنا السادس والخمسون، في خضمّ الأزمات والحروب التي تجتاح العالم، حيث الحرب الروسيّة على أوكرانيا، وتأثيراتها على الشرق الأوسط، وعودة التحالفات والمؤامرات والأفخاخ، وجرّ الدول إلى الحروب، وعودة الدول التي خسرت الحرب العالميّة الثانيّة إلى الساحة، وانضمام الدولة التركيّة إلى صفّ الأوكرانيين، وصفّ الاتّحاد الأوروبي والناتو، وتأثيراتها على الأزمة السوريّة، والشرق الأوسط عامّة.

إنّ سلسلة الحروب لم تتوقّف ما بعد الحرب العمالية الثانيّة، لكنّ هذه القارة الأوروبيّة الهادئة التي انتهت من شبح الحروب، عادت إلى الساحة بقيادة الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا، لتكمل مسيرة تعطّش الحداثة الرأسماليّة للدماء التي تغيّر بها خرائط العالم، حيث ينحو العالم باتّجاه تغيير الخارطات السياسيّة، وإعادة تقسيم الأدوار، بعد مرور مئة عام على اتفاقية لوزان وغيرها من الاتفاقيات التي غيّرت الشرق الأوسط.

إنّ الحرب هي لغة هذه الإمبراطوريّات الجديدة، والتي انتهجت الرأسماليّة الجديدة، أو الحداثة الرأسماليّة التي اعتمدت على الصناعوية التي تدمّرُ البيئة الطبيعيّة بكلّ معانيها، والدولة القوميّة التي هي السبب في كلّ هذه الحروب، وفائض الإنتاج الذي يمزّق اقتصاد المجتمع، من خلال ظهور طبقة الحيتان التي ترسّخ هذا النظام الرأسماليّ وتعضّ عليها بكلّ نواجذها، فتستخدم الإعلام الذي تسيطر عليه للسيطرة على العقول، وتزييف الحقائق.

لابدّ لشعوب الشرق الأوسط أن تتوحّد ضدّ تهوُّرات قادة الدول التابعين لنظام الهيمنة، والذين لا يستطيعون أن يحيدوا عن أوامر هذا النظام العالمي، فارتأينا في هذا العدد أن نعالج بعض القضايا البيئيّة أو الإيكولوجيّة، فعالج كتّاب المجلّة الأعزّاء قضايا إيكولوجيا مهمّة مثل معالجة الفلسفة البيئية من تيودور أدورنو إلى المفكر عبد الله أوجلان، وتحليل فكر موراي بوكتشين، وكيفية إنقاذ الحياة على الأرض.

بالطبع تحاول مجلّة الشرق الأوسط الديمقراطيّ البحث في القضايا المصيريّة المهمّة في الوصول إلى مجتمع شرق أوسطيّ ديمقراطيّ، من خلال تحليل النظام الرأسماليّ والبحث عن الحلول الموضوعيّة لتلاحم شعوب الشرق الأوسط الديمقراطيّ الباحثة عن حلول قانونيّة للتوافق ما بين الشعوب والدول، فعالج أدباؤنا قضايا فكريّة وقانونيّة مهمّة مثل: العقد الاجتماعي السوري؛ دستور سوريا التوافقي ومبادئه الأساسية، وكيف أنّ دول الشرق باتت رهينة الجيوش النظاميّة وغير النظاميّة، بالطبع لا بدّ من معالجة أصول الأفكار التي تخدم هذه الحداثة الرأسماليّة، مثل معالجة أصول الفكر الإرهابي لجماعة الإخوان المسلمين، والقوى الناعمة ودورها في السياسة الدولية.

لا ريب أنّ القضيّة الجوهريّة لوضع حلول جذريّة لقضايا الشرق الأوسط عب القضيّة الكرديّ، فلماذا يتمرد الكردي؟ وتصوير التلاحم ما بين الشعب الكردي والشعب العربيّ من خلال الحلقة الثالثة لموضوع العلاقات الكردية العربية، والقضيّة الكُرديّة في خِضمّ الحرب الباردة بين الشَّرق والغرب، وكان من الضروريّ معالجة قضايا أخرى كالصراع والعداء التركي الفرنسي تاريخه، وأسبابه، وجبهة التحرير الوطني لفيتنام «الفيتكونغ»، وداعش وماذا بعد سجن الصناعة؟ والدروس والعبر المستفادة من الحرب الروسيّة على أوكرانيا.

الفلسفة البيئية من تيودور أدورنو إلى المفكر الأمميّ عبد الله أوجلان

والمواضيع الإشكالية في قضية البيئة

إسماعيل خالد محمد

«الفكر الذي لا يفسّر سوء الوجود، يبقى ظالماً لتسميته، فالحقيقة لا تكون حقيقة، وتظلّ الفلسفة عبثاً. ومع ذلك على الفلسفة ألا تستسلم، وإلا كان النصر للعبث اللاعقلاني، ذلك لأنّ العبث هو الحقيقة في شكل مقبول للبشر في أي مكان وزمان متى ما توارت الحقيقة باستسلامهم. حتى في ذروته، يبقى الفن محاكاة، وتبقى العين الطامحة لرؤية العالم بألوانه الحقيقية هي المقاومة العنيدة ضد تعفن العالم، وفي اللا محاكاة يكمن الوعد بالمحاكاة « تيودور فيزنغراد أدورنو

مقدمة

ما زال الإنسان ورغم المراحل الحضارية التي مر بها عبر التاريخ، وإلى اليوم يتعامل مع الأنساق البيئية بعقلية استغلالية مثيرة للعجب كما لو أن الطبيعة خزان لا ينضب..

لقد فهم أخيراً أنه يعيد إنتاج نفسه عبر أفعاله في الطبيعة، كما أنّ التطور التقنيّ يفعل فيه فعله بعمق على المستوى الجسدي والنفسي والثقافي؛ وكل ما نقوم به اليوم سيؤثر على إنسان المستقبل الذي سيكون كما أردنا له أن يكون. إذا نحن أسأنا "صياغته"، بمعنى صياغة الظروف المستقبلية التي ستحتضن وجوده، نكون بذلك قد لوحنا به في طريق ذات اتجاه واحد، وسيكون من المستحيل عليه تفكيك وجوده وإعادة تركيبه وفق رغباته هو مهما اتسع إدراكه وارتقت همته وإرادته.

إذا لوّث الإنسان المعاصر البر والبحر وأباد الكائنات الحية سيكون قد تسبب إلى الأبد في اضطراب "سلسلة عمل" ابتدأت مع بداية الكون، ويكون قد فعل ذلك لأسباب تافهة فرضتها طريقة العيش المعاصرة.

من هنا أهمية التناول الفلسفي لقضايا البيئة ومحاولة فهم السياق المفاهيمي المرتبط بأوضاع الكائنات الحية في الطبيعة وعلاقة الإنسان بها، ودراسة شبكة العلائق التي تشكل الأنساق البيئية وتطوراتها الكمية والكيفية ومآلاتها وتحولاتها، وهذا ما نروم الإسهام فيه من زاوية فلسفية عبر استدعاء أطروحات "الفلسفة البيئية" المختلفة، خصوصاً منها فلسفة "أخلاق الأرض" اختبار مدى صرامتها ومعقوليتها وقابليتها للرضوخ والامتثال.

مفهوم الأيكولوجيا العميقة Deep Ecology

إنّ أبرز ما أثار الاهتمام في مجال الفلسفة البيئية الوليدة هو مفهوم الأيكولوجيا العميقة Deep Ecology، فماذا يقصد بهذا المفهوم؟ الأيكولوجيا العميقة حركة بيئية أطلقها في العام ١٩٧٣ الفيلسوف النرويجي آرني نايس عندما نَحَتَ هذا المصطلح واجتهد في إعطائه أساسًا نظريًّا، وتصف هذه الأطروحة نفسها بـ"العمق"؛ لأنها تطرح أسئلة أعمق عن مكانة الحياة الإنسانية.

وتتبنى "الأيكولوجيا العميقة" على مبدأين أساسيين وهما:

١- تبصُّر علمي في ترابط منظومات الحياة كافة على الأرض، إلى جانب فكرة أن المركزية البشرية طريقة غير موفَّقة في رؤية الأشياء، ويقول الأيكولوجيون العميقون، بهذا الصدد، بأن موقفًا أيكومركزيًّا هو موقفٌ أكثر انسجامًا مع حقيقة طبيعة الحياة على الأرض. إنهم، بدلاً من اعتبار البشر كشيء فريد تمامًا في الكون، يرون البشر كخيوط لا تتجزأ من نسيج الحياة.

٢- المكوِّن الثاني للأيكولوجيا العميقة هو ما يسميه آرني نايس: "حاجة الإنسان إلى التحقُّق الذاتي". فبدلاً من التماهي مع أنانية البشر، ينبغي علينا أن نتعلَّم التماهي مع الشجر والحيوان والنبات، ومع النطاق الأيكولوجي ككل، وهذا ينطوي على تغيير جذريٍّ فعلاً في الوعي، لكنْ من شأنه أن يجعل سلوكنا أكثر انسجامًا مع ما يخبرنا العلم بأنه ضروري من أجل تحسين حال الحياة على الأرض؛ أي أننا ينبغي أن نمتنع عن فعل أشياء معينة تضرُّ بالأرض...

وقد تعرضت الأيكولوجيا العميقة النابعة أساساً من نظرية "أخلاق الأرض" لسيل من النقد اللاذع يتّهمها بالاستناد إلى الشمولية الميتافيزيقية، وكونها يمكن أن تصب في اتجاه فظيع سياسياً. إن فكرة اعتبار الغلاف الحيوي كوحدة شاملة محتوية على قيمة جوانية تتجاوز قوة عناصره المكونة منعزلة بما فيها الإنسان، تثير معارضة شديدة من طرف من يرون فيها بوادر العودة إلى "رومانسية" شمولية ولا عقلانية.

لقد أصبح لزاماً اليوم تدبير الثروات الطبيعية مع احترام "السلامة البيئية" باعتبارها "مطلبا" يندرج ضمن مفهوم العدل مثلما الشأن بالنسبة للتوزيع العادل للثروات. إن تداعيات حماية الطبيعة أو تدميرها وما يترتب على ذلك من إيجابيات أو سلبيات ينبغي أن "تقتسم بشكل عادل" بين مجموع المواطنين؛ إذا كان "الهدف المثال" في الفلسفة السياسية هو "إقامة العدل"، فإن "الهدف المثال" بالنسبة للفلسفة البيئية هو تحديد "الحقوق والواجبات" في علاقة المواطن بالوسط البيئي من حيث التمثل والحماية والاستشراف.

- ثمة علاقة على المستوى الابستيمولوجي بين مصطلحي "علم البيئة" و"علم الاقتصاد" وهما مشتقان من "oikos" ومعناها "بيت"، مما يتيح طرح سؤال إشكالي قد يضيء بعض جوانب العلاقة بينهما. وهو هل لهذا الأصل اللغوي المشترك علاقة بارتباط مفهوميهما بالتنمية المستدامة .

- إنّ مصطلح اقتصاد يعني في بيئة اليونانية "قانون المنزل": أي حسن تدبير الشؤون العائلية ولم يكتسي المصطلح مفهومه الحالي إلا خلال القرنين ١٧ و١٨ حينما أدار ظهره لمفهومه القديم. وخلال القرن ١٩ تجسد مفهوم الأيكولوجيا بمعنى علم المجالات الطبيعية لم يكن على الأرجح يستحضر الجذر المشترك بين "أيكولوجيا" و"إيكونوميا"؛ لأنّ هذا الأخير عرف تغييرات كبرى بين أرسطو وآدم سميث خصوصا فيما يتعلق بربط المفهوم بفكرة "النظام العام" خصوصا "نظام العناية.

وانطلاقاً من هذه المقاصد يمكن تعريف "الأيكولوجيا السياسية" باعتبارها "منظومة قيم" تنطوي بالضرورة على ثلاثة مجالات للتطبيق: العدل داخل الدولة، والعدل بين الدول، والعدل بين الأجيال.وجدت هذه الفكرة تقعيدها في نقد العقل الغربي من طرف مدرسة فرانكفورت التي انتقدت -خصوصاً مع الفيلسوف تيودور أدورنو- الذي تعامل مع العقل

"ما زال الإنسان إلى اليوم يتعامل مع الأنساق البيئية بعقلية استغلالية، كما لو أن الطبيعة خزان لا ينضب. لكنه فهم أخيراً أنه يعيد إنتاج نفسه عبر أفعاله في الطبيعة، كما أن التطور التقنيّ يفعل فيه فعّله بعمق على المستوى الجسدي والنفسي والثقافي؛ وكل ما نقوم به اليوم سيؤثر على إنسان المستقبل الذي سيكون كما أردنا له أن يكون."

كأداة. لقد دعا إلى تبنّي "الأخلاقية التواصلية" عوض الأخلاقية الأداتية.

إن قضية التوازن بين الانتماء إلى الطبيعة والاستثناء فيها تم التطرق إليها قبل أدورنو عندما قارن بين مفهوم العقلانية العميق مع أصل العقلانية الأداتية أو العقل الأداتي. وانشغل أكثر بـ"معرفة أين يُفرض الفصل المثالي بين الذاتية والطبيعة وأين وكيف يتم تجاوزه؟

يعتبر العالم شبكة من علاقات الاعتماد المتبادل على مستويات متنوعة. مثل التجهيزات والسياسة والحسّ الأخلاقي... هكذا يُفهم "عالم" العلاقات بمصطلحات بشرية تحُدّ من قدرتنا على إدراك عالميَّة الطبيعة. أو بكلمات هايدغر نفسه. "كل ذلك الذي سوف نكون قادرين على قوله أو التفكير فيه أو تجربته من الظواهر الطبيعية المفترضة يتموضع بشكل ضروري ضمن العالم". وبطريقة ما. وعلى الرغم من فكرته عن البشر الكائنين في العالم التي

تنهي الانفصال بين الذات والموضوع الذي يعتقد أن ديكارت قد جلبه. فإنّ أدورنو يستبقي نوعًا من الفصل المثالي بين الطبيعة والبشرية. "العالم" فضاء مفاهيمي مختلف عن الأرض.

يعلن الكثير من المفكّرين البيئيين الجذريين أنّنا على مفترق حاسم في فهمنا التاريخي للطبيعة. فلكي نجتاز عصر أزمتنا البيئية الحالية، ينبغي أن نهجر التصورات المفتقِرة عن الطبيعة التي أورثنا إياها التراث الغربي، وننتقل إلى صياغة أغنى، وأكثر إرواءً من الوجهة الروحية، للعالَم الطبيعي ولمكانتنا فيه.

لا ريب أن هايدِغر كان سيوافق على هذا المشروع العام. فهو يقول، من جهة، بأن الاجتياح الحديث للطبيعة هو نتيجة لسيطرة الفهم "التكنولوجي" الحديث للعالَم الذي، بدوره، يرى فيه ذروة "التراث الميتافيزيقي" الغربي. وهو، من جهة أخرى، يقدّم في كتاباته اللاحقة عن "الإقامة" وصفًا لفهم حكيم "غير تكنولوجي" للعالَم.

ومن جانبه وجه المفكر أوجلان انتقادات بتطبيق الديالكتيك الطبيعي على العلاقة بين الطبيعة والمجتمع وكنقد لمذهب الإحيائية، حيث يؤكد "بطريقة ما، المجتمع، كطبيعة ثانية، هو مستوى متطوّر أعلى، لكنه منعكس في الطبيعة الأولى". عموماً، سهّل مصطلح "الديالكتيك الطبيعي" مقدرة تحليلية وفلسفية لدى أوجلان بهدف تجاوز الثنائية التي تضع ذات المجتمع في مواجهة موضوع الطبيعة، حيث وصف المفكر أوجلان أنّ الطبيعة تظهر إمكانياتها من خلال عملية تطورية تراكمية، بحيث تتطور من أبسط أشكال الحياة إلى أكثرها تعقيداً واختلافاً وتنوعاً وذاتيةً وحراً واختياراً.

إنّ السبيل الأكثر واقعية هي البحث عن جذور الأزمة الأيكولوجية المتجذرة طرداً مع أزمة النظام الاجتماعي، وبشكل متداخل. فالمجتمع في مضمونه ظاهرة أيكولوجية.

فالإدارات المستعمرة للإنسان طوّرت بالتوازي مع استغلال الطبيعة والتحمت الهيمنة على الإنسان مع الهيمنة على الطبيعة والتحكّم بها.

وكانت المحصلة أن التحمت أزمة البيئة بالأزمة الاجتماعية وحالما نقل مضمون النظام القائم الأزمة الاجتماعية إلى مساحة الفوضى البيئية وبدأت البيئة بإطلاق صيحات الاستغاثة من أجل الحياة لما لحق بها من كوارث وفواجع.

مصدر كوارث عصرنا كما يراها ثيودور أدورنو، هو السيطرة وبأي ثمن على الثلاث أشياء التالية: السيطرة على الطبيعة من قبل البشر، سيطرة البشر على طبائعهم البشرية في أنفسهم، وفي كلّ من شكلي السيطرة تلك يوجد الشكل الثالث، وهو سيطرة البشر على بشر آخرين.

ما يحفز وجود هذا الحب للسيطرة هو الخوف اللا عقلاني من المجهول فيقول: "يعتقد الإنسان أنّه حر من كل مخاوفه، حالما يَعرف كلَّ مجهول مما يجعل من تفكيك الخرافة والأساطير أمراً ضروريّاً.

إنّ التنوير اجتثاث تلك الأساطير من جذورها فالمجتمع المهتم بالسعي خلف ركب التقدم لكنه غير حر سيعرّف كل ما هو مختلف عنه، سواء بشراً أو غير بشريٍّ بأنه "الآخر"، ومن ثم يدفع به جانباً إما بالاستغلال أو التدمير.

يتكون تشخيص ثيودور أدورنو لمجتمع التبادل على ثلاثة مستويات: - مستوى سياسي-اقتصادي، اجتماعي-نفسي ومستوى ثالث ثقافي.

جاء المستوى الأول كاستجابة لنظرية رأسمالية الدولة خلال سنوات الحرب. في فترة الحكم النازي لألمانيا والاتحاد السوفيتي والصفقة الجديدة الأمريكية في الثلاثينيات، حيث كانت الدولة هي المسيطر على القوى الاقتصادية السياسية، فقام بتسمية هذه الحالة بالـ"دولة الرأسمالية.

وأكّد ثيودور أدورنو بأن المجال الاقتصادي كان متداخلاً في هذه الحالة مع السياسي، إلا أنه لا يعتقد بأن ذلك يغيّر واقع الاستغلال الرأسمالي للإنسان. بل يرى أنّ هذا الشكل يقوم على وضع الاستغلال في حالة من التجريد الذي يساعد على استمراره بفعالية ومرونة أكثر في الهروب.

الأيكولوجيا السياسية" حل عملي "للمعضلة البيئية" عند تيودور أدورنو

طرح تيودور أدورنو مصطلح "الأيكولوجيا السياسية" باعتبارها حلاً عملياً "للمعضلة البيئية" وأبقاها مشروعاً "مبهماً" لا سيّما وأنّ الأرضيّة الفلسفية التي يمكن أن تسندها لا زالت بصدد التبلور. وكسب المواقع. وعليه وجب الاقتراب أكثر من مختلف الفلسفات البيئية لإبراز مقاصدها والقيم البيئية الثانوية فيها...

«نستطيع القول: إنّ الجدل السلبيّ لأدورنو هو إجابة مختلفة على مسألة واحدة».

هذه المسألة هي مشكلة الكشف عن الصفة السلطويّة للعقل المتمركز على الذات.

إنّ مفهوم العقل الأداتي الذي يستلِبُ الوعي النقدي ويُسيطر عليه كليّاً. يطغى بشكلٍ واضح على مفردات أدورنو في كلٍ من جدل التنوير والجدل السلبي.

في هذين الحالتين هناك سوداوية خانقة تُذكّرُنا بفكرة «الوعي الشقيّ» عند هيغل. أمام سوداوية الواقع المُستلب والمُشوّه يجد الفكر النظري نفسه. وفق تحليلات أدورنو. مشلولاً تماماً وعاجزاً عن المقاومة فينعي نفسه تاركاً «بومة منيرفا» تنعق فوق خرائب الفلسفة والوعي النظريّ النقديّ. لكنه وبعد أن أدرك استحالة الجدل السلبيّ. سيجد أدورنو في يوتوبيا الفن مخرجاً آخر. وأُفقاً مفتوحاً لمقاومة سوداوية الواقع وتجاوزاً لأزمة انسداد الآفاق التي انتهى إليها العقل الأداتي.

> **"إن قضية التوازن بين الانتماء إلى الّطبيعة والاستثناء فيها تم التطرق إليها قبل أدورنو عندما قارن بين مفهوم العقلانية العميق مع أصل العقلانية الأداتية أو العقل الأداتي، وانشغل أكثر بـ× معرفة أين يفرض الفصل المثالي بين الذاتيُة والطبيعة وأين وكيف يتم تجاوزه؟ يعتبر العالم شبكة من علاقات الاعتماد المتبادل على مستويات متنوعة، مثل التجهيزات والسياسة والحس الأخلاقي.**

هكذا سينهي أدورنو حياته الفكرية في الحديث عن التجربة الجماليّة بوصفها شكلاً من أشكال المقاومة.

ما بين الحُلم والواقع، الوعي واللاوعي

أدورنو الحالِم. أدورنو الكاتب والموسيقيّ الذي يشرح في كتابه (الاخلاقيات الدنيا) كيف أنّ الوعي المُتيقّظ يُفسِد ويؤذي ويُخرّب الأحلام الأجمل التي تبدو من وجهة نظر الواقع الفعليّ مجرّد أوهام أو «أضغاث أحلام».

إذا أردنا الوصول إلى فهم حقيقي. فإنّ ذلك ينبغي أن يتحقّق من خلال إدراك العلاقة المتبادلة بين البناء الاقتصادي للمجتمع. والنموّ النفسي للفرد والظواهر الثقافية السّائدة.

سيطرت العديد من أعمال أدورنو على الفكر الاجتماعي في السنوات الأخيرة: الهيمنة على الطبيعة تظهر كقضية مركزية للحضارة الغربية. الأيكولوجيا أصبح مصطلحاً شائعاً

اليوم.

وفي سياق هذه الأعمال يقدم أدورنو رؤيته للجدل بمحاذاة الحقيقة: عندما يظهر بأن الحقيقة بنفسها أَصبحتْ أيديولوجيا، المساهمة الأعظم أن النظرية النقدية يمكن أَنْ تُصنع لتستكشف التناقضات الجدليةَ للتجربة الشخصية الفردية من ناحية، وإبقاء حقيقة النظرية من ناحية أخرى. حتى الجدل يمكن أَنْ يصبح وسيلة للهيمنة: "حقيقته أَو غير حقيقته، لذا، لَيس متأصلاً في الطريقة نفسها، لكن في قصده في العملية التاريخية- الكلام لأدورنو."

وهذا القصد يجب أَنْ يكون نحو الحرية والسعادة التكاملية: "الفلسفة الوحيدة التي يمكن أَنْ تزاول بمسؤولية في وجه اليأس، محاولة تأمل كلّ الأشياء كما هي تقدّم نفسها من وجهة نظر التحرير". يختم أدورنو: "لكن بجانب هذا المطلب، سؤال الحقيقة أَو الوهم تحرير نفسه أمر بالغ الصعوبة..»

أدورنو موسيقار، كتب فلسفة الموسيقا الحديثة، التي فيها هو، جوهرياً، يجادل ضدّ الجمال نفسه — لأنه أَصبح جزءاً من أيديولوجيا المجتمع الرأسمالي المتقدّم ويساهم في الهيمنة. يبقى الفنُّ والموسيقى طليعة الحقيقةَ عن طريق أَسْر حقيقة المعاناة الإنسانية. وجهة نظر هذه للفنّ الحديث، بأنّها حقيقة منتجة من خلال إنكار الشكلِ الجمالي التقليدي والمعايير التقليدية للجمالِ لأنه أصبح أيديولوجيا، هي خاصية أدورنو ومدرسة فرانكفورت عموماً.

عمق تأثير الأبعاد الفلسفية والسياسية للأيكولوجيا الاجتماعية على كتابات المفكر الأمي عبد الله أوجلان

بدأ حضور مصطلح «الأيكولوجية» (علم الوعي البيئي- الاجتماعي) يظهر في كتابات المفكر عبد الله أوجلان منذ عام ٢٠٠٣، وبجوار مصطلحات أخرى مثل: المجتمع الديمقراطي- والبيئي، والكومونات، والمجالس، والهيئات.

حيث قام المفكر أوجلان بتكييف جسم «الأيكولوجيا الاجتماعية» بشكل أو بآخر في عمله الخاص، حيث كان مدركاً تماماً قضية البيئة التي أحدثتها الرأسمالية في المجتمع. ومع ذلك تم تعميق هذا الوعي من حيث بلورة المفاهيم وتعزيزه فلسفياً وسياسياً، فقد نظر إلى أزمة البيئة بوصفها قضية مركزية، ورأى أنّها نتاج الانهيار الاجتماعي الناجم عن الهرمية والسيطرة والاستغلال والعبودية، مبيّناً: «عندما بدأ الإنسان في استعباد أخيه، بدأ أيضاً في استعباد الطبيعة»، بحكم أنّ «هذه القضايا البيئية غير المسبوقة نابعة أساساً من مجتمع محطّم». يمكن للمرء أن يرى بوضوح أنه عندما صاغ المفكر عبد الله أوجلان هذه الجملة، كان المبدأ المركزي لفلسفة الوعي البيئي في ذهنه، مفاده يكمن في « فكرة هيمنة الإنسان على الطبيعة تنبع من هيمنة الإنسان على الإنسان أولاً».

ولحلّ المعضلة البيئية، هي معضلة عالمياً ومحلياً، وخلق مجتمع قائم على الوعي البيئي، اقترح المفكر عبد الله أوجلان برنامجاً سياسياً بحيث "لا يستنسخ النظام الهرمي القديم أو النظام التقليدي القائم على الدولة، ولا نظام يتخذ من العبودية أساساً له، حيث يتمّ قمع المجتمع واستغلاله"، بل قام بتطوير نظام غير هرمي وأخلاقي قائم على علاقة جدلية مع الطبيعة والديمقراطية المباشرة، والفكرة التي نادى بها من خلال ما تحدث به عندما قال:

«سنبني نظاماً قائماً على الأخلاق يتضمّن علاقات جدلية مستدامة مع الطبيعة، ونظاماً لا يعتمد على هياكل السلطة الداخلية، إنّما نظاماً يتمّ فيه تحقيق الرفاهية المشتركة من خلال الديمقراطية المباشرة».

وبوصفه يعتبر مفكراً ثورياً تعاطى مع قضية الوعي البيئي الاجتماعي، رفض التعامل مع الأزمة البيئية بإجراءات مجزّأة، بل دعا إلى

تغييرات شاملة تعزز إعادة الانسجام مع الطبيعة بطريقة جذرية، مما يعني إنشاء مجتمع ديمقراطي تشاركي، بقوله: "إنّ الوعي بالبيئة والطبيعة والاهتمام بهما لا يستلزم فقط الاهتمام بالهواء النقي والمياه النقية، إنما يعني أن نعيش بالكامل مع الطبيعة، وأن نعود من اختزاليتنا الحالية (تقسيم الطبيعة إلى أجزاء صغيرة)، إلى نظرة شاملة للطبيعة، هذه المقاربة تعني بناء مجتمع ديمقراطي وتشاركي أيضاً».

- لقد كان المفكّر عبد الله أوجلان مُحبَطاً من اختزالية وحدة التحليل الماركسي المستندة إلى "الطبقة". مما دعا إلى العودة إلى تناول "التاريخ الطويل" بهدف الكشف عن جذور الهرمية والهيمنة في سراديب فجر الحضارة. كان يسعى إلى فهم أصول الهرمية ومن ثم تفكيك أسطورتها، كما أشار هو بنفسه: "عند البحث عن جذور الأزمة البيئية، التي تتفاقم بالتوازي مع أزمة النظام، يبدو من المنطقي أن نبدأ البحث في بداية الحضارة «.

عزز مؤلّف "أيكولوجيا الحرية" من الأدوات الأنثروبولوجية لدى المفكر عبد الله أوجلان، فكتب بصيغة مختلفة:" إن تطوّر السلطة والهرمية حتى قبل ظهور المجتمع الطبقي يمثّل نقطة تحوّلٍ مهمّة في التاريخ"، فضلاً على أنّ الدولة تعتبر بمثابة "ممثل للهياكل الهرمية المؤسساتية بشكل دائم».

المجتمع الطبيعي في فلسفة المفكر عبد الله أوجلان

وصف المفكر عبد الله أوجلان الحقبة التي سبقت صعود الهرمية. بـ» المجتمع الطبيعي»، واعتبر أنّ هذا المجتمع يحمل بصمات حضور المرأة، ومنظم وفق علاقات اجتماعية غير هرمية وسلمية وتعاونية وقائمة على التضامن. ومع ذلك، ومن داخل هذا «المجتمع العضوي» تحديداً، شقّت الهرمية طريقها إلى مسرح التاريخ.

منذ ذلك الحين، تداخل جدلياً صراع الحرية والهيمنة تاريخياً، حيث كان الشكل الأولي للهرمية تمثل في التحالف الذكوري (الشامان، والشيخ، والرجل القوي) ضد المرأة، موضحاً: "كان النظام الأمومي الأقدم، الذي اعتمد على السلطة الطبيعية، الضحية الأولى للمجتمع الهرمي. والمرأة هي الطبقة الأولى تعرضت إلى الاستعباد". وبهذه المقاربة، اتخذ أوجلان نفس موقف المؤرخة والناشطة النسوية جيردا ليرنر في كتابها "نشأة النظام الأبوي"، حيث جادل أوجلان بأن "جميع أشكال العبودية نشأت نتيجة استعباد المرأة".

نعت المفكر أوجلان حكم الهرمية بأنه حكم "كبار السن"، ووصفها بـ «المجتمع الأبوي».

ولتأسيس علم البيئي- الاجتماعي (الأيكولوجيا) داخل جسم فلسفي صلب ومتماسك، هذه العملية الجدلية تحتوي إمكانياتها في بذرتها كما قلنا، وهي دائماً تتحدّى التجريد القائم في "النظام الاجتماعي التاريخي والرأسمالي المعاصر" وتسعى نحو ما ينبغي أن يكون (مجتمعاً حرّاً وبيئيّاً) وفق المنطق الوجودي والأخلاقي الذي يصاحب التطور الطبيعي والاجتماعي من خلال: الانعكاسية الذاتية، والعقل، والحرية.

انتقد أوجلان النهج "التقدمي الخطّي" للماركسية المادية والجدلية التاريخية، ومع التعرف على مصطلح "الجدل الطبيعي" فتحت له آفاق، ساعدته لنبذ التفسيرات الجدلية لدى المثالية الهيغلية والماركسية بحكم "عواقبها المدمرة".

وكلمة السر في هذه الإساءة التفسيرية وفق المفكر أوجلان، تكمن في المفهوم الأساسي لدى هيغل النفي والاحتواء والسمو" فهذا المفهوم لا يعني الاقصاء والتصفية كما جرى تفسيره، بل يعزز التطور دون أن يقضي على المرحلة السابقة، بحيث يحتفظ بها في شكل جديد، ويُحتمل أن يكون أكثر ثراءً وغنىً.

من هذا المصطلح الهيغلي المحوري، استخدم

”حالما نقل مضمون النظام القائم الأزمة الاجتماعية إلى مساحة الفوضى البيئية، وبدأت البيئة بإطلاق صيحات الاستغاثة من أجل الحياة لما لحق بها من كوارث وفواجع، فمصدر كوارث عصرنا كما يراها أدورنو هو السيطرة؛ (السيطرة على الطبيعة من قبل البشر، سيطرة البشر على طبائعهم البشرية في أنفسهم، وفي كل من شكلَي السيطرة تلك يوّجد الشكل الثالث، وهو سيطرة البشر على بشر آخرين.“

المفكر أوجلان ”جدلية بنائية وتطورية“ من أجل تموقع مكان الإنسان في الطبيعة والكون. يشدد المفكر أوجلان أن أتباع هيغل وماركس أساؤوا تفسير الديالكتيك، موضحاً“ سيكون من الأصح البحث عن الأخطاء التي ارتكبها أولئك الذين أساءوا تفسير هذا الجدل في النقاط الرئيسية، وليس في ماركس أو هيغل“.

ففي المجلدين الأخيرين من سلسلة ”مانفيستو الحضارة الديمقراطية“، يمكن للمرء أن يشعر بأنّ المفكر أوجلان لديه ميل قوي مع أعمال هيغل. حيث يقر بالمساهمات المهمة لليونان وأوروبا القديمة وعصر التنوير، لكنه يسعى في الوقت عينه، إلى إنهاء الارث الاستعماري وإزالة المركزية الأوروبية عن الجدل. حينما يشير بقوله: ”التفسيرات الديالكتيكية وفيرة في حكمة الشرق أيضاً «.

المواضيع الاشكالية في قضية البيئة، موضوع ”التمدن“

يرى المفكر عبد الله أوجلان، إن نموذج التمدن الرأسمالي بشقيه الدولتي والخاص، جنباً إلى جنب مع الحضارات الهرمية القديمة، يقوم على الهياكل السرطانية المشوهة داخل ثالوث «التمدّن والطبقة والدولة»، بحيث يدفعنا نحو حافة «قتل المجتمع» ويرسخ أزمة البيئة إلى أقصى الحدود من خلال التهام مناظر الطبيعة الزراعية.

حيث يعتبر أوجلان أن ”العقل قد تطور في علاقة وثيقة مع المدينة. فالمدينة هي المكان الذي بدأ فيه البشر في التعرف على اتساع طاقاتهم [إمكاناتهم]“.

وعليه يسعى أوجلان إلى استعادة الإمكانات الحرة والحقيقية للمدينة من أجل التغلب على قضية التمدّن، حيث يعبّر عن هذه المسألة بقوله: ”يجب أن نفكر في كيفية إنقاذ ما تبقى من الجمال والأخلاق والعقل داخل المدينة«.

سياسة الوعي البيئي- الاجتماعي

«يبقى السؤال الأساسي: كيف نقوم بإعادة بناء مجتمع بيئي وديمقراطي في الواقع؟ هل بالاعتماد على «الكومينالية» (التشاركية المجتمعية من القاع)؟

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، كان المفكر أوجلان يخوض معركة فكرية لفهم طبيعة الدولة الخطرة، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تقوية إرادة الناس وتمكينهم من أجل تفادي سطوة جهاز الدولة المركزي، ووجد بديلاً قابلاً للتطبيق بخصوص القضية الكردية وإمكانية توسيع هذا النموذج ليكون بمثابة خارطة الطريق للشرق الأوسط، حيث يسوده الحرية والديمقراطية. واستناداً على الكومينالية والبلديات التحررية.

لقد طور المفكر عبد الله أوجلان مشروعاً مناهضاً للرأسمالية ومركزية الدولة المفرطة، أطلق عليه «الكونفدرالية الديمقراطية»، والذي يرتكز على ثلاث ركائز: (الوعي البيئي-

الاجتماعي، والديمقراطية الجذرية، وتحرير المرأة.) وكنموذج اجتماعي غير دولتي وبيروقراطي، تهدف الكونفدرالية الديمقراطية إلى تمكين الناس من إدارة شؤونهم من خلال المجالس الاجتماعية، جنباً إلى جنب مع اتحاد البلديات والمجالس الديمقراطية المنتخبة من قبل الشعب من خلال السياسة الديمقراطية المباشرة وجهاً لوجه، وبذلك أعاد أوجلان صياغة رؤيته للسياسة باعتبارها إدارة ذاتية.

أعتبر المفكر أوجلان أن وجود الدولة فوق المجتمع يعد إنكاراً أساسياً «للسياسة» بالمعنى الأرسطي وأرندت الأوسع للكلمة، حيث أشار بأنه: «بأي حال من الأحوال، تعمل هياكل السلطة والدولة، حينما يتمّ إنكار حق الناس في إدارة السياسة الاجتماعية».

وفقاً لذلك، أطلق المفكر أوجلان على السياسات المناهضة للدولة اسم «السياسة الديمقراطية». بحيث تكون صيغتها النهائية توسيع نطاق الكونفدرالية الديمقراطية على حساب هيمنة الدولة- الأمة الأحادي.

يعتبر الوعي البيئي الاجتماعي (الأيكولوجيا) بمثابة الجسد التأسيسي لتفكير المفكر عبد الله أوجلان ومع ذلك لا يمكن اختزال هذه القضية فكرياً، وفي الوقت نفسه لا يمكن إنكار الأهمية الكبرى للأيكولوجيا الاجتماعية في الزخم الذي أعطاه إياه أوجلان لتبنّي مواقف أكثر جذرية وديمقراطية.

من الناحية الجدلية، احتفظ أوجلان بـ« الأيكولوجية الاجتماعية» كأحد الركائز الأساسية للحداثة الديمقراطية، وتالياً قام برعايتها وتطويرها وإثرائها في بيئة اجتماعية وسياسية مختلفة عن بقية الفلسفات.

الخاتمة

من خلال ما تقدّم يمكننا القول: إنّ المفكر عبد الله اوجلان وافق أدورنو في مخاطر المجتمع الصناعي على الثقافة، لقد أصبح لزاماً اليوم تدبير الثروات الطبيعية مع احترام "السلامة البيئية" باعتبارها "مطلباً" يندرج ضمن مفهوم العدل مثلما الشأن بالنسبة للتوزيع العادل للثروات. إنّ تداعيات حماية الطبيعة أو تدميرها وما يترتب على ذلك من إيجابيات أو سلبيات ينبغي أن "تقتسم بشكل عادل" بين مجموع المواطنين: إذا كان "الهدف المثال" في الفلسفة السياسية هو "إقامة العدل"، فإن "الهدف المثال" بالنسبة للفلسفة البيئية هو تحديد "الحقوق والواجبات" في علاقة المواطن بالوسط البيئي من حيث التمثل والحماية والاستشراف.

لكن "الأيكولوجيا السياسية" باعتبارها حلّاً عمليّاً "للمعضلة البيئية" تبقى مشروعاً "مبهماً" لاسيما وأنّ الأرضية الفلسفية التي يمكن أن تسندها ما زالت بصدد التبلور وكسب المواقع، وعليه وجب الاقتراب أكثر من مختلف الفلسفات البيئية لإبراز مقاصدها والقيم البيئية الثاوية فيه

المراجع المستخدمة في البحث:

1- ثيودور دبليو أدورنو، النظرية الجمالية، العابرة. مارك جيمينيز ، كلينكسيك ، 1974.

2- جمال بامي. الفلسفة البيئية وأخلاق الأرض، مجلة الإحياء، الرباط: دار أبي رقراق، 2010 م.

3- موراي بوكتشين، أيكولوجيا الحرية، ترجمة متيم الضايم، دار نقش، القامشلي 2002 م.

4- مايكل بيترز ووروث ايروين، الأرض: الشعريات الأيكولوجية وهايدغر ومفهوم الإقامة. مجلة Trumpeter مجلد 18، عدد 1، 2002.

5- مانيفستو الحضارة الديمقراطية، عبد الله أوجلان، المجلد الثاني، المدنية الرأسمالية.

6- الأيكولوجيا، منشورات لجنة بحوث العلوم الاجتماعية.

7- or more extensive Adorno bibliographies, see Huhn 2004, Müller-Doohm 2005, and Zuidervaart 2014, an annotated bibliography.

الإيكولوجيا

النشأة والدوافع والمبادئ – القوة القانونية والأخلاقية

أحمد دالي

تمهيد

من حيث المبدأ لا يمكن اعتبار ولادة أي شيء جديد سواء كان علماً أو فناً أو نظرية أمراً اعتباطياً، ومع أنه صحيح أننا لا نستطيع أن ننكر اكتشاف أشياء كثيرة عن طريق الصدفة، لكن تبقى مسألة قوننة (تقنين) قضية ما شيئاً خاضعاً للدراسة والتمحيص، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بوضع أسس علم جديد أو قانون أو فن أو نظرية علمية وما شابه، والأمر ذاته ينسحب على ظهور علوم كثيرة مثل العلوم القانونية والإدارية والحوكمة على سبيل المثال، وأستشهد بهذه العلوم ليس تمييزاً لها عن غيرها، لكن لأنها وُجدت نتيجة إرهاصات كثيرة سبقت ولادتها ومن ثم تقنينها، بعد أن كانت موجودة قبل ذلك ولكن بصور بدائية وتقليدية أو على الأقل بشكل لا يخضع للتقنين والقوالب العلمية، إلّا أنّ الحاجة دفعت بالمهتمّين والباحثين إلى نقلها من أطرها وسياقاتها القديمة إلى أطوار أكثر حداثة وفاعلية وخدمة وفائدة من ذي قبل.

إن الشيء نفسه ينطبق على الإيكولوجيا، لأن المسائل البيئية والمناخية لم توجد هكذا على غفلة من أمرها، ولم تخرج علينا هكذا بمحض الصدفة والاعتباطية، ولم تولد لأن رجالاً مكثوا في زواياهم العلمية والبحثية، وفكّروا في ابتداع شيء جديد. فقد سبق ظهور الإيكولوجيا كعلم وحاجة أنّ أدرك الإنسان المخاطر التي تحيق بالطبيعة من حوله، وأيقن أن ما يحدث للطبيعة من شرور ومفاسد هو نتيجة أفعال الإنسان نفسه، ولا بدّ أن تلفّه تلك الأخطار يوماً ما إذا لم يتحرك ـ أي الإنسان ـ لإنقاذ الموقف قبل فوات الأوان وإصلاح ما يمكن إصلاحه، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من براثن التلوث الصناعي الذي يسعى جهده لإرضاء جشع الربح وأصحابه.

من هنا جاءت الحاجة الملحّة والضرورية إلى النظر في موضوع البيئة والمناخ والطبيعة على محمل الجدّ، فانطلقت المؤتمرات الدولية التي سبقتها نقاشات ولقاءات كثيرة بهذا الخصوص، وكانت جميعها على دراية ويقين بأهمية الحفاظ على سلامة الكوكب الأزرق من التلوث والدمار، هذا على الأقل من الناحيتين النظرية والأخلاقية، ولكن ثمة أسئلة كثيرة تطرح نفسها في حالة من فقدان الثقة، وفي ظروف تحكمها اللا شفافية تجاه درجة القبول التي تحظى أو ستحظى بها مواضيع على هذه الدرجة من الأهمية (البيئة والطبيعة والمناخ والتلوث ووو...) في ظل عالم طغت عليه النزعة المادّية والهيمنة الصناعية والعلاقات التجارية والشهوة الربحية.

فإذاً والصورة هكذا، وفي خضمِ كل تلك التعقيدات والمصالح:

ـ هل يمكن أن تستجيب الدول الصناعية الكبرى للمطالب الأخلاقية بخصوص الحفاظ على البيئة نظيفةً؟

ـ هل يمكن أن تتمتع المؤتمرات واللقاءات في هذا الميدان بالقوة القانونية الملزمة؟

ـ وهل تستطيع الدول الصغيرة والنامية أو ما يُعرف بدول العالم الثالث والمجتمعات المستهلِكة، أن تتحمّل نصيبها من الإضرار الحاصل في الطبيعة والبيئة والثروات والموارد في حين أنه لا بدّ لها فيما يحصل، أو على أقلّ تقدير ليست صاحبة الذنب الأكبر؟

ـ وكيف يمكن للمنظمات الدولية وعلى رأسها الأمم المتحدة أن تتصدى للدول التي تخرق القوانين التي تدعو إلى حماية الكوكب؟

ـ ثم ما قيمة المؤتمرات التي تُعقد بهذا الشأن إذا لم تتحقق الغاية المرجوّة منها في الحدّ من الانبعاثات الغازية، والتقليل من دخان المصانع الكبرى، ووضع حلول سريعة لمشكلة الاحتباس الحراري؟

للخوض في غمار هذا الموضوع لا بدِ لنا في البداية توضيح خطة البحث فيه:

١ـ حول مفهوم الإيكولوجيا: النشأة والدوافع

٢ـ الإيكولوجيا العميقة والإيكولوجيا الضحلة

٣ـ بعض أنواع الإيكولوجيا (الإيكولوجيا البشرية، الإيكولوجيا الاجتماعية، الإيكولوجيا الحضرية، الإيكولوجيا السياسية)

٤ـ المبادئ التي يعتمد عليها الإيكولوجيون

٥ـ القوة القانونية والأخلاقية التي يتمتع بها علم الإيكولوجيا

١ـ حول مفهوم الإيكولوجيا: النشأة والدوافع

يُقال: وُجِدتِ البيئة في بداية نشأتها على أسس متوازنة من حيث توزع وتواجد الكائنات الحية على جميع أصنافها وأشكالها، ومن حيث مدى وكيفية تلاؤمها وتكيّفها مع بيئاتها المختلفة، والتفاعلات القائمة بينها، وبالتالي دراسة تدفقات الطاقة والمادة المنتشرة في النظام

البيئي. وإذا ما بدأنا من مصطلح الإيكولوجيا فهو مكوّن من مفردتين باللغة اليونانية؛ فكلمة (Oikos) تعني البيئة، وكلمة (Logos) تعني العلم، وقد استُخدم هذا المصطلح المركّب لأول مرة من قبل العالم البيولوجي "أرنست هايكل» في العام ١٨٧٤.

يدرس علم البيئة بشكل خاص الخلل الناتج في التوازن البيئي بسبب ممارسات الإنسان اللا مسؤولة تجاه الطبيعة والبيئة، تلك الأفعال والتصرفات التي لا تراعي قدرة الطبيعة على تحمّلها، ولا تأخذ في حسبانها أن بيئة الكوكب ليست ملكاً أو حكراً على دول أو مجتمعات دون أخرى، ويركّز علم البيئة على إيجاد السبل التي من الممكن أن تعيد تلك العلاقة التي كانت بريئة ذات يوم بين الإنسان ومحيطه وبيئته، أو على الأقلّ محاولة الحدّ من الغوص أكثر في هدم الطبيعة ودمارها، وذلك بسبب التلوث الناجم عن تقدم العالم الصناعي والمادي والانبعاثات الغازية من جهة، وحرق الغابات وامتداد التصحّر من ناحية ثانية، حتى غدا الإنسان الذي ساهم في تلوث محيطه هو نفسه الضحية التي وقعت في شر أعمالها.

وبعبارات مقتضبة يمكن توصيف الإيكولوجيا وتقديمها على أنها حالة من الانضباط وتنظيم العلاقة بين الإنسان والبيئة، ولكن حتى يتحقق هذا لا بدّ من إعادة النظر في العلاقات المنعقدة والتفاعلات الناتجة بينهما، والأنشطة الصادرة عن الإنسان بشكل خاص، فالإنسان هو المسيطر بل المستعمر لجميع القارات والمحيطات والبحار على وجه الأرض، وهو الذي لم ولن يقف عند حدود معينة، لأنه دائم التطور والتغيّر، فهو الذي يغيّر أنماط الحياة ويخطط المدن ويستثمر الأرض ويستغل الطبيعة إلى أقصى الحدود الممكنة، ولذا فإن علم البيئة يسعى إلى احترام الطبيعية ويهدف إلى حماية الموارد الطبيعية والحياة البرية والبحرية على السواء، ومكافحة التدهور الذي بدأ ينخر في الحياة الإنسانية ولاسيما موضوع التلوّث، كما يمكن إضافة عبارة أخرى جوهرية حول الدراسات الإيكولوجية؛ وهي

"لا توجد المسائل البيئية والمناخية هكذا على غفلة من أمرها، ولم تخرج علينا هكذا بمحض الصدفة والاعتباطية، ولم تولد لأن رجالاً مكثوا في زواياهم العلّمية والبحثية، وفكّروا في ابتداع شيء جديد، فقدّ سبق ظهور الإيكولوجيا كعلم وحاجة أن أدرك الإنسان المخاطر التي تُحيق بالطبيعة من حوله، وأيقن أن ما يحدث للطبيعة من شرور ومفاسد هو نتيجة أفعال الإنسان نفسه."

أن هذه الدراسات تركز على التفاعل بين البشر مع مختلف جوانب البيئة.

وعن موقع الإيكولوجيا في السياسة الدولية ومدى أهمية الفكرة في المحافل الدولية ومنظماتها ومؤتمراتها، فقد أصبحت ـ أي الإيكولوجيا ـ جزءاً أساسياً من السياسة العالمية منذ العام ١٩٧١ وذلك بفضل منظمة اليونسكو التابعة للأمم، فهذه المنظمة شرعت وقتها في برامج وأبحاث تهدف إلى التوسيع في علاقة الإنسان بالطبيعة وبمحيطه البيئي بشكل موسّع، وقد بدأ ذلك العمل ببرنامج بحث تحت اسم "الإنسان والمحيط الحيوي"، وعلى ذلك عقدت الأمم المتحدة أول مؤتمر للبيئة والإنسان في العام ١٩٧٢ في مدينة ستوكهولم، ثم تبع ذلك انعقاد "قمة الأرض" عام ١٩٩٢ في ريو دي جانيرو في البرازيل، وقد ساهمت هذه الخطوات المتتالية في تطوير مفهوم المحيط الحيوي، واستمرت الجهود الدولية على هذا المنوال إلى أن جاء الاعتراف الدولي في العام ١٩٩٧ بمخاطر

الاستخفاف بالتنوع البيئي وبخطر الأنشطة الإنسانية على البيئة والطبيعة، وخاصة الغلاف الجوي الذي بدأ يتهدد بشكل مباشر.

٢ـ الإيكولوجيا العميقة والإيكولوجيا الضحلة

ثمة من لا ينظر إلى علم البيئة نظرة شاملة، فهؤلاء العلماء يفرّقون بين نوعين من علوم البيئة من ناحية فلسفية ونظرية أكثر منها مادية أو عضوية، وعلى هذا فالإيكولوجيا العميقة بهذا المصطلح انطلقت لأول مرة على يد الفيلسوف النرويجي «آرني نيس» في العام ١٩٧٢على أنها حركة بيئية، وهي بذلك تبحث في أعماق مكانة الحياة الإنسانية وتطرح أسئلة عن ذلك، وتبحث عن إجابات أبعد من مسألة كيفية الحفاظ على البيئة سليمةً ونظيفة، بل هذه الإيكولوجيا العميقة تسعى إلى شرح ماهية العلاقة البشرية بالطبيعة من الناحيتين المعنوية والروحية، وانطلاقاً من هذه الفكرة يرى أصحاب فلسفة الإيكولوجيا العميقة أن الإنسان ليس بذلك الاصطفاء الذي يصنف نفسه فيه، وأن الإنسان ليس كائناً فريداً مختاراً من الله على أنه أفضل الخلق، وإنما هو خيط داخل في نسيج الحياة وتركيبة الطبيعة.

كما يعتقد الإيكولوجيون أصحاب النظرية العميقة أنه من المهمّ جداً أن يفهم الإنسان أنه بحاجة إلى التوصل لصيغة وحالة جديدة في تعامله مع الطبيعة والبيئة، بطريقة أقلّ وحشية وهيمنة وسطوة على براءتها وفطرتها، بل إن الإنسان يجب عليه أن يكون أقلّ عدائية تجاه الأرض، وأكثر حكمة ورأفة ورحمة بالكوكب إذا أردنا أن ننجو جميعاً.

إذاً: فالإيكولوجيا العميقة قائمة في أساسها على فكرتين:

الأولى هي إحكام العقلانية والحكمة والتبصّر والتفكّر بشكل علمي وموضوعي في تواؤم وتلاقي جميع منظومات الحياة على الأرض، واعتبار التفكير البشري المركزي غير معصوم في نظرته إلى الأشياء وتصرفه حيالها، وبالتالي ليس في محله إعطاء كل هذه القيمة للتفكير البشري وتمجيده على أنه الصورة المثلى للحياة، وهذا التفكير بصورته القائمة لا ينبغي اصطفاؤه أو منحه درجة الحكمة والعقلانية.

والثانية هي حاجة الإنسان إلى المراجعة الذاتية والتصالح مع النفس، بمعنى أن الإنسان بقدر ما يتواءم ويتماهى مع ذاته وأصدقائه وعائلته ومحيطه القريب، بالقدر نفسه ينبغي عليه أن يأخذ البيئة بالحسبان؛ إذ عليه أن يتماهى مع الشجر والحجر والحيوان والهواء والمياه، ومع محيطه البيئي عموماً، ثم إن التعامل مع النطاق الإيكولوجي على هذه الصورة يتطلب تغييراً جذرياً في الذهنية والوعي ورفع سوية المسؤولية، وبعبارة مختصرة وواضحة؛ تعتمد الإيكولوجيا العميقة على المعيار الإنساني في التعامل مع الطبيعة، وهو معيار يبدو فضفاضاً في كثير من الأحيان، إذ يمكن ليٌّ عنقه كلما اقتضت الحاجة بالنسبة لمن قد يتضرر من إنسانية المعايير وأخلاقية الموازين.

وفي المقابل هناك أصحاب فكرة الإيكولوجيا الضحلة، وهي تتعامل مع النطاق البيئي ومع الطبيعة بطريقة رياضية فيزيائية، في محاولة حثيثة منهم للحدّ من التلوث الناجم عن دخان المصانع العملاقة والانبعاثات الغازية، ووضع القيود أمام الأعمال البشرية التي من شأنها أن تضر بالبيئة، وحل المشاكل البيئية التي تواجه البشرية، فهذه الإيكولوجيا الضحلة في نتيجتها تبدو براغماتية وعملية دون أن تتطرق للأبعاد التي ينبغي على الإنسان أن يرتقي إليها، وبعيداً عن مزاجية المعايير الأخلاقية الفضفاضة.

٣ـ بعض أنواع الإيكولوجيا (الإيكولوجيا البشرية، الإيكولوجيا الاجتماعية، الإيكولوجيا الحضرية، الإيكولوجيا السياسية)

■ الإيكولوجيا البشرية أو علم البيئة البشرية

يركز علم البيئة البشرية على دراسة البيئات المحيطة بالبشر والتأثيرات التي تخلقها وتعكسها هذه البيئات على حياة البشر بشكل عام. ويعود ظهور مصطلح «علم البيئة البشرية» أول مرة إلى العام ١٩٠٧ على يد «إلين ريتشاردز» من خلال كتابه (الإصحاح في الحياة اليومية).

تسعى الإيكولوجيا البشرية ما دامت على هذه الصورة إلى البحث في الموضوعات التي تسلط الضوء على الانفجار السكاني للبشرية، وطرح سبل العلاج والحلّ لهذا الانفجار، ومعرفة حدود الموارد العالمية والتلوث، ووضعها تحت المجهر الحسابي. كما تسعى إلى انتزاع الاعتراف من الدول، والمجتمعات المتّهمة بأن معظم النظم البيئية المعاصرة قد تأثرت بالأفعال البشرية الضارّة التي لم يعترف أصحابها باقترافهم لها، وربما لن يعترفوا أبداً لطالما كانت غاياتهم تبرّر وسائلهم.

■ الإيكولوجيا الاجتماعية

تعود نشأة هذا النوع من فروع الإيكولوجيا إلى علم الاجتماع، لأنّ علم الاجتماع يتصوّر البيئة الاجتماعية على أنها نهج وسلوك يركز على دراسة الإنسان والطريقة التي يتأثر بها ببيئته، فموضوع ومحور الإيكولوجيا الاجتماعية هو الإنسان من حيث علاقته بالبيئة، ومن ناحية تأثير البيئة عليه، فمن هذا المنظور أخذ "موراي بوكتشين» بعين الاعتبار بعض العناصر والتصرفات من الأفعال البشرية التي من شأنها أن تكون سبباً في خلق اختلال في التوازن البيئي، لأن سلوك الإنسان بقدر ما هو مسؤول عن الحفاظ على بيئة نظيفة بالقدر نفسه هو المسؤول عن الإضرار بها وتدميرها، ثم إن هذه السلوكيات البشرية السلبية المهدِّدة للبيئة تنعكس في قلة الوعي وأزمة انحلال القيمة وتدنّي الأخلاق وانعدام المسؤولية، وعلى هذا الأساس فإن

> **"وجِدتِ البيئة في بداية نشأتها علىُ أسس متوازنة من حيث توزع وتواجد الكائنات الحية على جميع أصنافها وأشكالها، ومن حيث مدى وكيفية تلاؤمها وتكيفها مع بيئاتها المختلفة، والتفاعلات القائمة بينها، وبالتالي دراسة تدفقات الطاقة والمادة المنتشرة في النظام البيئي. وإذا ما بدأنا من مصطلح الإيكولوجيا فهو مكون من مفردتين باللغة اليونانيّة؛ فكلمة** (Oikos) **تعني البيئة، وكلمة** (Logos) **تعني العلم.**"

الإيكولوجيا الاجتماعية تركّز على حياة البشر ضمن أنواع أخرى مختلفة من الحيَوات التي يتكون منها النظام البيئي، بغية الحدّ مما قد تسبّبَ وما يزال يتسبّب بانقراض العديد من الأنواع واختفاء مساحات شاسعة من الغابات، وامتداد التصحّر بسبب عمليات التصنيع اللا محدودة واللا مسؤولة، وكذلك التحضّر في المدن الكبيرة بشكل عام والذي بلغ درجة الانفجار في مدن أخرى باتت الحياة فيها أشبه بلعبة الدهاليز.

■ الإيكولوجيا الحضرية

مقياس تصنيف الدول المتحضّرة هو النسبة المئوية لسكانها الذين يعيشون في منطقة حضرية، أي في التجمعات السكانية التي تشكل البلدات الكبيرة والمدن، على حساب اضمحلال أو غياب الحياة والمظاهر الريفية، وفي هذا الميدان نجد أن بعض الدول تحدد الحدّ الأدنى لاعتبار المنطقة حضرية أو لا من ١٠،٠٠٠ إلى ٥٠،٠٠٠ شخص.

النمو الحضري هو الزيادة في عدد سكان المدن، والذي عادةً ما يقع بإحدى طريقتين: إما الزيادة الطبيعية وإما الهجرة من الأرياف إلى المدن، والتحضّر والتجمّع في المدن كما هو معروف يغيّر المناخ نحو السيئ، لأن المدن تكون أكثر تلوّثاً وحرارة، وبالتالي تكون أكثر تلويثاً لما حولها، وكذلك تكون أقلّ شجراً وهواءً نظيفاً، وهذا الوضع بطبيعة الحال تتولد عنه مظلة غبارية حرارية فوق معظم المدن.

ـ الإيكولوجيا السياسية

في إطار مفهوم أن البيئة هي مجموع العلاقات التي تربط الكائنات الحية بالوسط الحيوي والعضوي وغير العضوي المحيط بها، تُطرح المشكلات البيئية الناجمة عن التصنيع والجشع والربح السريع والتجمعات السكانية الضخمة، وفي هذه اللحظة يدخل مصطلح «الإيكولوجيا السياسية» على الخط ليقف في وجه من يدعو إلى التكيّف مع المشكلة، بدلاً من أن يدعو إلى حلّها، والقضاء عليها، فالإيكولوجيا السياسية ترفض الدعوات المطالبة بالتدخل لتنظيم الخراب الناجم عن التلوث البيئي أو التحكم في هذا الخراب، بل على العكس من ذلك كله، فهي تطلب الحرص على الموارد الطبيعية وحمايتها بدلاً من ترقيع الأزمة بمحاولة مراقبة وتنظيم الدمار والخراب الذي يصيب الطبيعة ومواردها.

يوجّه روّاد الإيكولوجيا السياسية اللوم إن لم نقل أصابع الاتهام إلى النظام العالمي القائم، لأنه نظام قائم على التحكم في الشركات الكبرى العابرة للقارات، ولا يهمّ تلك الشركات إلا الربح السريع كما هو معروف عنها، ولأنه نظام يسعى إلى استغلال الطبيعة ومواردها إلى أقصى درجة ممكنة، غير آبهٍ بم قد ينتج عن ذلك من كوارث وندرة للموارد الطبيعية واغتناء قارّة على حساب قارة أخرى، لأنه نظام يستخرج ثروات الشعوب الفقيرة وبأيدي تلك الشعوب نفسها ليستفيد منها أناس آخرون يديرون الشركات والمصانع، ويتحكمون برؤوس الأموال وطرق التجارة وقوانينها التي وُضعت لحمايتهم.

في هذا الصدد نشأت أحزاب صديقة للبيئة مثل حزب الخضر الألماني، وقد تبوّأت هذه الأحزاب مراكز متقدّمة في مجال الحفاظ على البيئة والطبيعة، ومن الواضح أن الإيكولوجيا السياسية تتّهم القوى الرأسمالية بالمسؤولية إزاء ما يحدث لكوكبنا من أزمات بيئية، وتصوّب سهامها نحو النظام الاقتصادي الحاكم في عالم اليوم، ولذلك فإن الأحزاب والحركات اليسارية هي التي تحرك هذه السياسة الإيكولوجية، فهي مناهضة للعولمة وجميع تبعاتها، وهي تعلن صراحة أن جميع الأزمات البيئية والمشاكل في الطبيعة سببها ظهور الرأسمالية والثورة الصناعية وتطور التكنولوجيا الصناعية والحربية، وبالتالي أدى كل ذلك إلى زيادة التنافس الاقتصادي بين الدول وزيادة حجم الاستهلاك العالمي، ما انعكس بصورة تلقائية على زيادة نشاط المصانع والإنتاج وكذلك زيادة النشاط الاستخراجي وبكميات هائلة دون حسيب أو رقيب، وكل هذا بطبيعته أوصل الكوكب إلى تلوث في الغلاف الجوي بسبب أدخنة المصانع الكبرى والمحركات والآليات وما تنفثه من غازات وإشعاعات، ولم يسلم من ذلك لا البرّ ولا البحر، فقد وصل الأمر إلى التلوث البرّي والبحري من خلال طرح النفايات والقاذورات فيه، وخاصة النفايات والمخلّفات البلاستيكية.

٤ـ المبادئ التي يعتمد عليها الإيكولوجيون

١. مبدأ الكفاح ضد التلوّث واستنزاف الموارد الطبيعية: وهذا أقلّ ما يمكن أن يستند عليه أصدقاء البيئة وحُماتها، وأن يتخذوه مبدأً ومطلباً يسعون إلى تحقيقه.

٢. مبدأ الموقف اللا طبقي: هم يرون تحت هذا المبدأ أن تنوع الأساليب الحياتية للناس ناجم عن استغلال بعض الفئات للفئات الأخرى، وهذا يعني أن هناك استغلالاً من البعض للبعض الآخر، وبالتالي هناك اغتناء طبقة على حساب افتقار طبقة أخرى، ولكن كلتا الطبقتين ستتأثران وستتضرران من الممارسات المسيئة والمضرّة بالبيئة، وباستنزاف الموارد الطبيعية، فالضرر لن

يصيب الفقراء دون الأغنياء ولا المستضعفين دون الأقوياء.

٣. مبدأ التعقيد: إن التكامل بين وحدات أو منظومات أو حتى بين فعاليات يومية في إطار العمل اليومي، وكذلك بين الكائنات الحية، وأساليب الحياة المختلفة والتفاعلات ضمن المحيط الحيوي بشكل عام، هذا التكامل بين جميع هذه الأمور يفصح عن كمّ ومستوى عالٍ من التعقيد، وهذا يلفت نظر الإيكولوجيين ويخيفهم، ولذلك فإن مبدأ التعقيد يدعم تقسيم العمل وتنظيمه، والجمع بين الأعمال الزراعية والأعمال الصناعية في إطار عملية تكاملية، وكذلك الجمع بين الأعمال الفكرية والأعمال اليدوية، والجمع بين النشاطات والفعاليات المدنية والريفية.

باختصار: هذه الفكرة تدعو إلى التقنيات اللينة.

٤. مبدأ التنوع والتعايش: يرى هذه المبدأ أن التنوع يعزز من إمكانية البقاء، وأنه يقدم فرصاً متعددة لنماذج الحياة المستجدة وثراء أشكالها، وهذا يستدعي التصاحب في العيش والوجود بدلاً من الاقتتال والبطش والاستغلال.

٥. المساواتية: إذ يكون الحق المتساوي في العيش من المسلّمات، وهذا يُنزل على القلوب نوعاً من الطمأنينة والمتعة والمسرّة من خلال الشراكة المتساوية مع أشكال الحياة الأخرى، وبالتالي لا يغدو الإنسان غريباً عن ذاته، بل تجده في حالة من التصالح مع ذاته، ما ينعكس على تعامله مع من حوله بشكل إيجابي وفاعل بما في ذلك عناصر الطبيعة والبيئة.

٥ـ القوة القانونية والأخلاقية التي يتمتع بها علم الإيكولوجيا

في ظلّ أهمية الفكرة وإدراك خطورتها، تسعى الدول الأوروبية وبشكل حثيث إلى معالجة مشكلة التلوث والانبعاثات الغازية التي تسبّبت ومازالت تتسبّب في مشكلة الاحتباس الحراري، وهي ـ الدول الأوروبية ـ تدرك حجم مسؤوليتها عن هذه الأزمة، ولذلك تحاول أن يكون العلاج على قدر الداء، وأن تأتي الحلول متوازنة مع حجم المسؤولية، وانطلاقاً من هذا الشعور بالمسؤولية: هذا الشعور الذي تمخّض في أساسه عن المخاوف التي يمكن أن تنجم عن المشكلة نفسها، جاء إعلان مجلس دول الاتحاد الأوروبي على الموافقة الرسمية على مشروع قانون معدّ لمكافحة تغيّر المناخ، حيث أعرب المجلس عن استعداده مع مؤسساته لاتخاذ التدابير اللازمة لتحقيق الهدف المنشود في الحدّ من التلوث، ومحاولة إعادة التوازن للبيئة، كما أنه وضع مجموعة من التدابير التي ينبغي الأخذ بها في هذا الإطار، منها تخفيض الانبعاثات الغازية الدفيئة إلى ٥٥ بالمئة بحلول عام ٢٠٣٠.

إن مصادقة دول الاتحاد الأوروبي على مشروع "قانون المناخ" يجعل من هدف الاتحاد المتمثل بالحياد المناخي لغاية عام ٢٠٥٠ "ملزماً قانونياً".

كما أنّ المنظمة العالمية للأرصاد الجوية وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، كلاهما مهتمّ من أجل إيجاد مصدر موضوعي وحقيقي وحيادي للمعلومات اللازمة، بهدف إصلاح التوازن البيئي على كوكب الأرض، حيث تعدّ الأمم المتحدة في طليعة الجهات التي تبذل الجهود الرامية التي تهدف إلى إنقاذ كوكبنا، ففي عام ١٩٩٢ ومن خلال قمة الأرض التي انعقدت حينذاك، أنتِجت اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغيّر المناخ كخطوة أولى على طريق التصدي لمشكلة التغيير هذه، واليوم تتمتع هذه الاتفاقية بعضوية شبه عالمية، ولقد صدّقت ١٩٧ دولة على الاتفاقية، وهي بالتالي وبشكل طبيعي طرف فيها، والهدف النهائي للاتفاقية هو منع التدخل البشري الخطير في النظام المناخي.

لقد أدرك الاختصاصيون حجم الكارثة التي تنتظر الأرض وسكانها، حيث أدى التدهور الإيكولوجي إلى خفض إنتاجية ما يقارب من ربع مساحة الأرض، وباتت المشكلة أقوى من أن تواجهها دولة بمفردها، بل أصبحت المشكلة المستعصية أصلاً تتفاقم أكثر فأكثر، ولذلك

”جاء إعلان مجلس دول الاتحاد الأوروبي على الموافقة الرسمية على مشروع قانون معد لمكافحة تغير المناخ، حيث أعربّ المجلس عنّ استعداده مع مؤسساته لاتخاذ التدابير اللازمة لتحقيق الهدف المنشود في الحدّ من التلوث، ومحاولة إعادة التّوازن للبيئة، كما أنه وضع مجموعة من التدابير التي ينبغي الأخذ بها في هذا الإطار، منها تخفيض الانبعاثات الغازية الدفيئة إلى ٥٥ بالمئة بحلول عام ٢٠٣٠.“

دخلت الأزمة إلى ميدان الدول والأمم المتحدة، وفي العام ١٩٩٥ بدأت البلدان بكل جدية المفاوضات من أجل تعزيز الاستجابة العالمية لتغير المناخ وإدراك الخطر القادم، وبعد عامين اعتُمد بروتوكول كيوتو، وقانونياً يلزم بروتوكول كيوتو جميع الأطراف من البلدان المتقدمة بأهداف خفض الانبعاث، ولقد بدأت فترة الالتزام الأولى للبروتوكول في عام ٢٠٠٨ وانتهت في عام ٢٠١٢، في حين بدأت فترة الالتزام الثانية ٢٠١٣، وانتهت في عام ٢٠٢٠. ويوجد الآن ١٩٧ دولة طرفاً في الاتفاقية وموقعة عليها، و١٩٢ دولة طرفاً في بروتوكول كيوتو.

يُضاف إلى الجهود الدولية السابقة اتفاقية باريس عام ٢٠١٥، ومؤتمر القمة المعني بالمناخ ٢٠١٩، وقمة المناخ في غلاسكو الإسكوتلندية ٢٠٢١عام، هذا وقد أعلنت الأمانة العامة لاتفاقية الأمم المتحدة بشأن المناخ اختيار مصر ممثلاً عن قارة إفريقيا لاستضافة مؤتمر المناخ القادم في نوفمبر ٢٠٢٢ في مدينة شرم الشيخ.

خاتمة

من الواضح أن مشكلةً من هذا النوع لا تستثني أحداً على سطح كوكبنا الأزرق، إذ لا يُقبل ولا يمكن أن ينأى أي أحد بنفسه عن رؤية ما ينتظر الأرض ومستقبل البشرية عليها، ومن السذاجة أن تلقي الدول المتقدمة هذ الحمل الثقيل على عاتق المجتمعات والشعوب الضعيفة والمستهلِكة.

إن المسؤولية القانونية والأخلاقية تتطلب اليوم أن تتساوى نسبة المسؤولية عن تحمّل تبِعات هذه الأزمة، بمعنى أن تتحمّل كل دولة حجماً من المسؤولية يتناسب مع حجم الأضرار التي لحقت بالبيئة بسبب ممارساتها وتصرفاتها وجشعها، ولا يُخفى على أحد أن الدول الصناعية ستتصدّر قائمة المسؤولية هذه، وأن الدول النامية لا تتعدى مسؤوليتها عن الكارثة قدْر استهلاكها وليس صناعتها.

وتبقى مسألة القوانين والبروتوكولات والمؤتمرات المنعقدة بهذا الخصوص؛ أن تكون جادّة وصارمة، وأن تكتسب قوة الإلزام، وألّا تتغاضى من باب المحاباة والمجاملة الدخول في لعبة الحسابات عما تتحمّله الدول الصناعية من حجم المسؤولية عما تعانيه بيئتنا على كوكبنا الأرض.

دراسة في نظرية المفكر موراي بوكتشين

عواس علي

حين بدأت أخوض أفكار الفيلسوف والمفكّر موراي بوكتشين تذكرت روايةَ الكاتبة غادة السمان «السباحة في بحيرة الشيطان» ففي الحقيقة الخوض في فلسفة هذا الرجل مرعبٌ بسبب الأفكار المتجدّدة والمتطورة التي قدّمها وفق ما يواكب تطوّرات العصرمن الرأسمالية إلى العولمة وعالم الشركات الكبرى التي باتت تتحكم في مصير العالم، وربما سيأتي اليوم الذي تعجز فيه الدول على السيطرة على تلك الشركات العملاقة في ظل ثورة التكنولوجيا العصرية.

لكن القوة كانت تستمد من مجموع الأفكار التي تجسّدت في مؤلفات المفكر عبد الله أوجلان، والتي تعتبر امتداداً وتطويراً لأفكار بوكتشين.

نستطيع أن نقول: إنّ بُوكتشين استطاع أن يستخلص من بين حقول الماركسية بذور نضرة قام ببذرها في حقل ضيق سرعان ما نبتت تلك البذور وأينعت، لكن مصدّات الرياح الماركسية منعتها من الانتشار على وجه المعمورة، وتُضاف إليها أن أفكاره كانت معادية للرأسمالية التي نصبت في وجه البذور التي زرعها مصدّات رياح قوية، فتقوقعت تلك البذور في ذات التربة التي زرع فيها بوكتشين بذوره.

كانت بداية أفكار بوكتشين مع النظرية الماركسية التي كانت تنظر إلى حتمية انهيار الرأسمالية على أيادي الطبقة العاملة التي تتكون في رحمها، فصرحت في مقولة: «الرأسمالية تحفر قبرها بيدها" لكن سرعان ما انشقّ عنها بعض روّادها مثل تروتسكي الذي راح يصيغ نظرية الماركسية، وفق ما هو يراها، فكان أول الخلافات مع ستالين الذي كان يرى فيه تروتسكي دكتاتوراً فظّاً، فطالب بإقالته، وثانيها كانت بنظرته إلى ضرورة استمرار الثورة على صعيد دوليّ، وعدم الاكتفاء بالثورة في روسيا، فلا يمكن أن تنتظر الثورة حتى ولود البرجوازية في بعض الدول فالبرجوازية العصرية ذات الأعداد القليلة يمكن أن تتحالف مع الفلاحين في الدول ذات النظام الاقطاعي وتقود الثورة، وكانت نهاية تروتسكي على يد ستالين وأنصاره بعد انتقاده الحاد للنظام السوفيتي واعتبره قمّة في الدكتاتورية والسلطوية والفساد الإداري.

في حقيقة الأمر كان فشل الماركسية من جانبين؛ من جانب كنظام سياسي ومن جانب كنظام اقتصادي، فمن الجانب السياسي كانت الماركسية عبارة عن استبدال سلطة دكتاتورية بسلطة دكتاتورية أخرى، فالدكتاتورية تبقى دكتاتورية مهما بدّلنا من اسمها، ويضاف إليها التفرد بالسلطة التي فرضته الماركسية من قبل الأحزاب الشيوعية التي لم تقبل غيرها في السلطة، ويضاف إليها الجانب الإنساني الذي مارسته الماركسية ضد معارضيها، فتولدت أبشع أنواع الاعتقالات والاغتيالات السياسية.

من الجانب الاقتصادي كان محور فشل الماركسية في القطاع العام الذي تحوّل إلى مركز للبيروقراطية والفساد الإداري، فقدان التصنيع في القطاع العام لروح المنافسة، ممّا أدى إلى تدنّي نوع المصنعات، ويضاف اليها الاهتمام بالجانب العسكري على مصلحة الجانب المدني للشعب خاصة في مرحلة الحرب الباردة.

إن فشل تدويل أو استمرار الثورات الماركسية في العالم كانت بدايته في بناء الولايات الأمريكية المتحدة اقتصاداً منيعاً في وجه تلك الثورات، واجتمعت في مشروع المرشال الأمريكي بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٧ وكان تقديم الأموال لاستنهاض أوربا التي خرجت منهكة من الحرب العالمية الثانية للوقوف في وجه الطوفان الشيوعي القادم من الاتحاد السوفيتي، فعلا استطاعت امريكا من استجرار الدول الاوربية إلى حلفها وتحويلها إلى سوق مفتوحة امام صناعتها المتعافية والتي كانت بعيدة عن اثار الحرب العالمية الثانية وتجسدت فكرة الليبرالية الاقتصادية، في فتح الأسواق العالمية أمام التجارة والشركات، فكانت بداية الحرب الباردة بين الرأسمالية والاشتراكية، وكانت النتيجة لصالح فوز الرأسمالية على الاشتراكية ونهاية الحرب الباردة بانهيار الاتحاد السوفيتي ١٩٩١، وتحوّل العالم من عالم ثنائي القطب إلى عالم أحادي القطب.

من هذه الطروف الدولية نشأت فلسفة موراي بوكتشين.

فمن هو بوكتشين؟

ولد موراي بوكتشين في نيويورك عام ١٩٢١ من أب يهودي مهاجر من روسيا إلى أميركا، وترعرع وتعلم

في أميركا وكان ميالاً إلى الأفكار العلمانية، فدأب على البحث في الفلسفة المثالية، ثمّ تحوّل إلى فلسفة فورباخ وهيغل اللتين بُنيت عليهما أسس الماركسية التي استند عليها ماركس، واستمد منها نظريته الماركسية، فانجرّ موراي بوكتشين إلى الماركسية كنظرية فلسفية ومن ثم كنظام سياسي، وسرعان ما ظهرت الانشقاقات بين منظري الفلسفة الماركسيّة، ومن هؤلاء المنظرين تروتسكي الذي أثنى عليه لينين أكثر من مرة في مؤلفاته وخطاباته، لكن سرعان ما انشقّ عن الاتحاد السوفيتي كأوّل نظام سياسي ترجمة للماركسية على الواقع العملي، بعد خلاف مع ستالين الذي ورث لينين في قيادة الحزب والدولة، وعلى إثرها حادَ موراي بوكتشين عن الماركسيية اللينينية إلى الماركسية التروتسكية، وانخرط في العمل في صفوفهم، وتحول إلى داعية لتلك النظرية التي كانت تنتقد الاتحاد السوفيتي كنظام سياسي، وتطالب بإعادة النظر في أفكار الماركسية اللينينية، وطالبت باستمرارية الثورة الماركسيّة على مستوى عالمي، لكنّ تلك النظرية سرعان ما أصيب اتباعها بالخيبة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، إذ كانت النظرية التروتسكية ترى بأنّ الثورة ستندلع في أوربا بعد الحرب العالمية الثانية بناء على فكرة الصراع الطبقي بين الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية التي خاضت الحرب، وأثبتت فشلها في النصر، سرعان ما تحول موراي بوكتشين عن تلك النظرية التروتسكية إلى نظرية جديدة قام ببنائها على أساس الجدلية الماركسية والصراع الطبقي، وتحول إلى نظريته التي ترى بأن الرأسمالية لن تنهار على أساس الصراع الطبقي مع الطبقة العاملة، بل نتيجة سوء استثمارها اللا أخلاقي للطبيعة، وتعاملها واستثمارها للطبيعة على اساس تحقيق الربح بدل السعي إلى الحفاظ على الطبيعة من أجل إسعاد الإنسان، فكانت نظريته التبيّؤ الاجتماعي التي يرى فيها بأن التلاعب وسوء الاستثمار الرأسمالي للطبيعة ينعكس بشكل مباشر على المجتمع، وربّما جاءت البداية مع ظهور فيروس كورونا، فالنظرة التي ينظر فيها موراي بوكتشين إلى الكون على أنّه وحدة متكاملة، ولا يمكن عزل مكوناته عن بعضها البعض من الطبيعة حتى الإنسان والكائنات الحية والهواء والتراب، فكل ما في الطبيعة يكمل بعضه البعض وفق تراتبية منتظمة، يقوم بها كلّ مكون على حدا، هذا ما يدعى بالتوازن البيئي، بين المادة والطاقة باعتبار الطاقة ليست إلّا حالة من حالات تحوّل المادة، ويرى موراي بوكتشين أنّ تدخّل الإنسان وتلاعبه بالطبيعة يجعلها تفقد توازنها، ممّا ينعكس بالدرجة الأولى على حياة الإنسان الذي بات يحفر قبره بيده، فالظلم المتولّد عن الإنسان للطبيعة ينعكس على الإنسان بحد ذاته، فظلم الطبيعة المتكاملة يعني ظلم مكوّن من مكوّناتها، وهو الإنسان، ما يعني أنّ ظلم الانسان بمكوّنه العام ينعكس من الطبيعة إلى الإنسان، ويرى بوكتشين أنّ هذا الظلم تمّت صياغته على شكل نظام فكريّ هرميّ متكامل يتمثّل في الرأسمالية التي باتت تنظم ظُلمها

> **”استطاع بوكتشين أن يستخلص من بين حُقول الماركسية بذور نضرة قام ببذرها في حقل ضيق سرعان ما نبتت تلك البذور وأينعت، لكن مصدات الرياح الماركسية منعتها من الانتشار على وجه المعمورة، وتضاف إليها أن أفكاره كانت معادية للرأسمالية التي نصبت في وجه البذور التي زرعها مصدّات رياح قوية، فتقوقعت تلك البذور في ذات التربة التي زرع فيها بوكتشين بذوره.“**

في استغلال الطبيعة والإنسان، ولن ينجو هذا العالم إلا بمحاربة مفاهيم الرأسمالية التي تقوم على أساس استغلال الطبيعة بأقصى حدٍّ ممكن، والإنسان بأكبر قدر ممكن لتحقيق أكبر قدر من الربح، وهذا ما يدعوه بوكتشين بالمجتمع اللا عقلاني، فحسب ما يراه بوكتشين أنّ جميع المشاكل التي تظهر في الطبيعة بما فيها الإنسان أساسها المجتمع الهرمي أي المجتمع المنظّم وفق عقلية الرأسمالية، فنتيجة الرأسمالية كدولة هي ذاتها رأسمالية المجتمع الذي يؤدي إلى مجتمع لا عقلاني.

مفهوم التبيُؤ الاجتماعي عند بوكتشين

إن بحثنا عبر الأزمنة الفلسفية فلا نجد فلسفة حاولت أو اقتربت من الربط بين الطبيعة والمجتمع، فجُل كتّابها كانوا مهتمّين برصد تطور الإنسان في حياته الاجتماعية ككائن يسعى إلى الحرية سواء من محاولته السيطرة على الطبيعة التي كانت تهدّد حياته وتدفعه إلى المخاطر، إلى سعيه الدؤوب للتخلص من ظلم أقرانه من البشر في مرحلة ظهور السلطة المطلقة، ولو تتبّعنا مراحل الفلسفة لوجدنا بأنّ ظهورها كان لخدمة الإنسان، لكن سرعان ما ظهر من طوعها لخدمة السلطة، فجان لوك بصياغته نظرية الليبرالية في القرن السابع عشر كان يسعى إلى حثّ الإنسان لينتزع حريته من براثن السلطات الفردية المطلقة التي راحت تستعبده، لكنّنا نجد سرعان ما انحرفت تلك النظرية، ووضعت في خدمة الدولة وأعوانها في إباحة القوانين التي تجعل من الفرد كائناً متوحّشاً همّه جني الربح، فتحوّلت الليبرالية في نهايتها إلى خدمة قضايا الرأسمالية، من حرية التجارة إلى حرية التصنيع إلى حرية الاستثمار، وربما بوكتشين هو الفيلسوف الوحيد الذي حاول أن يربط ما بين الطبيعة والحياة الاجتماعية، فحاول ان يبرهن على انعكاس البيئة الطبيعية على الحياة الاجتماعية، فاستثمار البيئة بطريقة غير أخلاقية هو بحد ذاته استثمار للإنسان بطريقة غير أخلاقية، فهناك تناسُب ما بين الحياة الاجتماعية والحياة البيئية، وكلاهما يتأثر بالآخر، فقطع الأشجار من الغابات عمل غير أخلاقي له انعكاساته على الحياة الاجتماعية على الإنسان، وكذلك حقن بعض المزروعات بمواد كيماوية له تاثيره على الحياة الاجتماعية، وتكديس رؤوس الأموال لدى فئة مجتمعية يخلق صراعاً بين تلك الفئة والفئة الفقيرة ممّا يجعل المجتمع منقسماً، وفي صراع دائم، وانعدام الاستقرار والأمن، فمفهوم التبيؤ الاجتماعي هو التأثير المتبادل بين البيئة والمجتمع.

أهم المفاصل التي تطرق لها بوكتشين في نظريته

١ ـ السلطة

وهي المفسدة الحقيقية للإنسان الذي يعتبر نواة المجتمع، وبالتالي حارب بوكتشين السلطة التي تقوم على القوة المتمثلة في القوانين التي تضعها الدولة للحفاظ على ذاتها وجلها في القواعد والأنظمة الإدارية، والتي تشكّل السلطة الهرمية، فلابد من إيجاد نظام خال من السلطة التي تقوم على القوة والبديل الذي طرحه بوكتشين هو النظام الأفقي للسلطة، والتي تعني سلطة الشعب الحقيقية، وليست السلطة المزيفة المتمثلة في ديمقراطية البرلمان الهرمية، فالسلطة الحقيقية تأتي من خلال تقسيم المجتمع الطبيعي من القرية إلى المدينة عبر التنظيم الكومونالي، أي تنظيم المجتمع في كومونات صغيرة تشكل أصل القرار، وهي من يقترح المطالب والحلول، ثم تنظيم مجتمع المدينة التي دعاها بوكتشين بالمقابر الجماعية التي بنتها الرأسمالية، والتي شجعت على تدمير الريف الذي كان يحتفظ ببقايا المجتمع الطبيعي، ويرى أنّ الرأسمالية لم تكتفِ باستغلال الطبيعة والإنسان فقط بكل تحوّلات التلاعب بالزراعة الطبيعية، فقد حولتها إلى مزارع هرمونية خالية من الطاقة المتجددة، عبر التلاعب بتركيبتها الطبيعية، وأضافت إليها

مواد غيّرت من طبيعتها، لذلك يجب محاربة السلطة القائمة على القوة عبر تشكيل الكوموناليّة في القرى والأرياف والمدن، والعمل على الحفاظ على البيئة عبر خلق مجتمع خلوق وعقلاني يحكم من الأدنى إلى الأعلى.

وربما أراد بوكتشين من مقولته عن المدينة "مقبرة جماعية شجعت عليها الرأسمالية» تقديم الدعم والمساندة للريف للخروج من بوتقة المقبرة الجماعية إلى الانفتاح والحياة الطبيعية التي تكمن في الريف، بدون تقديم الدعم للريف لن تتهدّم تلك المقابر، فلابد من تقديم الخدمات للريف والتشجيع على الحياة الطبيعية، والكل يعلم بأنّ الريف كتكوين اجتماعي جله من الفلاحين، فبدون تقديم الدعم للفلاح لن يزدهر الريف، ولن تتفتت المقابر الجماعية، والحقيقة أنّ الكومينات التي اقترحها بوكتشين كنواة لإدارة الدولة لا تجد لها تربة خصبة في المدينة بل تربتها الخصبة تكمن في الريف حيث استغلال الإنسان للإنسان في درجاته الدنيا.

٢ ـ محاربة الدولة القومية

يرى بوكتشين أن الدولة القومية ليست إلا حالة من حالات الرأسمالية التي تسعى إلى فرض سلطتها على القوميات الأخرى، وبالتالي نجد أن فرض سلطة قومية على قومية أخرى ليس إلا حالة من حالات المجتمع اللاعقلاني، الناتج عن مفهوم الرأسمالية، فالقوميات والاثنيات ليست إلا حالة من حالات تنوع الطبيعة في نباتاتها ومياهها وأشجارها، فالتنوع الاجتماعيّ بين المجتمعات الإنسانية من حيث اللغات والديانات والمعتقدات واللون ليس إلا حالة من حالات التنوع الطبيعي، ويجب الحفاظ على هذا التنوع الطبيعي الاجتماعي عبر بناء فيدراليات بين تلك المكونات، ويرى بوكتشين أنّ الفيدرالية هي حالة من حالات الكوموناليةفي مفهومها الضيق، وبالتالي تقوم تلك الفيدرالية على الحفاظ على خصوصية كل مكوّن، ممّا ينفي الصراع القومي والأثني بين المجتمعات، وربما سبق بوكتشين

"من خلال الرسائل التي تم تبادلها بين المناضل المعتقل لدى السلطات التركية المفكرعبد الله أوجلان وبوكتشين تم تطوير أفكار بوكتشين على يد المناضل والمفكر عبد الله أوجلان في مجملها، وكانت أول تجربة لتطبيق تلك الأفكار في شمال وشرق سورية عبر ترجمة أفكار المناضل والمفكر عبد الله أوجلان إلى وقائع عملية ضمن نهج متكامل، هو نهج فلسفة الأمة الديمقراطية."

العديد من المنظرين الذين رأوا أنّ الصراع الدولي أساسه الصراع القومي والأثني، وأسندوا الصراع التاريخي عبر الزمن إلى ظهور الدولة القومية والقوميات والأثنيات.

ربما أراد بوكتشين أن يقول: إنّ سبب الصراع الدولي يقوم على انعدام المساواة بين التنوّع البشري المدعوم من قبل الرأسمالية التي تشجع استغلال الإنسان للإنسان في تحقيق الربح واستغلال الطبيعة، فالحفاظ على خصوصيّة كلّ مكوّن طبيعي بشري من أصغر مكون إلى أكبر مكون هو الذي يدعم انتفاء الصراع العالمي بين الدول التي بنيت على أساس قومي.

٣ ـ المجتمع البدائي

يرفض بوكتشين مفهوم المجتمع البدائي أو المشاعي عبر مراحل تطور المجتمع حسب المفهوم الماركسي، والعديد من النظريات التاريخية، ويطلق بوكتشين على تلك المرحلة من مراحل

”يرفض بوكتشين مفهوم المجتمع البدائي أو المشاعي عبر مراحل تطور المجتمع حسب المفهوم الماركسي، والعديد من النظريات التاريخية، ويطلق بوكتشين على تلك المرحلة من مراحل تطور المجتمع بالمرحلة الطبيعية، كون المجتمع في تلك المرحلة كان عبارة عن مجتمع طبيعي في كل تصرفاته الاجتماعية، وإن كانت بداية انحرافه مع ظهور القبيلة والعشيرة والدين والقومية وانقسامه إلى فئات ثم طبقات“

تطوّر المجتمع بالمرحلة الطبيعية، كون المجتمع في تلك المرحلة كان عبارة عن مجتمع طبيعي في كل تصرفاته الاجتماعية، وإن كانت بداية انحرافه مع ظهور القبيلة والعشيرة والدين والقومية وانقسامه إلى فئات ثم طبقات، ويرى بوكتشين أنّ الخلاص هو العودة إلى الحياة الطبيعية التي كان الإنسان يعمل ويكدّ من أجل تأمين قوتِه والحفاظ على حياته، وعلى عكس ماهو عليه الآن يسعى إلى امتلاك القوة والسلطة التي يهدد بها حياة الآخرين، يجب العودة إلى الإنسان الذي همه تأمين الرفاهية بالقدر الذي يحتاجه، والابتعاد عن التصنيع المكدس للربح والمدمر لصحة الإنسان، فبالقدر الذي يتّجه به الإنسان إلى الحفاظ على الطبيعة، ستحافظ عليه الطبيعة وتمنحه كل ما يحتاجه، وكلما تلاعب بالطبيعة واستغلّها ستقوم هي الأخرى بمحاربته واستغلاله وتدميره.

بذلك يرى بوكتشين أن جلّ الأمراض التي تتطوّر وتظهر ناجّة عن تلاعب الإنسان بالطبيعة من حيث التجارب اللا أخلاقية التي يقوم بها الإنسان بغاية الحروب والقتل والاستغلال.

٤ ـ الايكولوجيا الاجتماعية

تعني دراسة علاقة الكائن الحي بالبيئة التي يعيش فيها، وعندما نقول الكائن الحي نعني جميع الكائنات التي تعيش في الكون من الضفدعة حتى الإنسان، وحين نتحدث عن الطبيعة فهي تشمل الهواء والماء والتراب والنار، فهذا العلم له جذوره المتجذرة مع ظهور بوادر الفلسفة في اليونان وكانت بدايته تتناول العلاقة المتبادلة بين البيئة والكائنات الحية من حيث درجة التأقلم مع البيئة التي وجدت فيها تلك الكائنات، وسرعان ما أعطى بوكتشين مفهوماً أوسع لذلك العلم، فأظهر فيه دور الكائنات الحية في التوازن البيئي، فلا يمكن أن ننفي دور أيّ كائن مهما صغُر في الطبيعة من الدودة التي تفتّت التربة إلى العصافير إلى الأفاعي فالإنسان، فقد نوّه بوكتشين «إلى أنّ الإنسان يقوم بالحفاظ على تلك الكائنات لتقوم بدورها الفعال في البيئة“ فالقضاء على أي نوع من تلك الأنواع سيؤدي إلى اختلال في البيئة الطبيعية، وربما أهمها على الإطلاق الأشجار التي يقوم الإنسان بقطعها وتعتبر رئة الطبيعة، وثانيها الهواء الملوث الذي تلوّثه معامل الرأسمالية بإنتاجها الطافح في سبيل تحقيق الربح، وتلويث البحار والأراضي بالنفايات النووية ومشتقات النفط السامة، وقد شجع بوكتشين على القيام بثورة ضد ذلك الاستغلال الجائر للطبيعة، عبر ثورات متكاتفة أسماها الثورات الكومينالية التحررية.

٥ ـ الطاقة البديلة

ربما لم تتوقف أفكار بوكتشين عند حدّ معين، فظهر من يتابع ويعمل على تجسيد أفكار بوكتشين، وكانت البداية مع جانيت بيل الفنانة الأمريكية التي عملت على نشر أفكار بوكتشين وتشكيل تجمعات تنادي بأفكاره، وتعمل على

محاربة الاستغلال اللا أخلاقي للطبيعة والبيئة، والالتزام بالاتفاقات الدولية التي تعمل على الحفاظ على البيئة، غير أنّه من المؤسف أننا رأينا الولايات المتحدة الأمريكية تنسحب من تلك الاتفاقات والمعاهدات الدولية في عهد الرئيس ترامب، فكلنا يعلم النظرة التي ينظر بها الرئيس ترامب للعالم من منظور شركة تدار، ويجب أن تحقق تلك الشركة الأرباح بكافة الوسائل والطرق المتاحة.

فالمقترح عبر مفهوم الطاقة البديلة هو الاستغناء عن الطاقة الناتجة عن الحرق والانفجار وتصاعد غاز الكربون بالطاقة البديلة المقترحة وهي طاقة الشمس والرياح والمياه، فكلّها طاقة طبيعية لا تنتج عنها أضرار بيئية.

٦ ـ الإدارة الذاتية في شمال وشرق سورية وأفكار بوكتشين

من خلال الرسائل التي تم تبادلها بين المناضل المعتقل لدى السلطات التركية المفكرعبد الله أوجلان وبوكتشين تم تطوير أفكار بوكتشين على يد المناضل والمفكر عبد الله أوجلان في مجملها، وكانت أول تجربة لتطبيق تلك الأفكار في شمال وشرق سورية عبر ترجمة أفكار المناضل والمفكر عبد الله أوجلان إلى وقائع عملية ضمن نهج متكامل، هو نهج فلسفة الأمّة الديمقراطية، فكانت البداية من دراسة مستفيضة للكوانتم الذي يعتبر أصغر مكوّن في الذرة من حيث حركتها وتنظيمها الذاتي ضمن مجال حركي في الزمان والمكان وتطبيق تلك الدراسة على المجتمع من حيث تكوينه من أبسط كائن حي إلى الإنسان والمجتمع والطبيعة، فلو ترك الإنسان الطبيعة دون تلاعب واستغلال لوجدها تنظم ذاتها بذاتها، وتوازن ذاتها، من بداية تركيب الذرة والخلية مروراً بالمجتمع الذي محتم تنظيمُه ذاته، وإعادة توازنه ذاته دون التدخّل القسري للإنسان، وتلاعبه في جعله مجتمعاً يتلاءم مع متطلبات الرأسمالية، فنجد من خلال تدخل الإنسان تم استنبات نباتات قسرية، وخلق إنسان بثقافة

"تحول بوكتشين إلى نظريته التي ترى بأن الرأسمالية لن تنهار على أساس الصراع الطبقي مع الطبقة العاملة، بل نتيجة سوء استثمارها اللا أخلاقي للطبيعة، وتعاملها واستثمارها للطبيعة على اساس تحقيق الربح بدل السعي إلى الحفاظ على الطبيعة من أجل إسعاد الإنسان، فكانت نظريته التبيؤ الاجتماعي التي يرى فيها بأن التلاعب وسوء الاستثمار الرأسمالي للطبيعة ينعكس بشكل مباشر على المجتمع"

وأخلاق بعيدة كلّ البعد عن الأخلاق البشرية، وتقرّبه الأخلاق من الوحشية، ثقافة القتل والتدمير والربح السريع والاستغلال وهناك آلاف المعامل التي تعمل على إنتاج ذلك الإنسان، جُلّها يتمركز في الإعلام والأفلام والدعايات.

هناك تجربة يتيمة ووحيدة تنمو وتترعرع في شمال وشرق سورية تعمل على تطبيق تلك الأفكار برمّتها ضمن نهج فلسفة الأمّة الديمقراطية، وهي تجربة وحيدة تعصف بها الرياح من جميع الجهات، وحتى من داخلها تجربة وحيدة "يتيمة تتربى في كنف زوجة الأب» هناك آمال معقودة على تلك التجربة في جميع أنحاء العالم لكنها آمال متخفية لا تجرؤ على مواجهة الرأسمالية التي راحت تطحن رحاها الأخضر واليابس.

مع ازدياد المخاوف والتحذيرات ... متى يسرع العالم لإنقاذ الحياة على الأرض؟

روشن مسلم

تمهيد

تترك التغييرات المناخية في الحياة على سطح الأرض بشقّيها النباتي والحيواني آثاراً خطيرة على صحة الإنسان والبنى التحتية القائمة، كما تؤثّر على المدى الطويل على شكل التضاريس الأرضية، فالبرد والدفء والمطر والجفاف والهواء، عوامل تحدد نمط حياة الإنسان بكل أشكالها، أكان فيما يتعلق بغذائه أو مسكنه أو تنقلاته أو حتى باختيار ملابسه؟ وهذا ما يذكرنا بنظرية «أثر الفراشة» التي هي التعبير المجازي الذي يصف الأحداث الصغيرة التي تعقبها سلسلة من الأحداث التي تزداد تدريجياً إلى أن ينتهي الأمر لحدث عظيم في أماكن قد لا يتوقعها أحد. وعلى ما يبدو فإن المجتمعات الحديثة لا تعير الأهمية المطلوبة للتغيرات المناخية، بل تسعى إلى تطوير بعض التقنيات التي تساعدها على التحرر من تأثيرات المناخ، ولكن مع كل حدث مناخي غريب، غالباً ما نندهش حين نلاحظ أن بيئتنا المباشرة تتأثر بشدة بتقلبات السماء في هذا الإطار، فنلاحظ ازدياد الشعور بالقلق في نفوس الناس أمام ما يجدونه من تقلبات مناخية حادة، في وقت يحذّر العلماء في كافة أنحاء العالم الرأيَ العام والمسؤولين السياسيين من خطر التغير المناخي العالمي، الناتج عن النشاطات البشرية المسؤولة عن التغيير الحاصل في تركيبة الغلاف الجوي، مما يؤدي إلى احتباس حراري سيترك آثاراً جمّة على مختلف عناصر المناخ، وعلى البشرية جمعاء.

أهمية البحث

إن مهمة المجتمع المدني هي العمل من أجل تحويل المجتمعات ونُظم إنتاجها واستهلاكها، فهي تشكّل سبباً من أسباب تغير المناخ، وذلك عن طريق إيجاد نماذج جديدة للتنمية وفقاً لطبيعة وظروف كل إقليم.

فكرة البحث

ترتبط الأسباب الهيكلية لتغير المناخ بنظام الهيمنة الرأسمالية الحالية التي ازدهرت في الغرب، وأفرزت صراعاً ومنافسة بكل درجاتها وأنواعها داخل حدود البلد الواحد أو خارجه، ونظراً لحاجة الدول الرأسمالية الدائمة إلى موادّ خام لا توجد إلا في أماكن أخرى معينة من العالم، كما يتطلب الأمر مثلاً أسواقاً واسعة لتوزيع بضائعها، وحاجة في نفس الوقت للأيدي العاملة، ومن هنا كان الاستعمار الذي فتح حدود الحروب والاضطرابات السياسية، الأمر الذي شكل مخاطر شديدة على على سبل العيش، والتنوع الأحيائي، وصحة الإنسان والنظم الإيكولوجية والبنية التحتية، فضلاً على نظم الأغذية.

خطة البحث

يحتوي هذا البحث على استعراض سريع لتعريف المناخ كعلم، وتطوره وخطورته، كما يركز البحث أيضاً على أثر التبدّل المناخي على مظاهر الحياة، وتباين الصلة بين الاقتصاد الأخضر وحقوق الطبيعة، ويبقى السؤال المهم في هذا السياق:
- هل ستتمكّن الرأسمالية من البقاء على قيد الحياة في ظلّ تغيير المناخ؟
وينبغي هنا أن أشير إلى أهمية التعاون الدولي في هذا المجال، حيث ينبغي أن تلعب الدول الغنية دوراً مهمّاً في هذا المجال، لا سيّما أن هذه الدول تمتلك الوفرة المالية والتقدم التقني الكبير.

أولاً- تعريف المناخ وتطوره كعلم

تعريف المناخ

عمَد علماء الأرصاد الجوية وعلماء المناخ إلى وضع تصنيفات مناخية استناداً إلى تطبيقات كعلم المناخ الزراعي، علم المناخ الحيوي، أو الأهداف المنتظرة، وذلك بهدف تعريف المناخ وإعطاء نسبية لمعايير (الهواء، الحرارة، الضغط) التي غالباً ما تكون مجردة، لاستنتاج حالة المناخ في مكان محدد من خلال عناصر عديدة.
توضح هذه التصنيفات التي تميز بين نحو عشرين نوعاً من المناخ على نحو غير نهائي التنوع الكبير، وغالباً ما تطغى الحالات المتوسطة على التنوعات المناخية الشديدة والحالات الشاذة والكوارث، لذلك فإن كلمة المناخ هي تعبير مجازي يتعلق عادة بالبيئة والطبيعة لمواقع جغرافية تصف فصول السنة والتحولات الجوية التي تميز ذلك الموقع عن غيره من المواقع الأخرى، وبالرغم من وجود بعض الاختلافات البسيطة في تعريف المناخ، إلّا أنّ الباحثين يُجمِعون على أنّ المناخ هو معدل حالة الجوّ لفترة زمنية طويلة.
اشتُقّ مصطلح climate المناخ من الكلمة اليونانية klima والتي تعني الميل، ويُعرّف المناخ بشكل شائع بأنه متوسط قراءات حالة الطقس على مدى فترات طويلة، فمتوسط الفترة القياسية هي ٣٠ عاماً، إلّا أنّه قد تستخدم فترات أخرى حسب الغرض. ويشمل المناخ أيضاً إحصاءات خلاف المعدل أو المتوسط، كحجم الاختلاف من يوم ليوم أو من سنة لسنة.

تطور علم المناخ

علم المناخ Climatology هو فرع من فروع العلوم يعتمد على الملاحظة والتتّبع، وهو العلم الذي يهتم بمشكلة للتكيف مع مناخ المنطقة، والبحث عن مسكن له، فهو من أولى محاولات البشرية للحصول على الأنماط المناخية،

واستعمالها على نحو يسمح بالحصول على الحقائق من خلال البحث المستمر، والأساليب المنهجية، وتقييم الظواهر، والملاحظة لما لها من تأثير مباشر على الحياة الطبيعية والحيوية على سطح الأرض، ولكون الإنسان البدائي كان عاجزاً عن فهم مفهوم الطقس والمناخ، فقد عمل على عبادتها اعتقاداً منه أن ذلك يجنّبه أضرارها، لذلك ظهرت العديد من الآلهة المناخية، فقد عبد الإغريق (بوريس Bores) إله الرياح وعبد المصريين (رع Ra) إله الشمس) واعتبر (جوبتر Jupiter وإله المطر عند الرومان)، واعتبر (ثور Thor إله الرعد) عند الإسكندنافيين، في حين قامت شعوب أخرى بتسجيل تكرار هذه الظواهر في محاولة أولية لفهمها ومن ثم التنبؤ بها.

استمرت الشعوب عامة في العصور القديمة بطرح تساؤلات كثيرة حول الظواهر الجوية التي تعكس أساساً ما تتعرض له عناصر الطقس والمناخ من تغيرات خاصة، وخلال فترة حضارة بلاد ما بين النهرين، والحضارتين المصرية والهندية، وصف الناس وحللوا حالات الغلاف الجوي بالاستناد إلى معتقداتهم لفهم علم المناخ، وبدأت نتائج الفكر الجغرافي تتبلور تحليلاً وتفسيراً بين الظواهر وصولاً حتى التوقعات.

وكان للصينيين دور بارز في هذا المجال، إذ تعدّ الشعوب الصينية من أقدم الشعوب التي اهتمت بملاحظة الجو وظواهره، نظراً لممارستهم الزراعة التي ترتبط بما يحدث من تغيرات جوية، أما الإغريق والرومان فقد كانوا يؤمنون إيماناً مطلقاً بالظواهر الجوية وتأثيرها، مما دفع بهم إلى التفكير بها والنظر لها بنظرة واقعية'.[1]

كانت هناك العديد من المحاولات قبل القرن الخامس عشر لإنشاء معدّات قياس لكافة المتغيرات في الغلاف الجوي، إلا إنه اكتشفت العديد من أجهزة القياس في منتصف القرن الخامس عشر، كمقياس المطر، ومقياس شدة الرياح، ومقياس الرطوبة. كما ظهر في القرن السابع عشر مقياس الضغط «البارومتر» ومقياس درجة

"إن المجتمعات الحديثة لا تعير الأهمّية المطلوبة للتغيرات المناخية، بل تسعى إلى تطوير بعض التقنيات التي تساعدها على التحرر من تأثيرات المناخ، ولكن مع كل حدث مناخي غريب، غالباً ما نندهش حين نلاحظ أن بيئتنا المباشرة تتأثر بشدة بتقلبات السماء في هذا الإطار، فنلاحظ ازدياد الشعور بالقلق في نفوس الناس أمام ما يجدونه من تقلبات مناخية حادة".

الحرارة أو المحرار لجاليليو- الترمومتر- في حين تطورت في القرن الثامن عشر مقاييس درجة الحرارة إلى فهرنهايت، ومئوية.

وفي القرن العشرين تم تطوير أدوات جديدة للاستشعار عن بعد، مثل الرادار والأقمار الصناعية للرصد الجوي، التي قامت بتوفير بيانات أفضل على الصعيدين الإقليمي والعالمي. أجهزة الاستشعار عن بعد تقوم بجمع البيانات من الظواهر الجوية والمناخية عن بعد لتنتج لاحقاً المعلومات الجوية، وكل أجهزة الاستشعار عن بعد تجمع بيانات عن الغلاف الجوي من مواقع يصعب الوصول إليها في العادة، ويتم تخزين البيانات في الأجهزة في ذات الموقع بعد الحصول عليها مباشرة وبشكل آلي.

ثانياً- أثر التبدل المناخي على مظاهر الحياة

يمكننا القول هنا إن الإنسان تأقلم مع الطبيعة التي عاش فيها ضمن فترات زمنية عديدة منذ أن وُجد على سطح الأرض، أي أن أنشطة الملاحظة والتتبع هي من أولى النشاطات التي

١- تطور مفهوم ودراسة علم المناخ - بوابة وادي فاطمة الالكترونية (wadifatima.net)

عرفها الإنسان، وكذلك نشاطات الرعي والزراعة والأعمال اليدوية التي لا تؤثر على المناخ، فقد تلاءم الإنسان مع المناخ منذ مئات السنين، إلا أن قيام الثورة الصناعية، وتقدمها خلال القرن التاسع عشر، واكتشاف البترول واستعمالاته الجائرة التي دفعت بالسياسيين إلى محاولات للحدّ من استخدامه، ولكي تقوم الثورة الصناعية استخدم الإنسان الوقود تعويضاً عن طاقته، والمعروف أنه شديد التلويث باحتراقه الذي يولد غاز ثاني أوكسيد الكربون، والذي يعمل على رفع درجة الحرارة، بالإضافة إلى الابتكارات التي دفعته للصناعات ذات النسبة العالية في تخريب المجتمع، من قبيل صناعة الأسلحة الذرية والنووية، والتي بلغت حالة باتت فيها مصدر خطرٍ اليوم.

يزيد تغير المناخ المسبَّب من النشاط البشري من تقويض الأساس البيئي والاجتماعي والاقتصادي للحياة على سطح الأرض، فالتغيرات في الدورة الهيدرولوجية أو دورة الماء، ستؤدي إلى انخفاض في إمدادات المياه العذبة والإنتاج الزراعي، وستتسبب فترات الجفاف الطويلة في خسائر في الأراضي الزراعية ومساحات الرعي وسبل المعيشة الريفية، هذه التأثيرات سيكون لها تداعيات كبيرة على المياه والأمن الغذائي والصحة وانتشار الأمراض.

من مشاكل الإنسان الأخرى والتي أثرت على الحياة البرية، ظهور الأمطار الحامضية، فالمناطق الصناعية وخاصة التي مازالت تستخدم نسبة من الفحم كوقود، تنفث إلى الجو أوكسيد الكبريت، الذي باختلاطه بماء المطر يتحول إلى مادة حامضية أكثر تركيزاً مما هو مطلوب، فتؤدي إلى قتل النباتات، والكثير من المناطق الصناعية تعاني الآن من هذه المشكلة.

كما أنّ التغييرات الأساسية في النظم الاقتصادية والسياسية للعالم والصراعات العنيفة بين بعض الدول التي تؤدي بشكل مباشر إلى التحركات السكانية والشلل المؤسسي والتدهور البيئي، والأمن والتحولات الديموغرافية والبيئية الأخرى وإلى تفاقم عواقب تغير المناخ، إلا أن هذه الآثار لن تكون موزعة بين أرجاء العالم فمن المعروف أن سكان البلدان النامية هي الأكثر ضرراً.

تعدّ منطقة آسيا والمحيط الهادئ من أكثر مناطق العالم ميلاً لحدوث الكوارث الطبيعية، وذلك من ناحية العدد الإجمالي للكوارث والأشخاص المتضررين على حد سواء، حيث تتعرض تلك المنطقة بدرجة كبيرة للتأثيرات المناخية وتعدّ موطناً لمجموعات سكانية معرّضة للمخاطر بدرجة كبيرة، كما تعدّ فقيرة ومهمشة بصورة غير متساوية. وقد أشار تقرير صدر عن بنك التنمية الآسيوي مؤخراً إلى المناطق الخطرة بيئياً والتي تمثل مخاطر خاصة لحدوث فيضانات وزوابع وأعاصير التايفون وزيادة ضغط المياه.

وبما أن المناخ يعدّ من أهم العوامل المؤثر بصورة مباشرة في تشكيل سطح الأرض ومظاهر الحياة عليها، فإن ارتفاع الحرارة وتغير الضغط الجوي أثّر على حياة الإنسان ونشاطه الحيوي، فذوبان الثلوج وارتفاع مستوى مياه البحر وهجرة الحيوانات والجفاف والأعاصير والعواصف وانقراض بعض أنواع الكائنات الحية، أدى إلى ظهور مفهوم الاحتباس الحراري الذي يحدث نتيجة تجمّع غاز ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي.

ثالثاً- الاقتصاد الأخضر والطبيعة ومستقبل النظام الرأسمالي

تعتمد حياتنا كبشر على أنظمة بيئية تحتوي على حوالي مليونَي نوع معروف، فحياة الإنسان قائمة تماماً على شبكة من المحاصيل والحيوانات التي هي مصدر الحياة للبشر، فالغابات هي التي تنظم إمدادات المياه وتوفر الوقود، والمحيطات تساعد على تنظيم المناخ والتنوع البيولوجي الذي هو مصدر للثراء الثقافي والروحي للسكان الأصليين، وسكان المدن أيضاً، وما تم اكتشافه من الحياة على سطح الأرض يقلّ عن عشر بالمئة قد يكون هناك أكثر من ٩٠ بالمئة من أنواع الكائنات غير معروفٍ على سطح الأرض، ولكن كل مظاهر هذه الحياة تتلاشى وبمعدل يزداد ويثير القلق وفقا

لمنظور التنوع البيولوجي، فمعدلات الانقراض في جميع أنحاء العالم هي الآن أعلى ١٠٠٠١٠٠ مرة مما كانت عليه في عصور ما قبل الإنسان، وهذا هو أكبر انقراض منذ اختفاء الديناصورات حيث بلغ ما يقارب ٤٢ بالمئة من الأنواع الحيوانية والنباتية البرية ذات الاتجاهات المعروفة، قد انخفضت أعدادها خلال العقد الماضي.

يجري تدمير الغابات الاستوائية بمعدلات سريعة، حيث يتم فقدان مساحة بحجم اليونان كل عام، وتعدّ هذه الغابات هي المواطن الأصلية لأعلى مستويات التنوع البيولوجي على هذا الكوكب، كما أن مساحة الغابات في العالم تغطي الآن ٦٨ بالمئة فقط من المساحة التي كانت مغطاة في حقبة ما قبل الصناعة، فإذا ارتفع متوسط درجة الحرارة في العالم بمقدار درجتين مئوية، فستختفي الشعاب المرجانية الاستوائية، مما سيدمّر سبل عيش نصف مليار شخص. بالإضافة إلى ذلك، فإن القمامة والتلوّث البحري يهددان التنوع البيولوجي للمحيطات بشكل خطير، بينما يتم إضافة ما بين ٤,٦ إلى ١٢,٧مليون طن منها كل عام، وبهذا المعدل، يمكن أن تحتوي المحيطات بحلول عام ٢٠٥٠ على بلاستيك أكثر من الأسماك من حيث الوزن..[٢]

وفي مواجهة هذه المعدلات المخيفة لفقدان التنوع البيولوجي، فالمجتمعات وخاصة منها الدول المتقدمة كالاتحاد الأوربي، تتسابق في وضع الخطط التنموية بهدف النهوض بالبنية الاقتصادية والاجتماعية، إلا أن النمو السريع وغير المتوازن غالباً ما يؤدي إلى مشكلات بيئية، تاركاً آثاراً سلبية على المجتمع نتيجة الزيادة المتنامية لاستنزاف الموارد الطبيعية، وأنواع التلوث في توسّع نتيجة الاستمرار في إقامة المشاريع التنموية، وتأثير ذلك على الصحة وتلاشي النظم البيئية لمعدلات غير مستدامة، من أجل تعزيز مثل هذه الاعتداءات على الطبيعة، لذا يصف الرأسماليون جشع اقتصادهم بأنه اقتصاد أخضر..

بلا شك إنّ الإنسان عنصر واحد من المحيط الحيوي

> **"هناك العديد من المحاولات قبل القرن الخامس عشر لإنشاء معدّات قياس لكافة المتغيرات في الغلاف الجوي، إلا أنه اكتشفت العديد من أجهزة القياس في منتصف القرن الخامس عشر، كمقياس المطر، ومقياس شدة الرياح، ومقياس الرطوبة. كما ظهر في القرن السابع عشر مقياس الضغط "البارومتر" ومقياس درجة الحرارة أو المحرار لجاليليو- الترمومتر- في حين تطورت المقاييس إلى فهرنهايت، ومئوية.**
>
> "

من نظام الأرض الذي يتضمن الغلاف الجوي، الغلاف الحيوي، والغلاف الصخري، والغلاف المائي. فعند الحديث عن توازن نظام الأرض فهذا يعني الحديث عن الحقوق لجميع أجزاء نظام الأرض، فمن أجل ضمان حقوق الإنسان واستعادة الانسجام مع الطبيعة فإنه من الضروري الاعتراف على نحو فعال بحقوق الطبيعة وتطبيقها.

لقد بات من الواضح وبشكل متزايد أن النموذج المهيمن للنمو الاقتصادي هو واحد من أهم معوقات الجهد العالمي الجاد في التعامل مع تغير المناخ، ولكن هذا النموذج المزعزع للاستقرار والذي بدأ يصبح واضحاً بشكل متزايد هو نمط إنتاج في تحويل الطبيعة الحية إلى سلع ميتة، بالإضافة إلى توليد نفايات هائلة، والدافع هو الربح أو الرأسمالية.

خامساً- التعاون الدولي وأهميته ودور الدول الغنية

٢- راجع مجموعة أدوات لحشد الدعم من أجل الطبيعة/ ص. ٤

بعيداً عن مشكلة الحصول على الأموال بالاستغلال والتحايل، فإنّ أسواق التعاون الدولي مختلفة نوعاً ما عن الأسواق الأخرى على أنها لم توجد لمصلحته، أي أنّها لا تنتهي عند حدودها، ولكنها توجد بوصفها وسيلة لتحقيق مسؤولية أخلاقية وهدف اجتماعي معين. إنّ الآثار السلبية التي تواجهها الدول بسبب التغيرات المناخية تؤثر على حياة المواطنين بشكل مباشر في نشاطاتهم اليومية، لا سيّما الدول الفقيرة والعاملون في مجال الزراعة، وهنا ينبغي على الدول الغنية أن تعزز جهودها الدولية من أجل العمل المشترك لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية للدول الفقيرة، لتعزيز تأقلمها مع التغيرات المناخية، ودعم كافة الاستراتيجيات الجديدة للتنمية المستدامة.

إنّ تغير المناخ وفقدان التنوع البيولوجي مترابطان ومعتمدان كل منهما على الآخر، فلا يمكن للمجتمع الدولي معالجة أزمات المناخ ما لم يعالج فقدان التنوع البيولوجي في نفس الوقت، كما يمكن أن يساهم الحفاظ على التنوع البيولوجي والنظم البيئية واستعادتها بشكل حيوي في معالجة تغير المناخ.

تساعد دراسات الهيئة الحكومية الدولية بتغير المناخ من قبل المنظمة العالمية للأرصاد الجوية وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، لإتاحة مصدر موضوعي للمعلومات العلمية في إصلاح التوازن، حيث تعدّ أسرة الأمم المتحدة في طليعة الجهود الرامية التي تهدف إلى إنقاذ كوكبنا، ففي عام ١٩٩٢ ومن خلال قمة الأرض، أنتجت اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغيير المناخ كخطوة أولى في التصدي لمشكلة تغيير المناخ، واليوم تتمتع هذه الاتفاقية بعضوية شبه عالمية، ولقد صدّقت ١٩٧ دولة على الاتفاقية وهي طرف فيها. إن الهدف النهائي للاتفاقية هو منع التدخل البشري الخطير في النظام المناخي.

لقد أدى التدهور الإيكولوجي حقيقة إلى خفض إنتاجية ما يقرب من ربع مساحة الأرض، وباتت المشكلة أقوى من أن تواجهها دولة واحدة، وبحلول عام ١٩٩٥، بدأت البلدان مفاوضات من أجل تعزيز الاستجابة العالمية لتغير المناخ، وبعد عامين اعتُمد بروتوكول كيوتو، وقانونياً يلزم بروتوكول كيوتو الأطراف من البلدان المتقدمة بأهداف خفض الانبعاث، وبدأت فترة الالتزام الأولى للبروتوكول في عام ٢٠٠٨ وانتهت في عام ٢٠١٢. وبدأت فترة الالتزام في ١ يناير ٢٠١٣ على أن تنتهي في عام ٢٠٢٠. ويوجد الآن ١٩٧ طرفاً في الاتفاقية و١٩٢ طرفاً في بروتوكول كيوتو.

بالإضافة إلى اتفاقية باريس عام ٢٠١٥، ومؤتمر القمة المعني بالمناخ ٢٠١٩، وقمة المناخ في غلاسكو الإسكتلندية ٢٠٢١، ومن المقرر استضافة مصر لمؤتمر المناخ في نوفمبر ٢٠٢٢ في مدينة شرم الشيخ.

إنّ الحديث عن مستقبل الأرض، وإنقاذ الحياة عليها يتطلب إيجاد رؤى جديدة للتعاون الدولي في هذا المجال، ولا يجب أن ننتظر ما يقوله البعض، إن إنقاذ الأرض مرهون بإزالة النظم الرأسمالية، فلا ينبغي أن ننتظر سقوط هذه النظم اليوم أو غداً، فالأمر يحتاج لمواجهة سريعة، وإجبار هذه النظم على تغيير نمط استخداماتها الصناعية، وأيضاً أساليب التعامل مع الطاقة والبحار، وهذا لن يحدث إلا بضغط عالمي يؤدي إلى اعتراف الدول الصناعية الكبرى بمسؤوليتها عن تلوث البيئة وتغيرات المناخ، بسبب إهدار المناطق الطبيعية، والحروب، والهجرات، و الغازات السامة، و المواد الكيماوية، و تهديد الحياة، و لعل تحديد الخطوات في هذا الاتجاه هو تولي الدول الصناعية الكبرى كنوع من الاعتراف بمسؤوليتها ودعم الدول الفقيرة، وإتاحة التكنولوجية لها الفقيرة بلا مقابل..

إن الأمر في النهاية خطير جداً، لأن مصير العالم وبقاءه مرتبطان بتعاون دولي وتفهّم الدول الكبرى لدورها الكبير.

التغييرات المناخيّة
من جلاسكو إلى شرم الشيخ

أحمد العناني

تعول الدول النامية أفريقيا على مصر في مؤتمر الأطراف الدولية للمناخ، والذي سيعقد في مدينة السلام مدينة شرم الشيخ بحضور زعماء وحكومات الدول الكبرى والدول الأفريقية، ومن مختلف دول العالم مؤتمر الأطراف المناخية هذا العام، ربّما يكون مختلف بعدما فشلت الدول النامية في إقناع الدول الصناعية الكبري فى جلاسكو أن تدفع فاتورة الانبعاثات الضارة الكربونية التي تؤثّر على الدول الفقيرة خاصة الأفريقية التي تدفع فاتورة الصناعات الكبرى من دول صناعية، كالصين على سبيل المثال التي تعتبر الأكثر استخداماً للفحم الكربوني تليها الولايات المتحدة، ومن ثم تأمل مصر أن يكون مؤتمر التغيرات المناخية ملزماً إلى حد كبير للحد من التغيرات المناخية من خلال وضع آلية دولية خلال هذا المؤتمر الدولي الهام.

يعتبر مؤتمر Cop ٢٧ أفريقيا بامتياز حيث تعوّل الدول الأفريقية أن يحقق المؤتمر مبتغاه وأهدافه مثل تمويل المناخ والتكيف والخسارة والإضرار لمواكبة التقدم الذي يأمل العالم أن يحقق جهود التخفيف والوصول إلى الحياد الكربوني، علاوة على تعزيز الجهود للوصول إلى بيئة خضراء تؤدي إلى تنمية مستدامة تحقق النمو الاقتصادي المستدام.

بكل تأكيد ستوفّر مصر كافة إمكانياتها لإنجاح هذا المؤتمر وستكون رأس حربة إفريقيّة في مواجهة التغييرات المناخية حتى تصل بالقارة الأفريقية لمرحلة التكيّفات، والحد من الأضرار البيئة والعوامل التي تهدّد النمو الاقتصادي للدول، لأنّ التأثيرات المناخية تضرّ بالسياحة ومنها السياحة الشاطئية والساحلية، وتأثيرها بظاهرة تأمل الشواطئ والمد والجذر وظاهرة التصحر والاحتباس الحراريّ.

في الأسبوع المقبل، سيجتمع عشرات الآلاف من قادة العالم والمفاوضين والعلماء ورجال الأعمال والنشطاء والمراقبين من جميع أنحاء العالم في غلاسكو بإسكتلندا لحضور مؤتمر الأمم المتحدة السادس والعشرين لتغير المناخ، والذي سيستمر في الفترة من ٣١ أكتوبر/تشرين الأول إلى ١٢ نوفمبر/تشرين الثاني. المؤتمر المعروف أيضًا باسم مؤتمر الأطراف (COP)، تجتمع فيه هذه الهيئة المتميزة سنويًا لاتخاذ قرارات بشأن تنفيذ اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغير المناخ (UNFCCC)، والتي تهدف إلى "منع تدخل الأنشطة البشرية في النظام المناخي".

على الرغم من أنّ العديد من الاتفاقيات الدولية البارزة قد نتجت عن الاجتماعات السنوية لمؤتمر الأطراف (COP)، فإنّ أهمّ إنجاز لاتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تغيير المناخ كان اتفاق باريس لعام ٢٠١٥، فقد تمّ توقيع هذه المعاهدة الملزمة قانونًا بشأن المناخ في مؤتمر COP٢١ في باريس، وهو إنجاز تاريخي في الدبلوماسية متعددة الأطراف.

الهدف المعلن من هذه الاتفاقية هو "تعزيز تنفيذ المؤتمر" من خلال الإبقاء على الزيادة في متوسط درجة الحرارة العالمية "أقل بكثير من درجتين مئويتين فوق مستوى ما قبل العصر الصناعي" ومواصلة الجهود للحد من هذه الزيادة إلى ١,٥ درجة مئوية.

يأمل الاتفاق في تحقيق هذا الهدف من خلال وضع نهج "من أسفل إلى أعلى" للسماح لكلّ دولة بتحديد أهداف الانبعاثات الخاصة بها (تسمى المساهمات المحددة وطنيًا، أو NDCs)، بالإضافة إلى اشتراطات "من أعلى إلى أسفل" لتعزيز هذه الإجراءات بمرور الوقت والمشاركة في عمليات صياغة التقارير والمراجعة اللازمة.

نهاية مصر تتأهّب لإنجاح هذا الحدث العالمي الذي إن حقق مبتغاة سيكون للدول الأفريقية النامية شأن آخر فمصر من خلال رئيسها ورئيس حكومتها ومن خلال تكليفات السيد الرئيس عبد الفتاح السيسي رئيس الجمهورية الذي أعطى تعليمات للحكومة برفع كفاءة وتنفيذ أعمال الموقع العام، وتنسيق المنشآت الحكومية والخدمية القائمة داخل مدينة شرم الشيخ، وفي ضوء ذلك تعمل الحكومة على تطوير مختلف المنشآت القائمة بالمدينة، والتي من بينها تطوير الحديقة المركزية المجاورة

في النهاية من جلاسكو ومشاركة مصر فيها واختيار مصر كمنظم ورائد لأفريقيا في التغييرات المناخية إلى شرم الشيخ الذي تأمل مصر فيه أن تحقق أهدافها نيابة عن القارة الأفريقية في إنشاء صندوق تمويل للدول النامية، تستطيع ومن خلال مجابهة هذه الظاهرة التي تؤثّر على النمو والاقتصاد للدول النامية.

العقد الاجتماعي السوري: دستور سوريا التوافقي ومبادئه الأساسية

اعداد: سيهانوك ديبو

لمحة عامة عن تاريخ سوريا ودساتيرها

انتهت الحرب العالمية الأولى رسمياً في 11 نوفمبر تشرين الثاني 1918. لتنهي الحكم العثماني في عموم المنطقة كما سوريا، وتبدأ مرحلة جديدة من الاستعمار. عهدت بريطانيا للواء علي رضا باشا الركابي من قادة الجيش التركي حتى العام 1914 ومن أبناء دمشق بأن يكون حاكماً عسكرياً للمدن الداخلية دمشق وحلب. فكان أول رئيس للوزراء وبقيت وزارته في الحكم حتى أول آذار مارس 1920 ليتم تسليمها إلى الأمير فيصل بن الحسين، بين أيلول 1918 وحتى تموز 1920، حيث أعلن الأمير نفسه ملكاً على سوريا، وأسس من خلال المؤتمر السوري العام الذي وضع دستوراً فيدرالياً للمملكة السورية.

لكن وبموجب الاتفاقات التي وقعها الحلفاء تم الغاء المملكة السورية التي لم تحظَ بكسب الاعتراف. وتم وضع مخططات وخرائط جديدة تتقاسمها فرنسا وبريطانيا، فوضعت سوريا تحت حكم الانتداب الفرنسي الذي قرر وقتها تشكيل عدة دول تحت دواعي الخصوصيات القومية والدينية والمناطقية. دولة لبنان ودولة الدروز ودولة العلويين ودولة دمشق ودولة حلب ومنطقة اسكندرون ذات الحكم الذاتي. علما بأن تعداد سكان سوريا في ذلك الوقت كان بحدود ١,٢٠٠,٠٠٠ نسمة. وكان ذلك في نهاية ١٩٢٠.

ولضمّ حوض الفرات والجزيرة/ شرقي الفرات – كمنطقة خارج الخريطة الجديدة وقتها – إلى منطقة الانتداب المتفق عليها مع البريطانيين، شكل الجنرال غورو قوة من الكرد (الاتفاقية موقعة في ٣١ من شهر كانون الأوّل عام ١٩٢٠) من تبقى من الألوية الحميدية التي كانت تحت إمرة المليين وفخذ من عشيرة العنزة (بزعامة شيخها مجحم) وسرية من السريان، واستطاعت هذه القوة المشتركة ضمّ حوض الفرات الى منطقة الانتداب التابعة لدولة حلب. وفي الوقت نفسه دخلت فرنسا في مفاوضات مع تركيا، وتنازلت لها عن بعض المناطق (كليس وعنتاب وأورفا) لقاء التوصل الى اتفاقية وقف إطلاق النار في ١١ أذار عام ١٩٢١. توصل الطرفان الى اتفاقية رسم الحدود في ٢٠ اكتوبر ١٩٢١، وهذه كانت الاتفاقية الأولى للحدود، بين سوريا الفرنسية وتركيا. بعد مغادرة غورو واستلام مكسيم فيغان المفوضية السامية، تم في عام ١٩٢٢ تشكيل فيدرالية الدول السورية من دول حلب ودمشق وجبال العلويين، بخلاف كبير بخصوص تحديد العاصمة الاتحادية، وأخيراً تم الاتفاق أن يكون بالتناوب بين حلب ودمشق. وفي ٥ ديسمبر ١٩٢٤ تم إلغاء الاتحاد السوري وإنشاء (الدولة السورية) من دولتي حلب ودمشق، اعتباراً من اليوم الأول من عام ١٩٢٥. وبذلك تحولت عائدية إقليم دولة حلب سابقاً إلى الدولة السورية، بينما بقت دولة العلويين ودولة الدروز وسنجق إسكندرون خارج إقليم هذه الدولة.

كان الكرد يطالبون منذ ١٩٢٤ بإنشاء دولة كردية على غرار ما تشكل في المناطق السورية الأخرى. لكن تركيا كانت تضغط على الفرنسيين لمنعهم من إعطاء أيّة حقوق قومية لهم، مثيرة مشاكل بغية التعديل المستمر للحدود. ويذكر هنا بأنّ تركيا لم تتقيد بوقف إطلاق النار رغم توقيعها اتفاقية الصداقة وحسن الجوار التي وقعت في ٢٢ حزيران ١٩٢٦. كما يذكر بأنّ منطقة منقار البطة كما كانت تطلق عليها في الوثائق الفرنسية (كامل شرقي الفرات حتى ديريك) تدار من قبل المكونات الكردية السريانية والعربية حتى اتفاقية الحدود الموقعة في ١٩٢٩.

واستمرت عمليات تحديد الحدود السورية التركية حتى ١٩٣٣. وفي عام ١٩٣٧ تم التحالف بين الكرد والسريان، وبعض الزعامات العربية، وتمّت المطالبة بحكم ذاتيٍّ ومن ثم بدولة أسوة ببقية المناطق الخاضعة للانتداب. وعندما مانعت السلطات المركزية، قابل ذلك عصياناً أدى إلى إخماده عن طريق استخدام الطيران الحربي الفرنسي على عامودا عام ١٩٣٧.

توالت الاحداث المناهضة للانتداب الفرنسي. وأثناء الحرب العالمية الثانية كانت سوريا ضمن منطقة نفوذ الحلفاء. في ١٩٤٣ تم تنظيم انتخابات أسفرت عن تولي شكري القوتلي رئيساً. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية اندلعت انتفاضة الاستقلال التي أفضت إلى نيل سوريا استقلالها الكامل في ١٩٤٦ هذه الانتفاضة التي تضافرت فيها جهود كافة المكونات السورية. لتدخل سوريا من بعدها في سلسلة من الانقلابات بدأت من ١٩٤٩ إلى ١٩٧٠.

دساتير سوريا

*في ١٩ يونيو ١٩١٩ عقد المؤتمر السوري العام أول جلسة له وانتخب محمد فوزي باشا العظم رئيساً له وبعد اعتكافه أصبح هاشم الأتاسي رئيساً للمؤتمر، وفي ٨ مارس ١٩٢٠ أعلن المؤتمر

دون التنسيق مع الحلفاء "استقلال سوريا" وقيام المملكة السورية العربية وعيّن فيصل الأول ملكاً عليها. غير أنّ هذا الكيان لم يحظ بأي اعتراف دولي، رغم ذلك فقد شكل المؤتمر لجنة خاصة برئاسة هاشم الأتاسي مهمتها صياغة دستور المملكة. وجاء الدستور باثني عشر فصلاً و١٤٧ مادة. ومن أهم ما جاء فيه أن سوريا "ملكية مدنية نيابيّة، عاصمتها دمشق ودين ملكها الإسلام". كما نصّ الدستور أيضاً على أن البلاد تدار على القاعدة اللامركزيّة وأن لكل مقاطعة مجلسها النيابي وحكومتها الخاصة وحاكمها المعيّن من قبل الملك ولا يتدخل أحد بإداراتها وشؤونها الداخليّة إلا في الأمور العامة التي هي من اختصاص الحكومة المركزية.

* أعلن في ٢٨ يوليو ١٩٢٢ "القانون الأساسي للاتحاد السوري" بمثابة الدستور الاتحادي لمقاطعات/ دول دمشق وحلب والعلويين كما نصّ القانون على استحداث "المجلس الاتحادي" ليكون السلطة التشريعية العليا في البلاد. وهو مكون وفق القانون من ١٥ عضواً، خمس عن كل مقاطعة من المقاطعات الثلاث وله صلاحية انتخاب رئيس الاتحاد ولمدة عام واحد ولا يجوز لرئيس الاتحاد اتخاذ أي قرار دون مصادقة المجلس، وإليه ترفع اقتراحات الحكومات المحلية الفيدرالية الثلاث ليتم تدقيقها وإقرارها، كما أنّ للمجلس الاتحادي الحق في وضع بعض القوانين كالعقوبات والأحوال الشخصيّة واعتماد الموازنة العامة للدولة.

* في ١٤ فبراير ١٩٢٨ كلّفَ الشيخ تاج الدين الحسني رئاسة الدولة داعياً لانتخابات جمعية تأسيسيّة جرت لاحقاً في أبريل ١٩٢٨ وعقدت الجمعية التأسيسيّة أول اجتماع لها في ٩ مايو ١٩٢٨ في دار الحكومة، وانتخبت هاشم الأتاسي رئيساً لها بالإجماع وفوزي الغزي وفتح الله آسيون نائبين للرئيس، خاضت الانتخابات قائمتان أساسيتان هما قائمة الوطنيين الأحرار وقائمة المعتدلين الموالين للانتداب، وتكوّنت من ٦٨ عضواً منتخباً يمثلون دولتي دمشق وحلب

"طالب الكرد منذ ١٩٢٤ بإنشاء دولة كردية على غرار ما تشكل في المناطق السورية الأخرى. لكن تركيا كانت تضغط على الفرنسيين لمنعهم من إعطاء أية حقوق قومية لهم، ولم تتقيد تركيا بوقف إطلاق النار رغم توقيعها اتفاقية الصداقة وحسن الجوار في ١٩٢٦. وكان (كامل شرقي الفرات حتى ديريك) يدار من قبل المكونات الكردية السريانية والعربية حتى اتفاقية الحدود الموقعة في ١٩٢٩."

دون دولتي الدروز والعلويين، وانتخبت الجمعية لجنة وضع الدستور في ٩ يونيو برئاسة إبراهيم هنانو وعقدت اللجنة خمسة عشر جلسة أتمّ خلالها وضع الدستور في ١١ أغسطس حين تمّ التصويت عليه وإقراره في الجمعيّة. أكد ذلك الدستور الفصل بين السلطات، واعتبر بأن سوريا "جمهورية نيابية عاصمتها دمشق ودين رئيسها الإسلام"، وأن "البلاد السوريّة المنفصلة عن الدولة العثمانية هي وحدة سياسيّة لا تتجزأ.

* في عام ١٩٣٩ استقال الأتاسي وعطّل العمل بالدستور نتيجة الحرب العالمية الثانية حتى ١٩٤١ حين أعيد العمل بالدستور غير أنّه لم تجر انتخابات، وعيّن تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية، وقد جرت الانتخابات عام ١٩٤٣ وأفضت إلى فوز الكتلة الوطنية، ووصول شكري القوتلي إلى الرئاسة، وفي عام ١٩٤٧ عدّل الدستور، وعدل مرّة ثانية عام ١٩٤٨ للسماح بانتخاب القوتلي لولاية ثانية مباشرة بعد ولايته الأولى، وفي ٣٠ مارس ١٩٤٩ انقلب

حسني الزعيم على شكري القوتلي وعلّق العمل بالدستور، وسرعان ما انقلب عليه سامي الحناوي في أغسطس ١٩٤٩ ونظمت انتخابات جمعية تأسيسيّة لوضع دستور جديد للبلاد.

ـ دستور ١٩٥٠

تم تشكيل لجنة صياغة الدستور المعروف بدستور ١٩٥٠ في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٩ وأنهت عملها في ١٥ أبريل ١٩٥٠ وأقرت رسمياً في ٥ سبتمبر من العام نفسه، وبدأت الجمعية مناقشة المسودة في الدورة الصيفية في ٢٢ يوليو. كانت المسودة تتألف من ١٧٧ مادة، خلال المناقشات طويت ١١ مادة (لم يتسّنَ لنا حتى اللحظة معرفتها علماً هناك تأكيدات بأنها متعلقة باللامركزية والحكومات المحلية) وخرج الدستور بصيغته النهائية مؤلفاً من ١٦٦ مادة. ناصاً على دين رئيس الدولة بالإسلام وباللغة العربية الرسمية للبلاد أي أنها أخلت من خلال ذلك ومقاربات أخرى بمبدأ المواطنة والسعي لتكريس مركزية ثقافوية ولغوية. بالرغم من أنه جاء محافظاً بشكل ظاهري على طبيعة الحكم البرلمانية وتحديد صلاحيات رئيس الجمهورية وسحب حق نقض القوانين والمراسيم منه بإمهاله عشرة أيام فقط للتوقيع عليها. غير أنه حافظ على اختصاصه بالتصديق على المعاهدات الدولية وتعيين البعثات الدبلوماسية في الخارج وقبول البعثات الأجنبية ومنح العفو الخاص وتمثيل الدولة ودعوة مجلس الوزراء للانعقاد برئاسته وتوجيه الخطابات للسوريين.

كما أن الدستور زاد حينها من صلاحيات البرلمان من خلال تمكينه من منع التنازل عن صلاحياته التشريعية للحكومة ولو مؤقتاً كما أوجب على الحكومة الاستقالة في بداية كل فصل تشريعي، كما عزز من سلطة القضاء باستحداث المحكمة الدستورية العليا. أما مواد الحقوق العامة في دستور ١٩٥٠ فقد تم توسيعها وصونها حتى بلغت ٢٨ مادة تختصّ وحدها بالحقوق والحريات. تم تعطيل الدستور في وقت أديب الشيشكلي أولاً والمرة الثانية ما بين ١٩٥٨ و١٩٦١ خلال الفترة التي كانت فيها سوريا جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة، إذ استبدل بدستور مؤقت وضعه رئيس الجمهورية المتحدة جمال عبد الناصر، وبعد الانفصال عن الجمهورية أعيد العمل بالدستور المذكور بعد إجراء تعديلات ملفتة للنظر، طالت تغيير الاسم الرسمي للجمهورية من الجمهورية السورية إلى الجمهورية العربية السورية، بعد اخضاعه لاستفتاء شكلي واعتماده حتى ١٩٦٣ حين انقلب حزب البعث على النظام الدستوري القائم.

* كانت أولى قرارات (مجلس قيادة الثورة) برئاسة لؤي الأتاسي تعطيل العمل بالدستور واعتقال رئيس الجمهورية ناظم القدسي ورئيس الوزراء خالد العظم وفرض حالة الطوارئ التي استمرت ٤٨ عاماً ليتم (رفعها رسمياً) في أبريل ٢٠١١. أصدر المجلس عام ١٩٦٤ دستوراً مؤقتاً للبلاد، ثم عاد وأصدر دستوراً آخر في ١ مايو ١٩٦٩، وأما آخر دستور مؤقت أصدره بعد وصول الرئيس حافظ الأسد إلى السلطة في ٩ ديسمبر ١٩٧١ واستمرّ معمولاً به حتى ١٩٧٣. فيما بعد تتشكل لجنة برئاسة محمد فاضل لصياغة "دستور دائم للبلاد" أقرّ (باستفتاء) يوم ١٢ مارس وأصدره رئيس الجمهورية في ١٣ مارس بمرسوم جمهوري، وفرض من خلاله فكر حزب البعث على الدولة. صدرت عدة قوانين في وقت سلطة البعث أنهت الحياة السياسية؛ منها:

-قانون الطوارئ لعام ١٩٦٣: الذي يحظر التظاهر ويتيح الاعتقال والتنصت رغم أنها كانت مقرة في الدستور ١٩٥٠ ضمن الحقوق الدستورية.

-قانون حماية الثورة: صدر بالمرسوم التشريعي رقم ٦ لعام ١٩٦٥.

-قانون المحاكمات العسكرية رقم ١٠٩ لعام ١٩٦٨: شرّع تقديم المدنيين للمحاكمات العسكرية.

-قانون إحداث محاكم أمن الدولة الذي صدر

بالمرسوم التشريعي رقم ٤٧ لعام ١٩٦٨.

-قانون إعدام كل منتسب أو ينتسب للإخوان المسلمين رقم ٤٩ لعام ١٩٨٠: على خلفية أحداث الثمانينات.

ـ دستور ٢٠١٢

في ١٥ أكتوبر ٢٠١١ أصدر الرئيس بشار الأسد المرسوم الجمهوري رقم ٣٣ القاضي بتأليف لجنة إعادة كتابة الدستور برئاسة مظهر العنبري واضع دستور ١٩٧٣ ذاته، ومكونة من ٢٩ عضواً، مقتصراً على ممثلين عن أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية ومستقلين وخبراء حقوقيين، وحدد عمل اللجنة بأربعة أشهر.

في ١٥ فبراير ٢٠١٢ سلّمت اللجنة المسودة إلى الأسد الذي أصدر مرسوماً بدعوة الهيئات الناخبة للاستفتاء عليها في ٢٦ فبراير. وبحسب وزارة الداخلية السوريّة بأن ٥٧٪ من الناخبين شاركوا في الاستفتاء وأنّ ٨٩,٤٪ أيدّوه. وفي اليوم التالي أي ٢٧ فبراير صدر المرسوم ٩٤ القاضي باعتماد الدستور الجديد الذي جاء محافظاً على أغلب بنود ومواد الدستور السابق.

ـ العقد الاجتماعي للإدارة الذاتية الديمقراطية في شمال وشرق سوريا

بتاريخ ٢٨ نيسان ٢٠١٣ تدعو حركة المجتمع الديمقراطي TEV DEM لاجتماع حضره ٤٨ أكاديمي من مناطق روج آفا وشمال سوريا، هدف الاجتماع إلى وضع عقد اجتماعي للإدارة الذاتية الديمقراطية. تشكلت وقتها ثلاث لجان: لجنة صياغة العقد الاجتماعي، لجنة المتابعة، ولجنة الإعلام. أنهت لجنة الصياغة من كتابة العقد الاجتماعي بتاريخ ٢٤ تموز ٢٠١٣ بعد عقدها ٣١ اجتماعاً بمعدل خمس ساعات لكل اجتماع.

ـ عقد سوريا الاجتماعي في دستورها الديمقراطي

مجموع الأزمات التي نعيشها تؤكد بأنه يجب

”خلال الفترة التي كانت فيها سوريا جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة، استبدل الدستور بدستور مؤقت وضعه رئيس الجمهورية المتحدة جمال عبد الناصر، وبعد الانفصال عن الجمهورية أعيد العمل بالدستور المذكور بعد إجراء تعديلات ملفتة للنظر، طالت تغيير الاسم الرسمي للجمهورية من الجمهورية السورية إلى الجمهورية العربية السورية، بعد إخضاعه لاستفتاء شكلي واعتماده حتى ١٩٦٣، حين انقلب حزب البعث على النظام الدستوري القائم.“

أن يهدف الدستور السوري إلى:

تحقق التعايش السلمي والودي مع الشعوب الأخرى، دعم مؤسسات المجتمع المدني وتفعيلها، بناء نظام القانون والديمقراطية الذي يؤمن أولوية القوانين باعتبارها إرادة الشعب، توفير مستوى حياة كريمة للمواطنين في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع العادل بعيداً عن مفاهيم الدولة القومية والعسكرية والدينية، إلغاء كافة أشكال التمييز القائمة على أساس العرق أو الدين أو العقيدة أو المذهب أو الجنس، البلوغ بالنسيج السياسي والأخلاقي في المجتمع السوري إلى وظيفته المتمثلة بالتفاهم المتبادل والعيش المشترك ضمن التعددية، وإعلاء حق المشاركة وتوسيعها، والالتزام بمبادئ الشرعة الدولية لحقوق الإنسان وكافة الاتفاقيات والمواثيق ذات الصلة، احترام مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، وضمان حقوق المرأة والطفل، وتأمين الحماية الذاتية والدفاع المشروع، واحترام حرية الدين والمعتقد.

مبادئ الدستور السوري الأساسية

العقد الوطني السوري المرتكز على مبادئ بناء سوريا الجديدة يجب أن يتضمن جملة مبادئ أساسية دستورية، وفوق دستورية تؤخذ بها وتعتمدها في دستور سوريٍّ جديد يليق بالتنوع القومي والاثني والديني والتعدد الثقافي السوري:

١- الشعب مصدر التشريع. ومصدر كل سلطة.

٢– سوريا جمهورية موّحدة ديمقراطية. نظامها (مختلط) رئاسي- نيابي. وذات سيادة وشخصية قانونية. ولا يجوز التخلّي عن أي جزء من أراضيها.

٣- رئيس/ة سوريا مواطن/ة سوريٌّ/ة. لا يتحدد توليّ منصب الرئاسة على أساس انتماء قوميٍّ كان أو ديني.

٤- تلتزم الدولة السورية العمل بميثاق الأمم المتحدة وبمبادئ الشرعة الدولية لحقوق الانسان والمواثيق والمعاهدات الدولية وقواعد القانون الدولي، وعليها ملائمة كل القوانين مع هذه المواثيق والمعاهدات ولا يجوز إصدار أي تشريع أو قانون ينتهكها.

٥- سوريا دولة متنوعة قومياً ودينياً وطائفياً. تصون اللامركزية الديمقراطية هذا التعدد وتعتبر المعيار له في الوقت نفسه. وتعتبر الإدارة الذاتية في شمال وشرق سوريا مثال ذلك ونموذجاً فعالاً على هذه اللامركزية.

٦- السيادة للشعب ولا يجوز لفرد أو لجماعة أو لحزب احتكارها أو ادعائها وتقوم على ممارسة الشعب لسيادته عبر أساليب الانتخاب الديمقراطية التي تتمثل بقانون انتخاب عادل وشفاف يعتمد النسبية بالانتخاب إضافة إلى التوافقية ويعتمد نظام الدوائر الانتخابية ومع اعتماد اللامركزية الديمقراطية وفصل السلطات.

٧ – عاصمة الدولة دمشق.

٨- شعب سوريا يتألف من قوميات وثقافات، يحق أن تكون لغاتها أساسية في أماكن تواجدها.

٩- القضية الكردية في سوريا هي قضية وطنية وديمقراطية. يجب إيجاد حل عادل ديمقراطي على أساس الاعتراف الدستوري بالحقوق القومية المشروعة للشعب الكردي. ورفع الظلم عن كاهله. وإلغاء كافة السياسات التمييزية ونتائجها، والتعويض على المتضررين ضمن إطار وحدة سوريا وسيادتها.

١٠- الاعتراف الدستوري بالوجود والهوية القومية للسريان الآشوريين، واعتبار لغتهم السريانية لغة وطنية رسمية.

١١- تمكين المرأة سياسياً ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا، وزيادة وتعزيز مشاركة المرأة في عمليات صنع واتخاذ القرارات، وتمكينها من المشاركة بالعمل في مجالات الدفاع المشروع والأمن.

١٢ـ الرجل والمرأة متساويان بالحقوق والواجبات، ولجميع المواطنين السوريين الحقوق والواجبات نفسها دون أي تمييز.

١٣- محاربة الجماعات الإرهابية التكفيرية بمختلف مسمياتها وتجفيف منابعها المالية والمادية والمعنوية.

١٤- تعتبر الثقافات الشرقية الإسلامية والمسيحية والدرزية والإيزدية تراثاً مشتركاً في الوطن السوري لكل مكوناته يؤكد عليها في الدستور الجديد.

١٥ـ اعتبار الشباب القوة الفاعلة في المجتمع والعمل على تمثيلهم النوعي في النظام الديمقراطي المنشود.

١٦- ضمان حقوق ذوي الاحتياجات الخاصة وبشكل خاص ضحايا الحرب المدمرة التي عاشتها وتعيشها سوريا في السنوات الثمان الأخيرة.

١٧- حماية الطفولة. ووضع مشاريع خلاقة لإنقاذ أطفال سنوات العنف من تبعات التهجير والعسكرة والأمية.

١٨- وجود هيئات قضائية مستقلة نزيهة تتمتع

بالحرية غير المقيدة في عملها وتمنح الحصانة القضائية والدستورية لحمايتها من عوامل خارجية قد تؤثر على عملها ووظيفتها الرقابية الدستورية.

١٩- الاقتصاد في الجمهورية السورية اقتصاد تشاركي ينحو إلى السوق المجتمعي ويحقق العدالة المجتمعية. ويتأسس هادفاً إلى تحقيق مبدأ الاكتفاء الذاتي.

٢٠- الحفاظ على البيئة وحمايتها من مصادر التلوث ومن استنزاف الموارد والعمل على تحسينها وضمان استدامتها، حفاظا على حقوق الأجيال القادمة.

في مقترح الحد من سلطة الاستبداد المركزي، ومن أجل تشاركية السلطات، وتصورات عامة عن صلاحيات المركز والإدارات السورية الذاتية والصلاحيات المشتركة بينهما

أولاً. صلاحيات الحكومة المركزية

- شؤون الجنسية في سائر سوريا

- السياسة الخارجية للحكومة السورية وتعيين السفراء والقناصل والبعثات الدبلوماسية للدولة.

-توقيع المعاهدات الدولية على ألّا تتعارض مع حقوق الإدارة الذاتية الديمقراطية لشمال وشرق سوريا.

- شؤون إصدار العملة وصك النقود والمقاييس والأوزان وتحديد التوقيت.

- وحدة المناطق التجارية ومعاهدات الملاحة البحرية والتجارة وحرية حركة البضائع وحرية تبادل البضائع والمدفوعات مع الخارج.

- إعداد الموازنة العامة لسوريا، وإعطاء حصة عادلة للإدارة الذاتية الديمقراطية لشمال وشرق سوريا منها.

- حماية الإرث الثقافي لسورية، وضمان حقوق التعليم بلغات الأم للشعوب في سوريا.

- النقل البري والبحري والجوي ضمن سوريا ومع الخارج.

- خدمات البريد والاتصالات ضمن الدولة.

- العلاقات القانونية للعاملين في سوريا والعاملين في هيئات الإدارة الذاتية بموجب القانون العام.

- التكريم بالأوسمة والميداليات والشارات ذات القيم الوطنية.

ثانياً. الصلاحيات المشتركة ما بين الحكومة المركزية والإدارات الذاتية السورية

- الإجراءات لتشكيل هيئات سلطات الدولة.

- تشكيل قيادة مشتركة للجيش، والقوات المسلحة في سوريا.

- إعلان السلم والحرب.

- إصدار القوانين، والمراسيم التشريعية.

- حرية التنقل وشؤون جوازات السفر، وشؤون التسجيل، والهويات الشخصية، وشؤون الهجرة.

- تنظيم المعابر، ووضع النظام الجمركي للمنافذ الحدودية وينظم ذلك بقانون.

- التشريعات المدنية والجزائية، تنظيم المحاكم وتخصصها.

- نشاط الجمعيات العامة، والمنظمات غير الربحية.

- ما يتعلق بشؤون الأجانب، ومنح الإقامات، واللاجئين، والنازحين.

- التعليم والصحة والرياضة.

ثالثاً. الصلاحية الحصرية للإدارات الذاتية الديمقراطية

- تقوم بوضع عقد اجتماعي يحدّد إجراءات

> **"يجب أن يهدف الدستور السوري إلى تحقق التعايش السلمي والودي مع الشعوب الأخرى، وبناء نظام القانون والديمقراطية الذي يؤمن أولوية القوانين باعتبارها إرادة الشعب، توفير مستوى حياة كريمة للمواطنين في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع العادل بعيداً عن مفاهيم الدولة القومية والعسكرية والدينية، إلغاء كافة أشكال التمييز القائمة على أساس العرق أو الدين أو العقيدة أو المذهب أو الجنس."**

تشكيلها؛ هيكل سلطاتها، وصلاحياتها، وآليات ممارسة تلك الصلاحيات، على ألا يتعارض مع الدستور.

- تؤسس مكاتبٌ لها في السفارات والبعثات الدبلوماسية، لمتابعة الشؤون الثقافية والاجتماعية والإنمائية.

- إصدار القوانين والمراسيم التشريعية، التي لا تعد من الأهلية الحصرية للمركز، وليس من الأهلية المشتركة ما بين المركز والإدارة الذاتية.

- تشكيل وحدات حماية تعدّ جزءاً من مؤسسة الجيش الوطني وفق صيغ وآليات متوافق عليها، وتأسيس قوى الأمن الداخلي التي تحافظ وتدافع عن الأمن والاستقرار فيها.

- إدارة الموارد الطبيعية الواقعة في حدودها الإدارية؛ توافقاً والمركز والإدارات الأخرى.

- إعداد وتنفيذ خطط التنمية الاقتصادية والمستدامة لها على أساس الاكتفاء الذاتي.

- إعداد النظام الضريبي الخاص بها، والسياسة المالية والائتمان؛ بشكل لا يتعارض مع قوانين الحكومة المركزية في ذلك.

- إعداد وتنفيذ السياسة الثقافية، وحماية التراث ذات الأهمية المحلية.

- التكريم بالأوسمة والميداليات والشارات ذات القيم المحلية.

موجز مكثف وخلاصة

أما سلّة الدستور السوري، الدستور السوري الجديد؛ فإنه لن يكون على طريقة تنطلق بالأساس من تعديل طفيف على دستور سوريا الحالي الذي جاء بدوره في ظروف استثنائية لا يعبّر عن إرادة شعب سوريا، إذا لم يستطع السوريين إنجاز دستورٍ يكون بالعقد الاجتماعي السوري فيعني بأنّنا أمام إنتاج الأزمة، وتكريس التبعيّة وتداعيات الأزمة وصولاً إلى التقسيم والتفتيت، دون أن يفهم من ذلك بأنه اختلاف على المسمى بقدر ما هو إصرار على إنهاء الخلاف، وبأنه فرصة مناسبة ضمن هذه الفوضى منْ أن يتمم العقد بنحوٍ ينحو إلى استقدام العهد السوري الجديد، فمن خلال الدستور التوافقي يتم التخلص من التركة المفروضة على السوريين لمئة عام منصرمة، التركة الكريهة: الدستور المفروض والهوية المفروضة ضمن الكيفيات المفروضة، وأن العقد الاجتماعي السوري يكون بمثابة فك الارتباط أو الانسلاخ من وشائج القومية والدينية، إنها المسألة الأكثر الأهمية في تحقيق الانتماء وتحقيق الهوية الديمقراطية السورية.

أصول الفكر الإرهابي لجماعة الإخوان المسلمين

إعداد: الدكتور أنمار نزار الدروبي
مدرس مادة الفكر السياسي

مقدمة

أثار تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في مصر على يد حسن البنا في عام 1928 العديد من التحولات والتطورات على المستويين الحركيّ والفكريّ، الذي امتد تأثيرهما إلى بعض البلدان العربيّة والإسلاميّة إذ كان لمؤسس الجماعة حسن البنا الأثر الكبير في صياغة فكر التنظيم من خلال رسائله وكتاباته التي تمثل الحلقة الأبرز في عملية التنشئة داخل الجماعة. حيث كان للفكر الوهابيّ السلفيّ تأثيرٌ مباشرٌ على أفكار حسن البنا في السنوات الأولى من تأسيس الجماعة إذ كان نشاطهم يتركز على العمل الإسلاميّ الإصلاحيّ الذي يقوم على فكرة الإصلاح الدينيّ ومعارضة التغريب، ذلك التغريب الذي أعدته الجماعة السبب المباشر في عرقلة عملية الاستقلال والتحرر، ومن هنا» كان ظهور جماعة الإخوان المسلمين في تلك الفترة نوعاً من الاستمرارية التاريخيّة لأن هذه الفترة هي فترة توجّه إسلاميّ عام ضد التغريب، وهي جزء من الصراع الحضاريّ الذي يتضمن في وجوده

صراع ضد الاستعمار من أجل الاستقلال والتحرر»(١).

ولعل من أبرز الأسباب والعوامل التي كان لها الأثر في تأسيس جماعة الإخوان المسلمين، انهيار الإمبراطورية العثمانية، وتفككها وإلغاء الخلافة الإسلاميّة عام ١٩٢٤، تلك الخلافة التي كانت تمثل المرجعية السياسيّة والرمزية الإسلاميّة، وكذلك مجموعة من الأسباب السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، بالإضافة إلى دور رشيد رضا في نشر الفكر الوهابيّ السلفيّ المتطرف في مصر وبدعم من المملكة العربيّة السعوديّة ومحاولته لتحويل مصر من التدين السُنيّ الصوفيّ المعتدل إلى الفكر الوهابيّ السُنيّ المتطرف وتحديداً التأثير في أفكار حسن البنا الذي كان يلجأ إلى الترقية الروحيّة بممارسات وطرق صوفية.

سيركز الباحث على جذور العقيدة الوهابيّة وانعكاساتها على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وكيف انسحبت تلك الأفكار المتطرفة لإخوان نجد في السعوديّة على جماعة الإخوان المسلمين في مصر، فإخوان نجد هم» الدعوة النجدية أو الدعوة الوهابيّة التي تأسست في نجد في القرن الثامنَ عشرَ الميلاديّ على يد محمد عبد الوهاب، وكانت سمعتهم في القتل والتدمير ترعب الدول التي من حولهم، فالإعداد الفكريّ الذي كان فقهاء الوهابيّة يعدونه لشباب الأعراب النجديين بأن يتحول به الشاب الأعرابي إلى مقاتل عنيد يرى الجهاد في استحلال قتل كلّ من ليس وهابيًّا»(٢). وبالتالي انسحبت تلك الأفكار المتطرفة لإخوان نجد على جماعة الإخوان المسلمين في مصر في وَحدة النظريّة مع قدر من التنوع في التطبيق، **وفي هذا السياق يمكن أن نسجل أوجه التشابه بين إخوان نجد في السعودية وجماعة الإخوان المسلمين في مصر كما يلي:**

١. الحركتان تعملان معاً على نشر الوهابيّة وتعميمها كممثل للإسلام.

٢. الوهابيّون السلفيّون وجماعة الإخوان المسلمون يناضلون من أجل إقامة الدولة الدينيّة.

٣. نجحت الوهابيّة في السعوديّة في إقامة دولة دينية تحكم طِبقاً للحاكمية التي هو نوع من الاستبداد كانت تعرفه أوروبا بمبدأ الحق الملكيّ المقدس. في الوقت نفسه نشرت جماعة الإخوان المسلمين في مصر ثقافة الاستبداد الدينيّ المنتمية للعصور الوسطى.

٤. سعت الحركتان إلى إخضاع الفرد والمجتمع لمبدأ السمع والطاعة بدون مناقشة لوليّ الأمر، فالأمر والطاعة تمثل لهما عقيدة دينية وسياسيّة

٥. صاغت الحركتان الفكر الوهابيّ في شعارات سياسيّة، مثل الإسلام هو الحلّ، وتطبيق الشريعة (٣).

٦.الالتزام بالمظهر الديني: لقد حرصت الجماعتان في مصر والسعوديّة على الالتزام بالمظهر الدينيّ، كإطلاق اللحية وحلق الشارب، ومنع لبس الحرير والذهب.

٧.ظاهرة العنف والتكفير وكراهية الآخر: اشتركت التجرِبتان في سمة العنف وظاهرة الإرهاب، وقد اعتمدت الجماعتان على مبدأ تكفير الآخرين ومصادرة الإسلام لحسابهم الخاصّ، فعلى سبيل المثال لا الحصر، حكم محمد عبد الوهاب بكفر الشيعة، وأعدّ بلادهم بلاد حرب.

٨. العقليّة السلفيّة ونظرية الجهاد: دعت الجماعتان إلى العودة بالإسلام إلى أصوله الصحيحة التي كان عليها في عهد النبوة والسلف الصالح. كما أخذت الجماعتان بمبدأ الجهاد، وأعدُّوا التخلي عن الجهاد ردة وكفر، فلا

١ ()البشري، طارق، الحركة السياسيّة في مصر ١٩٤٥-١٩٥٢، الناشر، دار الشروق، القاهرة، ص٤١

٢()صبحي، أحمد محمود، جذور الإرهاب في العقيدة الوهابية، الناشر، دار النصر، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٣٦

٣()المصدر نفسه السابق، ص١٢٢ ص١٢٣ ولاحقا

يكفي أن تؤمن بمبادئهم بل يجب أن تجاهد من أجلها.

٩.الموقف المعادي من الحضارة الغربيّة: كما رفض إخوان نجد المخترعات الحديثة، نلحظ أن جماعة الإخوان في مصر رفضوا أيضاً النظريّات العلميّة والفلسفيّة، وكذلك رفضوا الديمقراطيّة السياسيّة والليبرالية الفكريّة.

١٠. شكل المجتمع الإسلامي": لقد حرّمت الجماعتان الربا والقمار والخمر ومنعتا الاختلاط، واهتموا بتعليم الدين واللغة العربيّة.

١١. التشابه في الاسم: وهو اسم الإخوان المقتبس من رابطة الإخوة الإسلاميّة.

.١٢قضية الصراع:

فإذا كان الصراع بين الدولة السعوديّة وجماعة الإخوان الوهابيّة في نجد في أواخر العشرينيات أدى إلى صدام دمويّ أسفر عن القضاء على إخوان نجد عام ١٩٣١ فهو ذات الصراع بين جماعة الإخوان المسلمين في مصر ومؤسسات الدولة المدنيّة الذي وصل ذروته في الأربعينيات من القرن الماضي إلى عمليات العنف المتبادلة بين الطرفين التي أدت إلى حوادث اغتيال بين الجماعة والدولة، وقد أسفرت عن مقتل رئيس الوزراء المصريّ النقراشي باشا عام ١٩٤٨، وقتل حسن البنا عام ١٩٤٩ (٤).

لقد برز تأثير الفكر الوهابيّ وسيطرته على الجماعة بشكل كبير في مرحلة سيد قطب، وأصبح أكثر وضوحاً من عهد حسن البنا، وذلك لأن سيد قطب قد أحدث تحولات راديكالية في أفكار حسن البنا السياسيّة والدينيّة. وبالرغم من وجود قطب ومحمد عبد الوهاب مؤسسِ الوهابيّة في سياقين تاريخيّين مختلفين تماماً، فإن كلًّا منهما أعدّ المجتمعات المسلمة في عصرهما مجتمعاتٍ جاهلية. فمن وجهة نظر محمد عبد الوهاب كان السبب الرئيس لجاهلية المجتمع هو تفشي المعتقدات والممارسات الدينيّة

> **نجحت الوهابية في السعودية في إقامة دولة دينّية تحكم طِبقًا للحاكمية التي هو نوع من الاستبداد كانت تعرفه أوروبا بمبدأ الحق الملكيّ المقدس. وفي الوقت نفسه نشرت جماعة الإخوان المسلمين في مصر ثقافة الاستبداد الدينيّ المنتمية للعصور الوسطى. وسعت الحركتان إلى إخضاع الفرد والمجتمع لمبدأ السمع والطاعة بدون مناقشة ولي الأمر، فالأمر والطاعة تمثل لهما عقيدة دينية وسياسية.**

المنحرفة والمناقضة لمسألة التوحيد، أما سيد قطب، الذي ينتمي إلى حِقبة ما بعد الاستقلال، فإنه يرى أن من مقتضيات الإيمان بالله والتوحيد، أنه يجب أن تكون النُّظم السياسيّة والاجتماعيّة متوافقة مع إرادة الله المتمثلة في شريعته. في الوقت نفسه انتقد قطب المجتمعات المسلمة لأنها احتفظت بالنظم السياسيّة والتشريعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة الغربيّة بدلاً من النظم الإسلاميّة. ومن هذا المنطلق يقول قطب:» إن المسلمين في عصره قد عادوا إلى حالة الجاهليّة، بل ينصّ على أن وجود الحياة الإسلاميّة والأمة الإسلاميّة بل وجود الإسلام ذاته قد توقف منذ فترة طويلة»(٥).

لكن في النهاية فإن هناك العديد من التشابهات بين الحركة الوهابيّة وأيديولوجيا جماعة الإخوان المسلمين بنسختها (البنّاوية والقطبية) إذ اعتبرت الحركتان أن الإسلام قد وصل إلى حالة كبيرة من التردّي في عهدهما.

٤()للمزيد راجع، أبو الاسعاد، محمد، السعودية والإخوان المسلمون، الناشر، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة، سنة الطبع، بلا، ص٨٣ص٨٤ ولاحقا

٥()قطب، سيد، معالم على الطريق، الناشر، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٩، ص٩١

ويجب عودةُ المسلمين إلى الإسلام الصحيح. كما أن الوهابيّة وجماعة الإخوان المسلمين كان لهما موقفٌ سلبيٌّ مشتركٌ من علماء الدين التقليديّن واتهامهم بالمسؤولية عن أزمة الإسلام الراهنة (٦).

ونتيجةً لذلك فقد أسهمت العقيدة الوهابيّة في تغيير أفكار حسن البنا وكذلك في تأسيس جماعة الإخوان المسلمين إذ نقلت الجماعة من الإطار الصوفيّ الذي يعطي أولوية للجانب الروحيّ إلى الإطار السلفيّ الوهابيّ الذي يغلب عليه الاهتمامُ بالفكر العقائديّ وما يفرضه ذلك من صدام وممارسات متطرفة ضد كل من يختلف معهم في آرائهم وأفكارهم. ومن ثَم امتد هذا الفكر السلفيّ الوهابيّ، واجتاح جماعة الإخوان المسلمين منذ أوائل الخمسينيات. وتعزز هذا المد مع اشتداد الحملة الناصريّة على التنظيم وفرار عدد من كبار قيادات الجماعة واستقرارهم في دول الخليج العربيّ، ثم اشتد أكثر في حِقبة السبعينيات التي شهدت أقوى انطلاقة للتيار الوهابيّ داخل الجماعة بعد انتهاء المشروع القوميّ الناصريّ وهزيمة يونيو/ حزيران عام ١٩٦٧، ثم موت جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠. ومن هنا يمكن أن نلحظ تحولاً كبيراً في المنظومة الإخوانيّة على مدار أكثرَ من نصف قرن (٧).

وتأسيساً لما تقدم أصبحت جماعة الإخوان المسلمين الواجهة الرسميّة للأيديولوجية الإسلاميّة التي اجتاحت مصر والعالم العربيّ التي كان شعارها إقامة الدولة الإسلاميّة. وهو شعار كان يستقطب بريقهُ قطاعاتٍ وشرائح وأعمار بالغة التنوع والاختلاف إذ أن الأيديولوجية نفسها كانت تجذب إليها المتمردين ذوي النزاعات الثوريّة الراغبين في المواجهة العنيفة. لكن في الوقت نفسه طرأت تحولات عديدة وتغييرات في فكر الجماعة، كان أهمها الدخول البراغماتي الكثيف للإخوان في السياسة مما أدى إلى تخليهم عن الكثير من مبادئهم، مثل إقامة الدولة الإسلاميّة، وكذلك الخلافة الراشدة، والوحدة السياسيّة الجامعة لكل الأمة الإسلاميّة، بالإضافة إلى غياب مفاهيم أهل الذمة (٨).

لقد كان لانتشار جماعة الإخوان المسلمين في دول عديدة له سياقات مختلفة، السبب في ظهور نسخ متعددة من أيديولوجيا الإخوان، فبالإضافة إلى النسخة الراديكاليّة لسيد قطب في مصر هناك النسخة الاشتراكيّة لمصطفى السباعيّ المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريّا، والنسخة الليبرالية الديمقراطيّة للقياديّ الإخوانيّ التونسيّ راشد الغنوشيّ. ومن هنا فقد شملت أفكار جماعة الإخوان المسلمين ومعتقداتها على عدة اتجاهات فكرية، على العكس من الحركة الوهابيّة التي ظلت إلى حد كبير حركة محلية متحجرة عقائديًّا (٩).

التجنيد والهوية والأيديولوجيا داخل جماعة الإخوان المسلمين

تُعدّ جماعة الإخوان المسلمين حركة جماهيرية لديها نظام عضوية شديد التعقيد بحيث لا يُلحق العضو بالجماعة كبقية الحركات الاجتماعيّة الأخرى، بل يتم انتقاؤه عبر عملية معقدة يُطلق عليها (صيد الفريسة). فالجماعة تتبع تكتيكات معينةً في مرحلة الاستقطاب معتمدة على الدُّعاة باعتبارهم أهمّ الأدوات الحيوية لتجنيد الأعضاء الجدد، بالإضافة إلى أن عملية الانتقاء داخل الجماعة تقوم على أساس الفحص والتمحيص للأعضاء قبل دعوتهم للالتحاق بها، وذلك لاختبار قيم الولاء والالتزام اتجاه الحركة وقياداتها.

٦() للمزيد راجع، عفان، محمد، الوهابية والإخوان: الصراع حول مفهوم الدولة وشرعية السلطة، الناشر، دار جسور، لبنان، ٢٠١٦، ص١١٠ص١١ ولاحقا

٧() للمزيد راجع، تمام، حسام، تحولات الإخوان المسلمين: تفكك الأيديولوجيا ونهاية التنظيم، الناشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠١٠، ص٩٧ص٩٨ ولاحقا

٨() للمزيد راجع، تمام، حسام، تحولات الإخوان المسلمين: تفكك الأيديولوجيا ونهاية التنظيم، مصدر سابق، ص٧ص٨ ولاحقا

٩() للمزيد راجع، عفان، محمد، الوهابية والإخوان: الصراع حول مفهوم الدولة وشرعية السلطة، الناشر، دار جسور للترجمة والنشر، لبنان، ٢٠١٦، ص١٠٠ص١٠١ ولاحقا

وتنقسم عملية الاستقطاب إلى ثلاث مراحل، تتمثل المرحلة الأولى في نشر الدعوة التي تقوم على أساس تحسين صورة الجماعة في الأوساط السياسيّة، وتعتمد هذه المرحلة على الحملات الإعلاميّة، والخطب في المساجد والمحاضرات العامة. أما المرحلة الثانية فتقوم على نشر فكرة الإخوان المسلمين من خلال التركيّز على الأصدقاء والأقارب والجيران، ورفاق العمل، بمعنى أنها تعتمد على العَلاقات الشخصية للدوائر الصغيرة المحيطة بالعضو. وأخيراً المرحلة الثالثة، وهي مرحلة الدعوة الفكريّة التي ترتكز على عدة خطوات، أهمها تغيير سلوك الفرد تدريجيًّا، والانتقال من المستوى الشخصيّ في الاقناع إلى المستوى الدينيّ، ومن ثم الاقناع بفكرة شمولية المنهج الإسلاميّ، وتعزيز الشعور بالواجب نحو المسلمين المستضعفين في شتى بقاع العالم، والعمل الجماعيّ من خلال المشاركة في الفعاليات، كالتظاهرات والحملات الانتخابيّة التي تدعو لها الحركة.

أما مسألة التنشئة وترسيخ الهوية الإخوانيّة داخل الجماعة فقد اتبع التنظيم أسلوباً خاصًّا في تشكيل الهوية الإخوانيّة للفرد إذ سُمّيت هذه المرحلة ب (نموذج الحضانة) التي تقوم على» الدمج بين عمليتي الاستقطاب والتنشئة والتلقين إذ تنفرد الجماعة عن بقية الحركات الأخرى بعملية التربية التي تهدف من خلالها إلى إعادة بناء المعتقدات الفردية للعضو بما يضمن تشكيل تصوره ورؤيته للعالم من حوله»(١٠).

أمّا عملية البناء الأيديولوجي داخل التنظيم فقد أفرد لها البنا عدة مبادئَ كان أهمها البيعة، وهي مفهوم يتعلق بالحكم، والطاعة التي تفرضها الجماعة لرفع غطاء الشرعيّة عن التيارات المعارضة داخل التنظيم، وكذلك الاقتناع والتمسك بأيديولوجية الجماعة، بالإضافة إلى مبدأ الالتزام باعتباره الأساس

”بالرغم من وجود قطب ومحمد عبد الوهاب مؤسس الوهابية في سياقين تاريخيين مختلفين تمّاماً، فإن كلا منهما أعد المجتمعات المسلمةً في عصرهما مجتمعاتٍ جاهلية. فمن وجهة نظر محمد عبد الوهاب كان السبب الرئيس لجاهلية المجتمع هو تفشي المعتقدات والممارسات الدينية المنحرفة والمناقضة لمسألة التوحّيد، أما سيد قطب يرى أنه يجب أن تكون النظم السياسية والاجتماعية متوافُقة مع إرادّة اللّه المتمثلّة في شريعته.“

الذي يحكم العَلاقة بين الأفراد. وأخيراً الانتماء والولاء الذي يقوم على الإيمان بالمشروع الإسلاميّ والانتماء إلى الفكرة الإسلاميّة وَفق رؤية الجماعة ومنهجها (١١).

البناء العقائديّ لجماعة الإخوان المسلمين

تُعد فكرة شمولية الإسلام كونها ديناً ودولةً من أهم الأسس التي قامت عليها الجماعة، ففي المرحلة الأولى حيث مثّل الإسلام لدى الجماعة عقيدة وعبادة وعملاً، بالإضافة إلى مصحف وسيف، لذا فهي رفضت أن تكون تعاليم الإسلام مقتصرة فقط على الناحية العبادية دون غيرها من النواحي، لذلك تمسكت الجماعة بفكرة الخلافة الإسلاميّة.

لقد استخدم البنا فكرة المحاسبة في اليوم والليلة ليكون أداة تضبط مدى التزام أعضاء الجماعة بواجباتهم سواء في العبادات أو الدعوة.

١٠() العناني، خليل، من داخل الإخوان المسلمين: الدين والهوية والسياسة، الناشر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، القاهرة، ٢٠١٨، ص١٣٤

١١() المصدر نفسه السابق، ص١٣٢ص١٣٣ ولاحقا

لكن بعد ذلك تراجع العمل الدعويّ والتربويّ، وبدء التوغل في الحياة السياسيّة وتحديداً بعد تأسيس النظام الخاصّ أو الجهاز السريّ، وبالتالي فقد تحوّل العمل السياسيّ للجماعة إلى العمل العسكريّ. ثم بعد البنا جاء دور سيد قطب، ذلك الدور البارز والعلامة الفارقة في تأسيس المرحلة الثانية من أيديولوجيا الجماعة إذ تبلور دور سيد قطب في تركيزه على مفهومين أساسيين أصبحا قاعدة ملزمة لجماعة الإخوان المسلمين، وهما مفهوم الجاهليّة ومفهوم الحاكمية (١٢).

من هنا بدأت عملية إعادة بناء التنظيم وإعادة بنائه الفكريّ العقائديّ على ضوء أفكار السيد قطب. وفي هذا الصدد يوضح (علي عشماوي) القياديّ البارز في جماعة الإخوان المسلمين وآخر قادة التنظيم الخاصّ للجماعة أن سيد قطب سعى إلى إعادة بناء التنظيم وإعادة بناء الفكر العقائديّ له وَفقاً لما يُريد ترتيبه هو، وبالأسلوب الذي يراه، أي بمعنى أنه وجّه الجماعة إلى البناء العقائديّ الجديد الذي يقرره هو. فدعا قطب جماعة الإخوان المسلمين إلى وجوب تصحيح الاعتقاد أولاً، وبعد ذلك تأتي باقي الأمور الدينيّة والدنيوية، وأن تصحيح العقيدة من وجهة نظر قطب لا تكون إلا بمعرفة حقيقة مهمة، وهي أنه هو الله الرب، وأنه لا عبادة إلا لله، ولا يكون في أمر العباد إلا ما يُريد رب العباد.

بمعنى أن تعبد الله وتخلع ما يُعبد من دونه، فإذا كانت هذه هي الحالة مع الله والرب، فلا ولاء ولا خوف ولا عبادة إلا له وحده. ومن هنا سوف يتحرر العباد من عبادة العباد، ويردّهم إلى عبادة الله وحده، فتحمست الجماعة لهذه الأفكار، واتخذتها في صلب عقيدتها، وسارت على دربها، واتجهت في بنائها العقائديّ الذي يقع على أمرين أساسين، وهما، الأول: أن الاعتقاد الإسلاميّ يقوم على الفهم الحقيقيّ والدقيق لمعنى التوحيد الوارد في كلمة لا إله إلا الله. والأمر الثاني: أن رحلة الأنبياء من أول نوح إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) تتلخص في أمرين، الأول: هو الدعوة إلى إسلام الأمر بالله، والأمر الثاني: أن الدين هو الإسلام. وبالتالي فقد ترتب على هذا الأفكار أمور خطيرة جداً، أهمهما أن جماعة الإخوان المسلمين اتهمت الناس بأنهم قد بعدوا عن دينهم، وأنهم ليسوا بمسلمين، بل وصل الأمر إلى اتهامهم المجتمعَ بالكفر، ويجب عدم الأكل معهم أو الزواج منهم واعتزالهم.

ومن هذا المنطلق يعتقد الإخوان المسلمون» أنهم يعملون على إقامة الدين وإقامة جماعة إسلاميّة على الأصول الشرعيّة، فلا بد أن يُقيموا الحد، أي أن يجلدوا الزاني أو يرجموه إن كان متزوجاً، وإن يجلدوا شارب الخمر، وغيرها»(١٣). لكن كل هذه الإجراءات من وجهة نظر الجماعة لا تتحقق إلا بعد سيطرتهم على أرض المسلمين، وإلغاء الحدود بين الدول المسلمة، لكي يقيموا حكومة إسلاميّة (١٤).

اتخذت جماعة الإخوان المسلمين بعض الشعارات، مثل الله زعيمنا، والرسول قدوتنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أمانينا. فالله زعيمنا تعني بمفهوم الجماعة أن زعامة الله أفضل من زعامة البشر. والرسول قدوتنا تعني أن البشر جميعاً ناقصون، والرسول هو القدوة في حياته وسُنته، والقرآن دستورنا تعني الضيق بدساتير البشر التي تُعبر عن إرادة الحاكم. أما الجهاد فهو يُعد بالنسبة لهم السبيل ضد الخضوع ومصالحة الأعداء، وعدم الرضا بالذل، ورفض عقد أي معاهدات تضر بمصالح البلاد، فالجهاد أفضل طريق لتغير المجتمع ونيل الحقوق بحسب رأيهم.

من هنا كان قطب قد أكد على ضرورة تغيير المجتمع جذريًّا وبناء الجماعة المؤمنة الفريدة التي تنفصل عن هذا المجتمع باعتباره مجتمعاً جاهليًّا من وجهة نظره على أن يكون هذا التغيير بكل الوسائل التي تراها الجماعة مناسبة سواء كانت بالطرق السلميّة أو غير السلميّة بمعنى حتى لو

١٢() للمزيد راجع، إبراهيم، ماجد موريس، الإرهاب: شهوة الدم ولغز الانتحار، الناشر، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١٨، ص٣٨

١٣() عشماوي، علي، التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين: مذكرات علي عشماوي آخر قادة التنظيم السري الخاص، الناشر، مركز أبن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة، سنة الطبع، بلا، ص ١٧٢

١٤() المصدر نفسه، ص١٥٩ص ١٦٠ ولاحقا

كان التغيير باستخدام القوة (١٥). فهو يقول في هذا الصدد» لا ينشأ المجتمع المسلم، ولا يتقرر وجوده إلا إذا بلغ درجة من القوة، وهي قوة الاعتقاد، وقوة التنظيم والبناء الجماعيّ، وقوة البناء النفسيّ، وسائر أنواع القوة التي يواجه بها المجتمع الجاهليّ، ويتغلب عليه»(١٦).

وفي بداية السبعينيات من القرن الماضي، وبعد تسلم الرئيس السادات السلطة في مصر، حدث تطورٌ في موقف جماعة الإخوان المسلمين من الدولة والعمل السياسيّ، لكنه لم يكن تحولاً فكريًّا حقيقيًّا بل هو إعادة البناء التنظيميّ للإخوان بعد خروج أغلب قياداتهم من السجون إذ حاول السادات حينها إطلاق يد جماعة الإخوان المسلمين لمواجهة المد الشيوعيّ والتيار الناصريّ. إذن كانت تلك المرحلة تمثل مرحلة التكيف مع الواقع باستخدام التقية السياسيّة للجماعة الذين كانوا يعملون، ويخططون سرًّا لقتل السادات. وسنأتي في المطالب اللاحقة لشرح تفصيليّ عن مرحلة الصدام بين السادات وجماعة الإخوان المسلمين.

أهداف جماعة الإخوان المسلمين ووسائل تحقيقها

لجماعة الإخوان المسلمين عدة أهدف، منها أهداف خاصة بالأمة الإسلاميّة نفسها، وأخرى أهداف عامة للبشرية كافة. فأما الأهداف الخاصّة بالأمة الإسلاميّة فقد جاءت وبحسب رأي الجماعة نتيجة لأن الأمة المسلمة بواقعها الحاليّ أفراداً وأسراً ومجتمعاتٍ بعيدةٌ كل البعد عن حقيقة الإيمان بربها وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر بخيره وشره. كما أن الأمة بعيدة كل البعد عن حقيقة الإسلام المتمثلة في صلاتها وزكاتها وصومها وحجها كعبادة، وأنها بعيدة أيضاً عن أحكام الإسلام وتعاليمه شريعة وقانوناً.

وعليه يجب توحيدُ الأمة المسلمة من أقصاها إلى أقصاها لتكون كتلة واحدة في وجه معسكر الكفر والشرك والنفاق بحسب تعبيرهم، ويجب بناء الأسرة الإسلاميّة أفراداً وأسراً والعودة إلى حقيقة الدين الحنيف. ثم تنتقل بعد ذلك إلى البشريّة كافةً لتعرض عليها الإسلام، وتطالبها بالدخول في الإسلام أو تخضع لأحكامه. وفيما يخص الأهداف العامة والشاملة لكل البشريّة فقد دعت الجماعة إلى أن تعبد البشريّة كلها ربًّا واحداً، وأن تأخذ بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما الهدف الأخطر من بين كل هذه الأهداف العامة فهو قتال الناس كافةً حتى يشهدوا شهادة الحق، ويذعنوا لله تعالى في كل شؤونهم.

فالقتال بالنسبة للجماعة يُمثل فرضاً وواجباً على الأمة كافةً، لا تعلنه إلا قياداتها، فهو الفريضة القائمة إلى يوم القيامة في معتقداتهم. بمعنى الجهاد إلى يوم القيامة بمراتبه الثلاثة: بالقلب، واللسان، واليد (١٧).

الإخوان المسلمون ومنهج العنف

شكلت البنية الثقافيّة والعقائديّة لجماعة الإخوان المسلمين الأثر المباشر في ممارستهم للعنف، في الوقت نفسه تميزت الجماعة باستخدامها العنف كوسيلة سياسيّة. لقد أعدّت الجماعة خيانة زعماء مصر (العلمانيين) للثقافة والدين بنفس قدر خيانتهم السياسيّة.

وفي رأي الجماعة أن مقاومة الاستعمار تُمثل مقاومة لحملة صليبية جديدة خاصةً بعد أن استولت الجماعة على بعض الأسلحة من الجيش البريطانيّ في أثناء الحرب العالميّة الثانية إذ قاموا بتدريب أعضائهم على كيفية استخدام تلك الأسلحة، وهذا ما أكده (عمر التلمسانيّ) المرشد العام الثالث للجماعة إذ يقول في هذا الصدد:» إن حسن البنا سعى إلى بناء منظمة من الكوادر تتلقى تربية وإعداداً خاصًّا وتُعد لتكون ميليشيا مسلحة، مهمتها أن تستولي

١٥() للمزيد راجع، شاهين، عماد الدين، الحركات الإسلامية وأثرها في الاستقرار السياسيّ في العالم العربي، الناشر، مركز الأمارات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠٠٢، ص٧٦ص٧٧ ولاحقا

١٦() قطب، سيد، معالم في الطريق، مصدر سابق، ص٨٨

١٧() للمزيد راجع، جابر، حسين بن محسن بن علي، الطريق إلى جماعة المسلمين، الناشر، دار الوفاء، مصر، ١٩٩٠، ص١٢١ص١٢٢ ولاحقا

> **جاءت الأهداف الخاصّة بالأمة الإسلامية، وبحسب رأي الجماعة نتيجة لأّن الأمة المسلمة بواقعها الحالي أفرّاداً وأسراً ومجتمعاتٍ بعيدةٌ كل البعد عن حقيقة الإيمان بربها وملائكته وكتبه ورسله واليوّم الآخر والقدر بخيره وشره. كما أن الأمة بعيدة كل البعد عن حقيقّة الإسلام المتمثلّة في صلاتها وزكاتها وصومها وحجها كعبادة، وأنها بعيدة أيضاً عن أحكام الإسلام وتعاليمه شريعة وقانوناً.**

على الحكم بتحرك انقلابيّ»(١٨).

وباعتراف التلمسانيّ هذا يصبح كل ما ذكره حسن البنا في بداية دعوته عن عدم جواز فكرة الثورة هو مجرد كلام ليس أكثر لكي يُبرّئ جماعته من أي استخدام للعنف. لكن في الحقيقة ووَفقاً لهذه المعطيات يُعد المنهج الانقلابيّ هو جوهر فكر الجماعة. فعلى سبيل المثال لا الحصر إنهم يبررون الاغتيالات السياسيّة والخروج على الحكام بجميع اشكاله سواء كان خروج قتال أو تظاهر وعصيان بأنها ثورة ضد الظلم والطاغوت.

في الوقت نفسه فهم لا يغامرون بأنفسهم دائماً، بمعنى أنهم في بعض المواقف الاحتجاجية لا يخرجون على الحكام بصورة مباشرة، بل يكون عن طريق غيرهم، وذلك بالتهيج والإثارة، لكن عن طريقهم فقط يتم أسلوب الاغتيالات السريّة.

١٨ ()قاعود، إبراهيم، عمر التلمساني شاهدا على العصر: الإخوان المسلمون في دائرة الحقيقة الغائبة، الناشر، دار المختار الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٥، ص٦٤

الجدير بالذكر أن الجماعة تخرج ضد الدولة عندما يتعرض بعض من قادتهم للاعتقال (١٩).

لقد وصل العنف لدى جماعة الإخوان المسلمين بتبريرهم قتل المسلمين مستشهدين بروايات وقصص قد حدثت في صدر الإسلام. فبحسب رأي الجماعة أنه يجوز قتل المسلم الذي يثبت تعاونه مع الأعداء. ونتيجةً لهذ أصبح قتل المسلم الخائن في نظرهم جهاداً يُثاب عليه القاتلُ بدخوله الجنة. خاصة وأن قضية الجهاد هي التي كانت سائدة بين الجماعة. وأعطت التنظيم صفته المميزة. وبات الجهاد من الفضائل الأساسيّة لدى أعضاء الجماعة. وهذا ينطبق تماماً على ما أكده مؤسس الجماعة حسن البنا مراراً وتَكراراً بأنهم يمثلون جيش التحرير. وأنهم كتائب الخلاص لتحرير الأمة. وبأنهم جنود الرحمن. وعليه فاعتمد الإخوان العنف منهجاً في سياساتهم العملية (٢٠).

وتأكيداً لفلسفة العنف في منهج الإخوان المسلمين ما قاله حسن البنا في رسالة المؤتمر الخامس» وفي الوقت الذي يكون فيه منكم معشر الإخوان المسلمين ثلاثمائة كتيبة قد جُهزت كُلٌّ منها نفسيًّا وروحيًّا بالإيمان والعقيدة. وفكريًّا بالعلم والثقافة. وجسميًّا بالتدريب والرياضة. في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار. وأقتحم بكم عنان السماء. وأغزو بكم كل عنيد جبار. فإني فاعل إن شاء الله»(٢١).

موقف الإخوان المسلمين من الحضارة الغربيّة

كان نقد الإخوان المسلمين للغرب وللحضارة

١٩ ()للمزيد راجع، الوصيفي، علي السيد، الإخوان المسلمون بين الابتداع الديني والإفلاس السياسيّ، الناشر، دار المشارق الإسلامية، القاهرة، سنة الطبع، بلا، ص٢٩١ص٢٩٢ ولاحقا

٢٠ ()للمزيد راجع، يوسف، السيد، الإخوان المسلمون وجذور التطرف الديني والإرهاب في مصر، الناشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦، ص٢٠٩ص٢١٠ ولاحقا

٢١ ()البنا، حسن، مجموعة رسائل البنا، الناشر، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص١٤٩

الغربيّة قاسياً جدًّا، وهذا يرجع لأصول الفكر المتشدد لمؤسس الجماعة حسن البنا وكذلك أفكار سيد قطب من منطلق الصراع الاجتماعيّ والثقافيّ بين الغرب والإسلام إذ ترى الجماعة أن الأمم الأوروبيّة قد اتصلت بالإسلام وشعوبه في الشرق بالحروب الصليبية، وسار ذلك جنباً إلى جنب مع نشأة الدولة القوية، وامتدّ سلطانها إلى كثير من البلاد والأقطار، فكان طبيعيًّا بعد ذلك أن تقوم الحياة الأوروبيّة والحضارة الغربيّة على قاعدة إقصاء الدين من مظاهر الحياة الاجتماعيّة، وطغيان النظرة الماديّة وجعلها المقياس في كل شيء. وتبعاً لذلك صارت مظاهر هذه الحضارة مظاهر مادية بحتة تهدم ما جاءت به الأديان السماوية، وتناقض كل تلك الأصول التي قررها الإسلام الحنيف بحسب رأيهم. وترى الجماعة أن أهم المظاهر التي لازمت الحياة الأوروبيّة هو الإلحاد، والشك في الله، وإنكار الروح، ونسيان الجزاء الأخرويّ، بالإضافة إلى الإباحية والتهافت على اللذة والتفنن في الاستمتاع وإطلاق الغرائز، وبهذا فإن الغرب اتبعوا الشهوات بالإضافة إلى تجهيز المرأة بكل صنوف المفاتن والمغريات، والإغراق في الموبقات إغراقاً حطم الأجسام والعقول الذي قضى على نظام الأسرة. ونتيجةً لذلك فإن المظاهر الماديّة البحتة في المجتمع الأوروبيّ هي التي قد انتجت فساد النفوس، وضعفت الأخلاق والتراخي في محاربة المفاسد، فكثرت المشكلات، وظهرت المبادئ الهدامة، فتمزقت الدول، وتناحرت الشعوب على المطامع والأحقاد، وقد أثبتت هذه المدنيّة الحديثة عجزها التامّ عن تأمين المجتمع الإنسانيّ، وإقرار الطمأنينة والسلام فيه، وفشلت في إسعاد الناس رغم العلم والمعرفة التي يمتلكونها. وفي مقام آخر بيّن الإخوان أن الأصول السياسيّة للدولة الغربيّة تقوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصاديّة تجتاحها الأزمات، وأصولها الاجتماعيّة تقضي عليها المبادئ الشاذة. وهكذا فإن بسبب هذه الحضارة الغربيّة وسياساتها الجائرة الطامعة أصبحت الإنسانيّة كلها معذبة وشقية وقلقة ومضطربة. إذن فهي بأشد الحاجة إلى تطبيق سور الإسلام الحنيف ضد الماديّة الأوروبيّة بحسب رأي الجماعة (٢٢).

فكر المرشد مصطفى مشهور:

يشرح (عبد الحميد الغزاليّ) عضو مجلس شورى جماعة الإخوان المسلمين والمستشار السياسيّ للمرشد العام السابع (مهدي عاكف) أنه كان لفكر مصطفى مشهور المرشد الخامس للجماعة تأثيرٌ كبيرٌ في عمل تنظيم الإخوان المسلمين ومسارهم، فقد كان مصطفى مشهور يرى أن سبب ضعف الأمة العربيّة والإسلاميّة وما تشهده من ضياع ودمار وانهيار الفرد، وانهيار الأسرة، وانهيار المجتمع، فانهيار الدولة، وما ترتب عليه من التبعية الذليلة وانتشار العلل والأمراض، إنما يعود سببه إلى تخطيط أعداء الإسلام بذلك، فهو يقول: «إن أبناء التيار الإسلاميّ يرفضون هذه الروح الاستسلاميّة، فقد ربّى فيهم الإسلام كل معاني العزة والكرامة، وروح التضحية والفداء، وبعث فيهم الأمل وعدم اليأس أو القنوط من رحمة الله وفي تأييده ونصره»(٢٣).

ومن هذا المنطلق يُقدم مشهور جماعة الإخوان المسلمين في مصر على أنها جماعة ذات بناء قويّ ومتين يقوم على أساس منهاج الله وشريعته السمحة العادلة، وهو منهاج رب الناس للناس الذي يتصف بالكمال والشمول وتحقيق العدالة والأمان والمساواة والسعادة لأنه من عند الله. في الوقت نفسه رفض مصطفى مشهور كل المشاريع الاقتصاديّة أو ما يسمى بالخطة الخمسية في مصر، لأنها من وجهة نظره تهتم بالعمران الماديّ. لكنه دعا إلى الاهتمام في إعداد الرجال المؤمنين، وبناء المواطنين الصالحين على أساس القيم الدينيّة من خلال تسخير أجهزة الدولة التعليمية والإعلاميّة والاجتماعيّة وغيرها، معتبراً أن كل من يعمل في حقل الدعوة الإسلاميّة هم الرجال الذين سيُقابلون

٢٢ () للمزيد راجع، القرضاوي، يوسف، الإخوان المسلمون سبعون عاما في الدعوة والتربية والجهاد، الناشر، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٦٨ص١٦٩ ولاحقا

٢٣ () الغزالي، عبد الحميد، الفكر الاقتصادي عند الإخوان المسلمين، الناشر، دار النشر للجامعات، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٨١

المحن والمصاعب بالثبات والصبر، لأن عقيدتهم ثابتة وراسخة، لا يُغيرها ولا يُرهبها الممارسات القمعية والإرهابيّة من قِبل الحكومة، بل إن تلك الممارسات الحكومية لا تَزيدهم إلا إصراراً على المضيّ في مناصرة الله والدعوة ولو كلفهم ذلك أرواحهم. في الجانب الآخر برر مشهور الممارسات الإرهابيّة وفكر التكفير لدى الجماعة بأنه ثمرة طبيعية وردة فعل عكسية لشدة التعذيب التي تعرض لها أبناء التيار الإسلاميّ في السجون والمعتقلات (٢٤).

أفكار جمعة أمين عبد العزيز وطروحاته

جمعة أمين عبد العزيز أحد أهم مفكري جماعة الإخوان المسلمين والمؤرخ الرسميّ لها، ونائب المرشد العام للجماعة، وله الكثير من الأطروحات السياسيّة والعديد من المؤلفات والأفكار التي انعكست وبقوة على فكر جماعة الإخوان المسلمين. لقد دعا أمين عبد العزيز الجماعة إلى محاربة ما أسماه بالمظاهر الغربيّة، أو مظاهر الفساد التي كانت منتشرة في المجتمع المصريّ، كالبغاء والعري والسفور والخمور والميسر، وكذلك مظاهر انحراف الشباب وتفشي الفقر والبؤس والتسول والرشوة، بالإضافة إلى تدهور الحالة الصحية وغيرها، فهو مؤمن جدًّا بأن جهود الإخوان المسلمين ستنجح في محاربة هذه المفاسد.

ويرى أمين، بالرغم من أن مصر هي زعيمة العالم الإسلاميّ وفيها الأزهر الذي يمثل أكبر وأقدم جامعة تاريخيّة في العالم، لكن في الوقت نفسه فإن كرامتها وعفتها ملطخة بوصمة الفواحش والرذيلة المنتشرة فيها. وعليه يجب أن تغضب جماعة الإخوان المسلمين وتنتفض للإسلام وحماية شريعة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأن هذه المظاهر هي التي سلبت العرض، ونهبت الشرف من وجهة نظره.

وتأسيساً لذلك فقد سعت الجماعة إلى

> **يوضح أبو الفتوح أن جيلهم من التيار الإسلاميّ وخاصة الإخوان، وتحديداً ممن تأثروا بالفكر الوهابيّ، كانوا يؤمنون بجواز استخدام العنف بل وجوبه أحياناً، وذلك من أجل نشر الدعوة وتطبيق فكر الجماعة بالقوة، فالعنف بالنسبة لهم كان مبرراً بل شرعيًّا. ويقرُّ بوجود خلاف بين الجماعة وباقي الفصائل الإسلامية آنذاك، ذلك الخلاف كان في مسألّة توقيت استخدام العنف ومدى استكمال عدته.**

محاربة ما أطلقت عليه بمظاهر الفساد والانحلال في المجتمع المصريّ بكل ما أوتوا من قوة حتى كتب أحد أعضاء الجماعة إلى نائب المرشد جمعة أمين في حينها مستنكراً الأوضاع الاجتماعيّة في مصر قائلاً» نبئني في أي بلد نعيش، وفي أي قارة نسكن، أنحن في باريس بلاد الفجور والتهتك أم نحن في أمريكا بلاد التمثيل والسينما؟ أخبرني أين الشرف؟ أين الفضيلة؟ أين النخوة؟ أين الرجولة؟ أين الدين؟ أين الإسلام؟ قد ضاعت الأخلاق، وانتهكت الحرمات، وارتكبت المآثم جهاراً نهاراً تحت سمع الحكومة وبصرها في بلاد المسلمين»(٢٥). ومن هذا المنطلق لم تكتف جماعة الإخوان المسلمين في محاربة ما يُعد فساداً من وجهة نظرهم بكتابة المقالات أو إلقاء الخطب والكلمات في المساجد أو في الأندية العامة، وإنما اتبعوا مختلف الوسائل والطرق إذ

٢٤ ()المصدر نفسه السابق، ص ٨٠ص ٨١ ولاحقا

٢٥ ()عبد العزيز، جمعة أمين، أوراق من تاريخ الإخوان المسلمين: الإخوان والمجتمع المصري والدولي في الفترة من ١٩٢٨-١٩٣٨، الجزء الثالث، الناشر، الدار الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٠٩

وجّهت الجماعة نقداً لاذعاً للحكومة المصريّة على إباحة مظاهر الفساد في البلاد، متهمين الغرب بمحاولة نشر مظاهر الفساد والانحلال في مصر وفي جميع البلاد العربيّة والإسلاميّة، مؤكدين بذلك على أن خصوم الشرق قد نالوا من الشرق، وعاثوا فيه فساداً، وأذلوا أبناءه. ولهذا أعدّت جماعة الإخوان المسلمين الغرب مخادعين محتالين، استطاعوا بدهائهم أن يخدعوا الشرق عن دينه وعرضه (٢٦).

شهادة الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح

يعدّ عبد المنعم أبو الفتوح أحد أهم القيادات الطلابية الإخوانيّة في حِقبة السبعينيات من القرن الماضي، وعضواً سابقاً في مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين في مصر حتى عام ٢٠١١م. لقد بينَ أبو الفتوح في شهادته التي تخص انضمامه وعمله في جماعة الإخوان المسلمين، أنه بدأ العمل الإسلاميّ وهو في مرحلة الدراسة الجامعية مع مجموعة من شباب الجماعة، ويؤكد أنهم قد تأثروا في هذه المرحلة تحديداً بشيوخ جماعة أنصار السُنة والتيار السلفيّ الوهابيّ.

يقول أبو الفتوح « كنا نأخذ وننهل من مراجع فكرية وشرعية مختلفة بل متناقضة، لكننا انفتحنا مبكراً، وقرأنا الكتابات الثوريّة للشهيد سيد قطب والأستاذ أبي الأعلى المودوديّ التي طالما ألهبت عواطفنا ومشاعرنا، وغذتنا بروح الثورة والتمرد»(٢٧).

ويوضح أبو الفتوح أن جيلهم من التيار الإسلاميّ وخاصة جماعة الإخوان المسلمين وتحديداً ممن تأثروا بالفكر الوهابيّ، كانوا يؤمنون بجواز استخدام العنف بل وجوبه في بعض الأحيان، وذلك من أجل نشر الدعوة وتطبيق فكر الجماعة بالقوة، مبيناً أن العنف بالنسبة لهم كان مُبرراً بل شرعيًّا.

> **"باتت الأمة بحسب تعبير الإخوان بعيدة كل البعد عن حقيقة الإسلام، وأحكامه وتعاليمه، شريعة وقانوناً. وعليه يجب توحيدُ الأمة المسلمة من أقصاها إلى أقصاها لتكون كتلة واحدة في وجه معسكر الكفر والشرك والنفاق بحسب تعبيرهم، ويجب بناء الأسرة الإسلامية أفراداً وأسراً والعودة إلى حقيقة الدين الحنيف. ثم تنتقل بعد ذلك إلى البشرية كافةً لتعرض عليها الإسلام."**

ويقرُّ أبو الفتوح بوجود خلاف بين الجماعة وباقي الفصائل الإسلاميّة آنذاك، ذلك الخلاف كان في مسألة توقيت استخدام العنف ومدى استكمال عدته، لأن الفكر الذي كان مسيطراً على الجماعة في وقتها كان عدم استخدام القوة، وإنما يُعدون أنفسهم لاستخدامها حين تقوى شوكتهم ويصبحون قادرين على القضاء على النظام الحاكم في مصر.

لقد ميز أبو الفتوح في شهادته هذه بين جماعة الإخوان المسلمين في تحركاتهم وتوجهاتهم عن الجماعات الأخرى التي مارست العنف وخاصة جماعة الجهاد التي مارست العنف الإرهابيّ بتعجُّل وبدون حسابات من وجهة نظره. ويوضح أبو الفتوح أن الجماعة كانت تسعى إلى إقامة الدولة الإسلاميّة وعودة الخلافة الإسلاميّة، وهذا يتم من منطلق عقائديّ بحتٍ وليس من منطلق سياسيّ، لأنها تخضع لحسابات عقائديّة وأخلاقية إذ إن الدولة التي تحلم بها الجماعة هي دولة الشريعة التي تُقيم الحدود والعقاب. ولهذا فإن كل مؤسسات الدولة في

٢٦ ()المصدر نفسه السابق، ص١٠٧ص١٠٨ ولاحقا

٢٧ ()أبو الفتوح، عبد المنعم، شاهد على تاريخ الحركة الإسلامية في مصر ١٩٧٠-١٩٨٤، الناشر، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٠، ص٦٧

نظر الجماعة تمثل خروجاً عن روح الإسلام، ويجب أن تُزال ويقام بدلاً منها نموذج إسلاميّ باعتراف أبو الفتوح. أما كيفية السيطرة على الدولة من قِبل أبناء التيار الإسلاميّ فإنها تقوم على ذلك الفكر الانقلابيّ البسيط والساذج بحسب تعبير أبو الفتوح، وهذا الوصف جاء انعكاساً لما قام به بعض من شباب التيار الإسلاميّ وتحديداً من (تنظيم الفنية العسكريّة) وكما ذكرنا آنفاً في محاولة للاستيلاء على الحكم إبّان فترة الرئيس السادات، وقد فشلت تلك المحاولة. لكنها كانت تجربة حقيقية لإقامة الدولة الإسلاميّة، وبالرغم من أنها فشلت ولم توفق، لكن الجماعة لم ترفضها في ذلك الوقت بحسب رأيه (٢٨).

الخلاصة:

أثبتت الوقائع والأحداث أن أغلب الفصائل الإسلاميّة المتطرفة قد تأثرت بأفكار جماعة الإخوان المسلمين وأيديولوجيتها، ومن أبرز هذه الأفكار عدمُ اعتراف الجماعة بأي نظام حكم لا يرتكز على أساس الإسلام، ولا يستمد منه تشريعاته وقوانينه، إضافة إلى ذلك فهم لا يعترفون بالأحزاب السياسيّة، ولا بالأشكال التقليديّة التي هي في رأيهم قد أُرغموا عليها من قِبل أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها. ومن هنا فإنهم يسعَون وبكل قوة إلى إحياء نظام الحكم الإسلاميّ بكل مظاهره وتكوين الحكومة الإسلاميّة على أساس هذا النظام. ووَفقاً لهذه الأفكار والطروحات المتشددة فقد تولدت العَلاقة السلبية ما بين الشباب المسلم والدولة. وبالنتيجة هي حالة تنافر وعدم قبول بين الفرد المنتمي لهذه الحركات والجماعات الإسلاميّة وتحديداً جماعة الإخوان المسلمين وبين المجتمع الذي يعيش فيه. وبما أن الجماعة تُعدّ نفسها هي من تمثل الإسلام، وفي الوقت نفسه ترفض أن تضعها الدولة في أي شكل قانونيّ، إذن فهي تنتظر اللحظة التي ينتهي فيها وجود الدولة للاستيلاء عليها وتغييرها حسب رؤيتهم. وحين ننظر إلى إيديولوجية الجماعة فإنها تتجسد بأفكار محددة، مثل تحرير الوطن الإسلاميّ من كل استعمار أجنبيٍّ، وذلك حق طبيعيّ لكل إنسان لا ينكره إلا ظالم جائر أو مستبد قاهر، وإقامة دولة الإسلام، وبالتالي فإن هذه الأفكار تصلح لتفسير كل أنواع الاشتباك مع المحيط الوطنيّ والمحيط الإقليميّ والدوليّ. ومن أهداف الجماعة أيضاً فكرة استعادة الخلافة، ثم استعادة الأراضي التي أخذت من المسلمين، ولكن الفجوة بين جماعة الإخوان المسلمين وهذه الأهداف واسعة جدًّا وبكل المقاييس، فتحرير الوطن الإسلاميّ يعني خروج المستعمر منه، والحصول على الاستقلال القانونيّ أمر متوقع حينها، وليس بجهد الإخوان ولكن بكفاح الشعوب وحركات التحرر المنتشرة في ذلك الوقت.

ووَفقاً لما تقدم فإن عقيدة الإسلام في رأي مفكري الجماعة ومنظريها عقيدة انقلابية شاملة لا ترضى أن تعيش على الهامش، بل من شأنها أن تسود الحياة كلها، وتصبغ وجه المجتمع كله بصبغة الإيمان وصبغة الله. ومن هنا طالبت جماعة الإخوان المسلمين الحكوماتِ المصريّة المتعاقبة بضرورة تطبيق الشريعة الإسلاميّة وإلغاء كل القوانين الغربيّة وخاصة الفرنسيّة التي انتشرت في أكثر الدول العربيّة وفي مقدمتها مصر وتحديداً في الفترة الأولى من عمر الجماعة وبدايات تأسيسها. وكذلك القضاء على التقاليد الغربيّة التي أصبحت تحكم مجتمعات المسلمين وخاصة الطبقات العليا فيه. لقد جاء رفض الجماعة للقوانين الغربيّة والمطالبة بإلغائها انعكاساً لأفكار مؤسس الجماعة حسن البنا الذي كان مؤمناً بفكرته المتشددة التي تُعدّ أن الحياة الغربيّة استطاعت أن تهدم أهم أركان الحياة الإسلاميّة، وهي الحكومة، والأمة، والأسرة، والفرد، وأنه لا وجود لقيم الله في مصر، بمعنى أن الدولة المصريّة في وادٍ وحكم الله في وادٍ آخر.

٢٨ ()المصدر نفسه السابق، ص٦٧ص٦٨ ولاحقا

دول الشرق رهينة الجيوش غير النظامية

«المليشيات» أهم أدوات القوى الإقليمية لتفتيت المنطقة

ولاء أبو ستيت

مفتتح

كعادته القديمة الممتدة عبر العقود والقرون يعيش الشرق التليد إرهاصات تشكّل جديدة لا أحد يعرف ما الذي ستؤول إليه رغم كافة المحاولات والمخططات والاستراتيجيات الرامية للهيمنة بصورة مباشرة من دول إقليمية أو غير مباشرة عبر سياسة الوكلاء من الدول وحتى الجماعات والمليشيات التي تُقاد من أجل تحقيق هذا الهدف.. وتبقى المُعادلة رهينة فهْمِ الجميع ملامح تلك المؤامرة الكبرى التي لا تريد للمنطقة أن تفيق من أزماتها وصراعاتها الممتدة، لكن في خضم كلّ ذلك فإن المخطط الأهم هو إحلال المليشيات محل الجيوش النظامية لتفتيت الدول والقضاء على هوياتها الثابتة أو المتعددة ويبقى السؤال الأبرز في ذلك: هل ننجو من هذا المخطط ونعي ملامحه فعلًا أو أننا نسير إليه بقوة لندخل درك أسفل من هاوية نهبط فيه بسرعة قياسية!

مقدمة

ستظل صيغة «المليشيات» أعقد ما يُهدد المنطقة خلال الفترة القادمة، فهي الصيغة التي لن تؤدي بالدول إلى ملمح الاستقرار المنشود، والذي يعد من أعقد وأهم مؤشرات الديمقراطية الكثيرة والمتداخلة، ويبدو أن مقولة الرئيس المصري الراحل أنور السادات الشهيرة «آخر الحروب»، التي قصد بها حرب أكتوبر ١٩٧٣، كانت إرهاصة ذات أبعاد كثيرة ومتشابكة، فبالرغم من أنه كان يقصد وقتها آخر الحروب لمصر لكن الواضح فعلًا أنها كانت آخر حروب المنطقة بالشكل المعهود، حروب الجيوش (النظامية)، ولتبدأ مراحل مختلفة من الحروب التي تُعلن عن مسارات مختلفة من حروب العصابات، المليشيات، وحتى الجيوش غير النظامية التي تشكلت على حين غرة إمّا لدفاع فعلي، أو لتكون أدوات، والهدف منها كبير وكأنهم يجرّون المنطقة نحو حرب طوائف ومليشيات وجماعات راديكالية وأثنية لأغراض متسارعة.

لكن الأزمة أن كل هذا يخرج له مستفيد يسعى لجمع الأرباح والمكاسب من المنطقة، وإحداث مناطق نفوذ يُفاوض بها الغرب الذي فقد بوصلته في المنطقة، بعد أن أدخلها في أزمتها عبر تبنيه، بل وبناؤه أغلب تلك الجماعات المليشياوية التي شبت عن طوقه، وبدأت تُهدّده وتهدّد أمنه، وسلمه حتى في عقر داره.

الحالة في سوريا التي تتصارع فيها قوى إقليمية ودولية تُنمّ عن ذلك بوضوح.. تركيا في احتلالها الأرض في الشمال السوري خلقت مليشيات تُحركهم حتى اللحظة وفق الهوى، بل وباتت تنقلهم بسهولة من دولة إلى أخرى لتنفيذ أهدافها، ولتخرج يتيمة رغم غرابتها بدايةً، لكنها أصبحت جزء من الثقافة السمعية الجماعية، وهي «المرتزقة السوريون» ستجد هؤلاء الذين صنعتهم تركيا في ليبيا وقت الحاجة إليهم، يتواجدون على الأرض ويعملون مع المليشيات الليبية على الأرض أيضًا من أجل أن تبقى ليبيا في أزمتها، ولا تخرج منها بأي حال من الأحوال، ستُحركهم تركيا إلى ناجورنو كارباخ، ليكونوا أدوات أيضا لتغيير المعادلة لصالح أذربيجان ومن ثم ترجيح الكفّة التركية هناك، بما يجعلها تتحدّث إلى الغرب من منطق قوة رغم زيفه، ورغم حالة الهشاشة الواضحة لتركيا على أصعد مختلفة ومؤثرة، ولن تتوقف بالتأكيد تركيا عن استخدامهم في كل ملف أزمة جديدة تفتحها في المنطقة.

بالمقابل ستجد أيضًا مساعي إيران التي جاءت سابقة على تركيا من أجل تغيير ملامح المنطقة وتفعيل مليشيات يأخذ بعضها الطابع النظامي أو شبه النظامي من أجل السيطرة الكاملة على دول واتّخاذها ركيزة لتهديد أخرى، كحالة جماعة الحوثيّ في اليمن، وتهديدها دول مجلس التعاون الخليجي وفي القلب منه المملكة العربية السعودية.

من هنا تبدو ملامح المشهد بأن المنطقة فيها قوتان ساعيتان نحو الهيمنة والسيطرة وفق استراتيجيات مختلفة، رغم اتفاقهما على الهدف، بل وتعاونهما على تقاسم نقاط النفوذ في الوقت الراهن في ملفات عدة لتحقيق أهداف مرحلية في مسيرة استراتيجيّة الدولتين تجاه المنطقة، وهو ما يستدعي تكاتفاً حقيقيًا للمواجهة وترتيب الأولويات.

وفي السياق تحاول الباحثة في هذه الورقة أن تقدم تتبعًا مرحليًا لتلك الحالة التي أوصلت دول الشرق إلى تلك المرحلة حتى باتت رهينة لجيوش غير نظامية أو بالأحرى مليشياوية واضحة الأهداف والتي في الأساس منها هو القضاء على الجيوش النظامية في المنطقة وشيطنتها بكافة السبل وهي المُعادلة التي تغيرت وساعدهم فيها حالة السيولة والانكسار في مشهد الاستقرار الشكلي الذي عاشته المنطقة قبل حِراك الثورات التي اندلعت شرارتها الأولى من تونس وتحرّكت الشعوب بروح بريئة، رافضة القمع الذي صمتوا عليه عقوداً، غير آبهين أو باحثين في محددات مؤامرة أو غيرها ليكون التحليل المُتبع في حالة المنطقة في الفترة من ٢٠١١ وحتى الآن.

بداية التأصيل الجديد للحالة المليشياوية في المنطقة

شهد الوطن العربي مع نهاية ٢٠١٠ وبداية ٢٠١١ تحولات جذرية اتخذت طابعًا شعبيًا، وحركات تمرد ثورية بفعل الأوضاع التي عايشتها الشعوب، التي تم تهميشها إضافة إلى المطلب الاقتصادي والذي كان طابعًا عامًا لدى الدول التي ضربتها رياح التغيير، فيما عدا ليبيا التي لم يكن لدى شعبها أزمات اقتصادية، لكنهم في الوقت نفسه اعتبروا أن مقدرات البلاد الاقتصادية تصل إلى شخص واحد وأسرته وهو «القذافي» فكان ذلك مدعاه لتحركهم الذي كان أول غيث المليشاوية الآسن الذي سيمتد في المنطقة لتيخذ طابعًا يتماشى مع حالة كل دولة ويتعايش على أزمتها.

من ليبيا ظهرت أوائل تشكل المليشيات التي كانت وقتها ذات طابع وطني «ليبي» دون أي تدخّلات من مليشيات من خارج الحدود والجغرافيا الليبية، لكن تعدّدت المسمّيات لمليشيات تتبع دولاً وقوى إقليمية تسعى لفرض نفوذها بالقوة، وإن كانت المؤشرات وقتها لم تتصاعد بهذا الشكل بفعل تأثير ونفوذ الإخوان القوي في المنطقة، ومن هنا بدأت ملامح استغلال الشباب الليبي لحثّه على حمل السلاح باعتباره مطلبٌ وطنيٌّ بل إلهي لبناء ليبيا الجديدة، وساعد في ذلك حالة الحرب التي أعلنها القذافي على الشعب الليبي الذي انتفض ضدّه فجأة، ودون سابق حسابات منه، ومن كتائبه أيضًا التي تتحمل جزءاً كبيراً من الحالة التي أدّت بأول خطيئة عربية (الجامعة العربية) وهي المتعلقة بالناتو، ومطالبته فرض حظر جوّي، والتدخل في ليبيا.

"من ليبيا ظهرت أوائل تشكل المليشيات التي كانت وقتها ذات طابع وطني "ليبي" دون أي تدخّلات من مليشيات من خارج الحدود والجغرافيا الليبية، لكن تعدّدت المسمّيات لمليشيات تتبع دولاً وقوى إقليمية تسعى لفرض نفوذها بالقوة، وإن كانت المؤشرات وقتها لم تتصاعد بهذا الشكل بفعل تأثير ونفوذ الإخوان القوي في المنطقة، ومن هنا بدأت ملامح استغلال الشباب الليبي لحثّه على حمل السلاح".

«إيران» ووضع أولى لبنات الجيوش الموازية

في تلك الأثناء كانت إيران التي أصلت للحال المليشياوية منذ صعود الخميني إلى سدة الحكم، تتابع المشهد وتترقب تدخلا يُسهم في سيادة فكرها، حتى أن خامِنئ صعد إلى منبر الجمعة لتقديم خطبته الشهيرة بالعربية، ويقول: - إنّ تلك الثورات هي بنات أفكار الثورة الإيرانية ١٩٧٩. وبالطبع لا ننسى أن الثورة الإيرانية كانت أول من قننت فكرة الجيوش غير النظامية بعد الثورة عبر إقرارها الحرس الثوري (حراس الثورة الإسلامية) الذي رافق تأسيسه ميلاد الدولة الخومينية، وكانت أهدافه كثيرة ومتشعبة، لكن الهدف الأساس هو حماية الثورة عبر هذا الجيش الموازي لمواجهة جيش الطاووس الذي لم يكن الخميني يثق في أنّه سيعمل لصالحه، وبالتالي جاءت فكرة الحرس الثوري متوافقةً مع الحالة، لِتبدأ المنطقة منذ هذا الوقت ملامح تشكّل جديدة لتيارات مليشياوية ستغرّد خارج سرب إيران من أجل هدف غريب وهو «حماية المستضعفين»، والحقيقة هو مسعى جديد من أجل إعادة حلم فارس الكبرى، لكن بمُحدّدات عصرية ساعد في تحولها وانتشارها الحرب العراقية الإيرانية التي نال فيها الحرس الثوري وحده مكاسب سياسية وشعبية دفعته للمضي قُدُمًا داخل إيران وخارجها، ومنها كانت أولى الإرهاصات مع

حزب الله الذي أصبح رقمًا مهما في المعادلة بعد حرب ٢٠٠٦، إلى أن صار جيشًا موازيًا في لبنان الذي تحكمه الطائفية ثم أصبح قوة أكبر من قوة الجيش اللبناني بل ومُحرّكة لسياسات البلاد، ومُسيطرًا على الحالة التي فيها بملامح متعدّدة، ولتبدأ صيغة توسيع تجربة حزب الله في المنطقة، بل لتصبح عناصره أدوات في يد إيران والحرس الثوري من أجل تدريب مليشيات ذات بعد عقائدي في انتظار الفرصة السانحة.

إيران التي استغلت كلّ المشهد لصالحها برؤى تنظيرية بعد أحداث المنطقة في ٢٠١١، بدأت التواصل مع تنظيمات وجماعات راديكالية في المنطقة حتى لو اختلف البعد العقائدي فيها من أجل تمرير الحلم والغرض، ليخرج في مصر أحد المحسوبين على جماعة الإخوان وبعد حالة السيولة التي أصابت الدولة المصرية – إذا استثنينا من ذلك القوات المسلحة المصرية- للقول بأنّ الجماعة بصدد تأسيس حرس ثوري مصري، وكان ذلك في ٢٠١١، الأمر بالتأكيد الذي لم يكن للجيش المصري القبول به، وهو الجيش الوحيد القويّ الباقي في المنطقة، إذا ما جنّبنا أيضا حالة الجزائر التي كان وقتها جيشها وفق الدستور لا يمكن التحرّك خارج حدوده على الإطلاق قبل التعديلات الدستورية الأخيرة التي تحايلت على تلك الفقرة، وهو الأمر الذي لو كان تحقق لكانت المعادلة تعيش حالة جديدة من التأزّم، وربما لاحقاً نتطرق لفكرة استهداف الجيوش الوطنية إذا سنحت الفرصة والتي هي حالة غربية طرحها الغرب في إطار ملفت.

فالتحديث الذي سعت لفرضها على دولنا ليست في الشرق فحسب بل في العالم الثالث الذي يدّعيه منظرو العالم الأوّل الغربي الساعي إلى فرض كلّ أفكاره علينا فرضًا، وبمحدّدات عصرية تبدو ملامح بريق زائف لها.

عودة إلى إيران وسياساتها نحو صناعة الجيوش الموازية، والتي بدأت مع القول بأن الثورات هي استكمال فكرة الثورة الإيرانية في ١٩٧٩، وصولًا إلى محاولات التحرّك في السياق لاستغلال المشهد سواء في البحرين، وصولاً إلى السعودية، ومحاولة تأليب الشيعة في المنطقة الشرقية، وبالمقابل فرض مزيد من سياسات السيطرة على العراق الذي باتت إيران منذ الغزو الأمريكي له تعتبره محافظة إيرانية عبر هيمنتها على صانعي القرار السياسي هناك، بل وأغلقت الباب للحوار مع دول مجلس التعاون الذي كان قد بدأ يأخذ أشكالا مختلفة في السنوات الخمس السابقة للحراك العربي الذي انطلق من تونس. ثم تأكيدها على شيطنة أي حراك يحدث في سوريا، واعتبار ما يجري فيها مؤامرة، رغم أنّ محددات الحالة متشابهة في المُجمَل، لتحوّل المسألة في سوريا وتحارب نيابة عن الأسد، وتكون هي اليد التي منعته فعليّاً من السقوط في مواجهة كافة التداعيات التي حصلت منذ انطلاق الشرارة الأولى في درعا، وتستمر المسألة حتى تتحدّث إيران عن تأسيس قوات باسيج سوري على غرار الباسيج الإيرانية التابعة لقوات الحرس الثوري، بصيغة أيضا تتعارض حتى مع حالة وفكر نظام الأسد الذي كان يعتبر أن ما غير الجيش قوات إرهابية، فلم نجد أي موقف أو ردّ على هذا الإعلان الذي تم في ٢٠١٥ في ذروة تبدّل المشهد في سوريا، ولتعبّر إيران بذلك عن نصر عسكري بملامح جديدة مختلفة في سوريا.

وما لا شك فيه أن الدور الإيراني في المنطقة بدأ يتعاظم، فالإمبراطورية ذات الأطماع التاريخية، بدأت باستكمال سعيها نحو تقنين مليشيات طائفية تعمل بنفس مسار قوات «الحرس الثوري»، بل وترتبط به بولاءات طائفية، ومذهبية، من أجل فرض سيطرتها على المنطقة.

وبدأت هذه التحركات مبكرًا من لبنان، عبر دعمها حليفها الأبرز (حزب الله)، مرورًا بالعراق، والذي أصبح ساحة خصبة لها، منذ دخول القوات الأمريكية إليه في ٢٠٠٣، وكذلك في اليمن عبر الحوثيين، الذين يلقبون أنفسهم بـ"أنصار الله"، وأخيرا سوريا، التي تخوض فيها إيران حرب بقاء إلى جوار حليفها بشار الأسد؛ لتعلن قبل أسبوعين عن تشكيل حشد شعبي "باسيج" في سوريا.

وتدين هذه المليشيات الطائفية بالولاء في المقام الأول إلى إيران، التي كان لها الدور الأهم في وجودها وتدعيم ركائزها؛ ما يستدعي ضرورة الوقوف لدراسة تبعات هذه السيطرة الإيرانية من جانب، وكذلك المخاطر التي قد تشكلها هذه القوات من الجانب الآخر.

ومن سوريا وفي نفس التوقيت تكون إيران قد أحكمت سيطرتها على الحديقة الخلفية للمملكة السعودية (اليمن) عبر سيطرة مليشيا الحوثي التي قضت إيران إلى تدريبها ووضعها على أهبة الاستعداد في انتظار اللحظة الفارقة التي قد تكون لحظة غفلة للآخرين لا تخلو من تقية واضحة فتكون التجربة أيضاً بجيش موازٍ مليشياوي يسيطر عنوة على العاصمة ويُدخل اليمن في أزمته الراهنة.

بالمقابل يظهر الحشد الشعبي بدعوة السيستاني لمواجهة داعش ولتتلقّف إيران الدعوة ويبدأ الحرس الثوري وخاصة فيلق القدس تجربة جديدة في العراق التي تُسيطر إيران على مقاليد الأمور فيها، بمشهد واضح لتجمع مليشياتها التي حرّكها في العراق ضمن كيان واحد سرعان ما تعطيه الدولة صفة الرسمية، ليكوّن جيشاً موازياً مليشياوياً، وليتحرك السليماني داخل العراق، وكأنها محافظة إيرانية، وهو ما كشفه مقتله هو والمهندس على يد الولايات المتحدة.

تركيا وتأصيل سياسة المليشيات

رغم أنّ سياسة تحريك تركيا للمليشيات في المنطقة لتكون أداة فاعلة من أدواتها لتنفيذ استراتيجيتها تجاه المنطقة مدفوعة في ذلك بمشاهد تؤكد مساعيها للاستفادة من التجربة الإيرانية في تحريك المليشيات، إلّا أنّ القصة ربما قديمة في تركيا التي لديها من الجماعات والتنظيمات ما يُشير إلى هذا الملح لخدمة الأهداف التركية الشوفينية التي تتّحد بين آن وآخر عن تفوّق العرق التركي غير مدفوعة بحقائق على الأرض سوى الدولة العثمانية الدموية التي استمرّت كل هذا الوقت مستندة إلى سياسة

"لدى تركيا جماعات وتنظيمات لخدمة الأهداف التركية الشوفينية التي تتحد بين آن وآخر مع تفوق العرق التركي غير المدفوعّة بحقائق على الأرض سوى الدولة العثمانية الدموية التي استمرت كل هذا الوقت مستندة إلّى سّياسة الدم والقتل من أجل البقاء، فحتى الأخ يقتل سائر إخوته من أجل البقاء بفتوى لا تعرف أي دين يمكن أن يبررها."

الدم والقتل من أجل البقاء، فحتى الأخ يقتل سائر إخوته من أجل البقاء بفتوى لا تعرف أي دين يمكن أن يبرّرها، سماويٌّ كان أو وضعي أو بوذي أو غيره. وربما تستدعي المشاهد الحالية بالحديث إلى الذئاب الرمادية تلك الحالة المليشياوية التي ضجت منها أوروبا وتبرأ منها النظام التركي رغم أنها كانت أداة أردوغان وسلاحه الفتاك الذي يوجهه كيفما شاء خاصة في الساحة الأوروبية وبالأخص ضد الكرد هناك، وليس أوقع لكشف ذلك من مخالف أردوغان بهجلي.

سياسة المؤامرات العظمى التي اشتهرت بها الدولة العثمانية التي أرست أقوى أجهزة المخابرات في عصرها أيّما كانت التسمية؛ عسسٍ أو غيره لجأت قديماً إلى مواجهة أي حراكات شعبية من الداخل عبر عمليات قتل واستهداف ممتدة على طول التاريخ وصولًا إلى الأرمن وإبادتهم، هي نفسها السياسة الجديدة والنهج الجديد لأردوغان وأتباعه من الحالمين بالعثمانية الجديدة والذين بدؤوا في التنظير لها من فترة ما قبل

ثورات الربيع مرتكزين في ذلك على مشتركات الثقافة والتاريخ حتى بدأ التحول السياسي في المنطقة وبدأت تركيا في الارتكان ليس لدعم المليشيات كما جرى مع بدايات الثورات بتحريك جماعة الإخوان وأتباعهم، وتصدير أردوغان نفسه بأنه خليفتهم وربما قائدهم، وبالمقابل تشدق الإخوان في دولهم بتجربة صفر مشاكل التي أحدثها أردوغان وحزب العدالة والتنمية، رغم زيف الاستدلال في جوانب عدة.

لكن بدأ التحوّل بسياقات مختلفة، بداية من استغلال المشهد السوري، وتقديم دعم مفتوح للتيارات المعارضة بداية من المجلس الوطني ثم الائتلاف السوري الذي كان ولا يزال يتخذ من تركيا مقرًا. وبالطبع كانت الأمور تسير وفق دلالة اتفاق إخوانية المشهد والهدف، وبرز التحالف التركي القطري بملامحه المختلفة حتى وصل الأمر بقطر ومن ورائها تركيا إلى إجلاس ممثل الائتلاف السوري (الشيخ معاذ الخطيب وقتها) على مقعد سوريا المجُمد خلال قمة الدوحة في مارس ٢٠١٣. وبدأت الأصوات النشاز في المنطقة كلها تُنظر للحالة التركية وتُعيد إلى المسامع بقوة الحديث عن العثمانية وأنها كانت خلافة راشدة..!! حتى غيّر المصريون المعادلة في ٣٠ يونيو ٢٠١٣ وأخرجوا الإخوان عن المشهد، ليبدأ أردوغان الذي تصور أنه سيطر على مصر والإقليم بوجود الإخوان على رأس السلطة في مصر، إعلان حربه غير الشريفة على مصر والتي مارس فيها كل الأساليب والتي كان من أبرزها الدعم الذي قدمه بغطاء مادي قوي من الدوحة بهدف تغيير المعادلة في مصر التي كان جيشها هو الصخرة التي تحطمت عليها كلّ أطماعه وآماله هو وغيره، ومن هنا بدأت تحركات جماعات الإرهاب ومؤامراتهم وسياسات التخريب والتفجير التي استهدفت حتى المساجد ومن قبلها الكنائس وكان من الواضح أن كل من يُحرك ذلك هو أردوغان الذي فتح الباب لقادة التنظيم وكل الهاربين والمستهدفين لمصر، بل ومن تركيا وقبلها قطر خرجت عشرات القنوات والصحف والمنصات الإلكترونية التي تستهدف مصر بملمح مليشياوي واضح، برز بعدها هذا الانطلاق الداعشي الذي اعتقد أنّه محاولة ممن يريدون تفجير المنطقة برمّتها للالتفاف حول ما حدث وحول الحلم الذي قضت عليه مصر بثورة شعبها في ٢٠١٣ والتي رافقها تفهم من قيادة الجيش الذي يرتكز على تاريخ طويل من الوطنية يمتد إلى ما قبل التاريخ ولا ينفصل عنه.

ومع غياب الإخوان عن حكم مصر وتواريهم عن المشهد بدأت تركيا في تغيير مسارات تنفيذ استراتيجيتها التي كان داعش أحد أدواتها بدليل فتحها الباب له ولعناصره للولوج إلى سوريا وحتى العراق عبر أراضيه بل ووصل الأمر إلى علاج عناصره هناك، وخلال فترة المواجهة مع داعش والتي برز فيها دور ووجود قوات سوريا الديمقراطية، والتي لا يمكن لتركيا أن تغفل عن هذه القوة الوليدة هي من بنات أفكار القائد الكردي عبد الله أوجلان الذي رغم سياسات تغييبه بالسجن ٢٣ عام في جزيرة إيمرلي المعزولة، وفرض العزلة عليه من أجل عدم إصال رؤاه أو أفكاره.

الأمر بالنسبة لتركيا لا يتوقف عند حد أن الإدارة الذاتية في شمال وشرق سوريا انطلقت من أرضية صلبة ثابتة وواجهت أعتى تنظيمات الإرهاب بل وشكلت أول انتصار فعلي عليه على الأرض. وإنما المسألة أن الكرد الذين تسعى الدولة التركية منذ تأسيسها على يد أتاتورك إلى تغييبهم وإبادة فكرهم والتضييق عليهم بصور مختلفة هم نفسهم الذين استطاعوا على هذه الأرض التي شهدت ملامح لانتشار فكر أوجلان في تسعينيات القرن الماضي بدأت تجني ثمار الأشجار المترامية التي زرعها أوجلان هناك بهدوء وثقة. ومن هنا كان التحول نحو تأصيل حالة الجماعات المليشياوية في المنطقة والتي لن توقفها تركيا في القريب بل وبدأت ومن أجل أن المسألة فيها كردًا تتخذ سياسات عديدة منها ضرب الكرد بالكرد تارة، فتح الباب لمليشيات أخرى، ثم في ٢٠١٨ وبعد أن استحالت المواجهة المليشياوية بدأت حربها على عفرين ثم وسّعت الدائرة بين آن وآخر، ووضعت جماعات وتنظيمات ومليشيات لإحلالهم محل أهل المنطقة الأصليين في تغيير ديموغرافي واضح المعالم على مستوى

الحجر والبشر والهدف في ذلك هو محاصرة الإدارة الذاتية التي حافظت شئنا أم أبينا على هذه المنطقة وتلك الجغرافيا التي كان يُراد لها أن تترك بيد إرهابيين، لتكون بؤرة مستقبلية من بؤر الصراع والحرب الطائفية التي يسعون للتحضير لها، بين سنّي وشيعي، ليأتي الكرد ويشكلوا حائط فصل وصد لإفشال تلك المحاولة في هذه المنطقة أيضاً، ولِتواصل تركيا سياسات بناء مليشيات مختلفة من جنسيات مختلفة لاستخدامهم وفق ما تريد تركيا في أي جغرافيا، وذلك كما أشرنا سلفا في ليبيا وأذربيجان وربما تظهر ساحات جديدة تستغل الأمور فيها.

وأخيرا: فقد أصبح من الواضح أن المنطقة فيها قوى إقليمية وحتى دولية تريد لها أن تكون منزوعة التأثير والقوات، وبالتالي يكون ذلك فقط عبر مواجهة الجيوش والسعي نحو كسرها وبالمقابل إحلال جيوش موازية للجيوش الوطنية النظامية في شكل مليشياوي ربما يُعطى طابع الرسمية من قبل بعض الدول وهنا تكون الأزمة.

وهذه الرؤية والتفكير ليس حديثاً وإنما يتم العمل من أجل إقراره منذ تحررت الدول في الإقليم من الاستعمار وأرست الدول دعائم جيوش وطنية كانت هي حائط الصد في أوقات كثيرة ومتعددة لكثير من مخططات تغيير المنطقة التي تشكلت للأسف بخرائط الاستعمار القديم (سايكس وبيكو)، لتبدأ مسارات الحديث عن حالة الجيوش الوطنية وتحييدها والحديث عن مسألة التدخل العسكري في السياسة وأنّ النخب العسكرية لابد أن تتوارى عن مشهد السلطة بإطلاق تعميمات واسعة ودون الاعتراف بخصوصية كل حالة، وخاصة بعض دول المنطقة التي بنت فيها النخب العسكرية مسيرتها ليست السياسية فحسب لكن الاقتصادية والثقافية في أوقات وتجارب واضحة في المنطقة.

من هنا يمكن القول: إنّ الحالة التي وصل إليها العالم الثالث، الذي كان يغط في الاستعمار بمختلف صوره أدت إلى صعود القوة المجتمعية الأكثر ثقلاً في مواجهة الوضع الخاص بالاستعمار وغيره مع الأحدث.

وشهدت دول العالم الثالث في خمسينيات القرن الماضي توجها عسكرياً متنامياً مع حركة الضباط الأحرار، التي ما لبثت إلا أن ألهمت قطاعاً كبيراً من دول العالم الثالث التي استلهمت فكر الثورة المصرية (تسمية بعدية) وسارت على خطاها.

من باب التذكير وحتى لا ننسى السبب في قيام هذه الحركة العسكرية التي قُدِّر لها النجاح بصورة غير متصورة، فقد كان ما جرى من فضيحة في حرب ١٩٤٨، والتي بسببها ضاعت رقعة عزيزة من الأرض العربية لا نزال نسعى لاستعادتها أو بالأحرى استعادة جزء يسير منها لإعلان دولة فلسطين التي قضت هذه الحرب على وجودها.

والحقيقة أن علاقة ما هو عسكري بما هو سياسي تتباين بتباين الفترات والمحددات التي تحكم كل فترة. بل إنّ العجيب أن الأصل في المنطقة لحاكمية القادة العسكريين، وبروز نفوذهم في أروقة الحكم.. محمد علي باني الأسرة العلوية في مصر على سبيل المثال هو جندي كردي بالرواية الكردية قدم مصر ضمن قوات الدولة العثمانية واستطاع الانفراد بالحكم ليشكل حالة حكم امتدت عقوداً طويلة، تحديدًا من ١٨٠٥ عندما خلص مصر من المماليك، وحتى ١٩٥٢ حركة الضباط الأحرار، وحتى وصولًا إلى ٢٠١٣ وثورتها ثم انتخاب الرئيس المصري الحالي عبد الفتاح السيسي بعد الفترة الانتقالية وليس خافيًا ملامح الثورة التي يقودها في مصر في مختلف المجالات، والتي وصلت إلى أنه أقام عاصمة جديدة في وقت قياسي، أعلن عن مشاريع وطنية كبرى وعملاقة بداية من توسعة قناة السويس ما يطلق قناة السويس الجديدة.

والحقيقي أن هذه المنطقة فريدة بتجربتها وبحالتها فمن يعي حالة الفرادة والاختلاف فيها يمكنه مواجبة الأحداث أو أنه سيخرج عن الدائرة لتبقى المنطقة تواصل حالة المخاض الصعب الذي لا ينته.

القوى الناعمة ودورها في السياسية الدولية

أحمد شيخو

ما المقصود بالقوى الناعمة (Power Soft) **ولماذا ظهرت؟**

كيف تمكّنت أدوات القوى الناعمة من تحقيق استراتيجيات لإحداث تغيرات بنيوية وهامة في الدول والمجتمعات والشعوب المستهدفة، وماهي الأثار المترتبة للقوة الناعمة في إطار العمل الاستراتيجي المنظّم لتحقيق أهداف السياسة الدولية؟

لكن ورغم مغريات الشعارات وجاذبية أدوات القوى الناعمة، فإن نتائجها لا تقل خطورة عن النتائج المترتبة على استخدام القوة العسكرية وأدوات الضغط الاقتصادية أو القوى الصلبة، كيف يمكن العمل على زيادة الوعي الوطني والمجتمعي في كيفية التعامل مع موجات الأدوات الناعمة بمختلف توصيفاتها الثقافية والإعلامية والسياسية والفكرية؟ وهل يمكن الاستفادة منها لتحقيق التحوّل الديمقراطي، وإيجاد تركيبات مجتمعية ديمقراطية جديدة أو إحداث تغيرات بنيوية للانتقال من الدولة الإقصائية إلى الدولة الجامعة لكلّ المكونات؟

وقد حرّفت الدول مفاهيم القوى الناعمة، وتعريفاتها كما حرّفت سابقاً الكثير من المصطلحات كالديمقراطيّة والحرّيّة والاقتصاد والإدارة وغيرها من التعريفات الأخرى، فقد صارت القوّة الناعمة عند بعض الدول مرادفاً للحرب الخاصّة، أو حرب للسيطرة على العالم، كما تروّج الولايات المتّحدة مفاهيم الحياة الجديدة المختلفة عن العالم في الولايات المتحدة التي تريد أن تفرضها كنمط في الحياة، أو دعايات أنّ الدولة الفلانيّة رمز السعادة في العالم...

لكن السؤال المطروح هل صحيح أنه عندما يكون هناك عدم فعالية للقوى غير الناعمة يتم اللجوء للقوى الناعمة، وهل هي هيمنة وتسلط بأدوات جديدة على المنطقة وبشعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان والليبرالية؟ هل هناك تبديل في السياسات الدولية تجاه المنطقة حيث أنّ الانسحاب أو سحب القوى العسكرية من المنطقة كما يقول البعض سيكون بديلها القوى الناعمة ولنفس الأهداف السابقة وبأقل التكاليف والانتقادات؟

هل يتم القبول بالقوى الناعمة في المنطقة، وبين شعوبها ومجتمعاتها وقواها، رغم أن تأثيراتها يمكن أن تكون أكثر خطورة من القوى الصلبة؟ هل يمكننا الاعتماد على القوى الناعمة فقط في معالجة الإرهاب؟ ولماذا ظهر مفهوم القوى الذكية الذي جمع القوى الناعمة والصلبة معاً في السياسة الدولية؟

القوة الناعمة: (Soft power)

يقول جوزيف ناي أستاذ العلاقات السياسية في القوّة الناعمة: إنّها القدرة على التأثير في الأهداف المطلوبة، وتغيير سلوك الآخرين عند الضرورة، أمّا اقتران القوة بصفة (الناعمة)، فإنها تؤثر في القدرة على الحصول على ما تريد من خلال الإقناع والجذب وليس الإكراه، واستبعد من تعريفه العقوبات الاقتصادية والسياسية إضافة للعسكرية، وعرّفها بأنها تلك القوة التي تؤكد استخدام الوسائل الحضارية والاقتصادية والدعائية.

ومن الناحية الإجرائية يمكن تعريف القوة الناعمة بأنها: القدرة على التأثير وجذب الآخرين بالإقناع وليس بالإكراه إلى المسار الذي يخدم مصالح الدولة أو طرف ما وكياناتهم باستخدام وسائل لا تصل إلى توظيف أدوات القوة الصلبة.

وبمعنى أخر القوة الناعمة هي «القدرة على الحصول على ما تريد من خلال الإقناع وليس الإكراه"، وتتمثل أدواتها في القيم السياسية والثقافية والفكرية والقدرات الإعلامية، والتبادل العلمي والفكري والفني، والقدرة على التفاعل ومدّ الجسور وإقامة الروابط والتحالفات والعلاقات، أما القوة الصلبة فهي تقوم على الإجبار والقسر، وأدواتها هي الإمكانيات العسكرية والقدرة على فرض العقوبات الاقتصادية والسياسية.

وهكذا نستطيع القول: إنّ القوة الناعمة هي في جوهرها قدرة أمة أو شعب أو مجتمع معين على التأثير في أمم أخرى وتوجيه خياراتها العامة، وذلك استناداً إلى جاذبية نظامها الاجتماعي والثقافي ومنظومة قيمها ومؤسساتها، بدل الاعتماد على الإكراه أو التهديد، وهذه الجاذبية والطاقة الإيجابية يمكن نشرها بطرق شتى:

1- الثقافة الشعبية والموروث الأخلاقي الشعبي.

2- الدبلوماسية الخاصة والعامة والمجتمعية والثقافية بمختلف تفرّعاتها.

3- المنظمات والمؤسسات الدولية، ومجمل الشركات والمؤسسات التجارية والصحية والإعلامية والأمنية العاملة.

4- أطر التبادلية الفكرية والفنية والعلمية.

ويمكننا محاولة حصر القوة الناعمة لأي دولة أو شعب في المشهد التفاعلي، والمسرح العالمي في ثلاثة عناصر أساسية:

1- الثقافة العامة وما إذا كانت جاذبة أم منفّرة للآخرين بعد محاولة وضعها في الإطار المناسب.

2- القيم الأخلاقية والسياسية، أي الديمقراطية ومدى جدية الالتزام بها سواء في الداخل أم في الخارج سلماً أم حرباً.

3- السياسة الخارجية المنهَجة ودرجة الوسائل والأدوات والتفاعل التي تعتمدها القوة الناعمة في تحقيق أهداف السياسة الخارجية ومشروعيتها وقبولها الطوعي من طرف دول العالم وشعوبها، بما يعزز مكانة الدولة أو الشعب أو المجتمع أو المؤسسة المعنية.

وهنا نستطيع القول إن القوة الناعمة هي «القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً من الإرغام، وهي القدرة على التأثير في سلوك الآخرين للحصول على النتائج والأهداف المتوخّاة، بدون الاضطرار إلى الاستعمال المفرط للعوامل والوسائل العسكرية والصلبة. وهذا ما حصل مع الاتحاد السوفيتي، حيث تم تقويضه من الداخل، لأن القوة لا تصلح إلا في السياق الذي تعمل فيه، كما أن القوة الناعمة هي القدرة على الجذب والاستقطاب اللذين يؤديان إلى التراضي، ويمكن أن تجعل الآخرين يحترمون قيمك ومُثلك ويفعلون ما تريده، وهي تعني القدرة على الحصول على النتائج التي يريدها المرء عن طريق الجاذبية، أي جعل الآخرين يريدون ما تريده أنت من خلال المصادر المعنوية.

إن قوة الدولة أو شعب أو مجتمع أو أي مؤسسة أو تنظيم في المجال الإقليمي والدولي، تُعتبر المحصلة النهائية للمصادر والقدرات والإمكانات والعلاقات التي يمكن تعبئتها لمتابعة أهداف سياستها الخارجية، وهذه المحصلة تعتمد على مدى تفاعل العديد من العوامل والمكونات التي تتداخل فيما بينها لتبرز الحجم النهائي لقوة كيان ما وقدرتها على التأثير والنفوذ.

رغم مغريات الشعارات وجاذبية أدوات القوى الناعمة، فإن نتائجها لا تقل خطورة عن النتائج المترتبة على استخدام القوة العسكرية وأدوات الضغط الاقتصادية أو القوى الصلبة، كيف يمكن العمل على زيادة الوعي الوطني والمجتمعي في كيفية التعامل مع موجات الأدوات الناعمة بمختلف توصيفاتها الثقافية والإعلامية والسياسية والفكرية؟ وهل يمكن الاستفادة منها لتحقيق التحول الديمقراطي، وإيجاد تركيبات مجتمعية ديمقراطية جديدة.

وهنا يقع على عاتق الدبلوماسية بالدرجة الأولى مسؤولية إبراز القوة بشكل فعّال ومؤثر، بحيث تقوم الدولة أو الشعب وكياناتها باستغلال قدارتها وإمكاناتها لتحقيق الأهداف التي تسعى لتحقيقها، وزيادة حضورها وهيبتها وتفاعلاتها الدبلوماسية، وتحسين مكانتها النسبية من حيث القوة والنفوذ والتأثير في النظام الإقليمي والدولي، والدول الصغرى أو المجتمعات ذات القدرات المحدودة أيضاً لها من عناصر القوة في السياسات الدولية التي يمكن لبعضها أن تستغلها، فقوّتها قد تكمن في مواردها الخام، أو في مواقعها الاستراتيجية أو في تنظيمها أو في خصائص أبنائها ونخبها، أو في أبعادها أو مشاريعها الفكرية والسياسية والديمقراطية والفنية والإعلامية.

ومن المهم الإشارة إلى التطبيقات السرية للقوة الناعمة في حالات الحرب والمواجهات العسكرية للكثير من الدول، حيث أن هذه المخططات تبقى طيّ الكتمان، وهذا ينبه إلى الجانب المظلم الذي

يتواجد في كيفية استخدام القوى الناعمة أو الوجه الآخر للقوى الناعمة حيث يستعملها الكثير من دول العالم صاحبة النفوذ والقوى لتحقيق أهداف على حساب شعوب المنطقة والعالم، وحتى تبديل الحقائق والحقوق.

وعلى الصعيد الدولتي يمكننا أن نشير إلى الاختلاف بين القوى الناعمة للدول المركزية في النظام العالمي كما القوى الناعمة الصينية والروسية التي تختلف عن الأمريكية، كما هناك اختلاف على الصعيد الإقليمي أيضاً بين القوى الناعمة التركية والإيرانية والإسرائيلية، بالإضافة إلى الاختلافات بين الشعوب والمجتمعات، لكن ربما تكون الأدوات والوسائل وطرق التأثير متشابهة، لكن حتماً الأهداف تختلف بين دولة وأخرى وبين شعب وآخر نتيجة مواضعهم وموقعهم وثقافاتهم وإمكانياتهم على الصعيد التفاعلي والصدقية والشرعية والجاذبية المحققة.

وقد ارتكز معظم الباحثين على الدبلوماسية العامة والتي تُعدّ من القوى الناعمة، حيث تعددت تعريفاتها، ومنها تعريف لجير سميث الذي عرّف جزءاً من الدبلوماسية العامة بأنها «زراعة معايير السلوك والفهم في الخارج واللذين ينسجمان مع المصالح الوطنية الأمريكية طويلة المدى»، أما دراسة جون وينبرينر فقد بينت أن قدرة القوة الناعمة لجذب الآخرين في الاتجاه المرغوب يعتمد الدبلوماسية العامة.

الأدوات والوسائل الثقافية:

تلعب الخصائص الاجتماعية والثقافية كنمط الثقافة السائدة والتقاليد الحضارية والفكرية وعامل التجربة التاريخية والقيم الدينية والاجتماعية، دوراً كبير في عملية صنع السياسة الخارجية، هذا إذا أدركنا أن السياسة الخارجية هي انعكاس للتفاعلات التي تتم داخل المجتمع، وأن السياسة الخارجية هي امتداد للسياسة الداخلية بكل ضغوطها ومقوماتها، وفي الواقع فإن القرار السياسي يُعدّ تجسيداً لهوية المجتمع وشخصيته، وعوامل بنائه الفكرية والحضارية ولنمط التفكير القيادي المتأثر بالوسط الاجتماعي.

وعلى هذا، غالباً ما تظهر العلاقة التأثّرية بين خصائص الشخصية المجتمعية والسياسة الخارجية لصنّاع القرار فيه، ومما يؤكد هذه العلاقة ويعززها جملة معطيات: منها أنّ التكوين النفسي والفكري لأي مجتمع يظهر واضحاً على طريقة تعامل صنّاع القرار فيه مع بقية الدول، والشعوب المحيطة، حيث تكون خصائصه السيكولوجية عاملاً للتمييز عن غيره من المجتمعات الأخرى، وأن الشخصية المجتمعية أو القومية أو الوطنية لأي أمّة ترتبط على نحو وثيق بأهداف سياستها المجتمعية أو القومية، فالسياسة الخارجية لأي دولة أو مجتمع أو شعب، تجسّد هوية هذه الدولة أو الشعب أو المجتمع في الانتماء إلى الروابط والمقومات التي تتشكل منها، حيث أن السلوك السياسي الخارجي يعبّر عن الخصائص القومية أو الوطنية أو المجتمعية التي يتميز بها فاعل السياسة الخارجية أو الدولية.

وفي إشارة لمعنى ودلالة البعد الثقافي لمفهوم القوة الناعمة ذهب وزير الخارجية الأمريكي الأسبق "كولن باول» إلى القول: «لا أستطيع أن أفكر في رصيد لبلدنا أثمن من صداقة قادة عالم المستقبل الذين تلقّوا تعليمهم هنا، ذلك أن الطلبة الدوليين يرجعون إلى أوطانهم في العادة بتقدير أكبر للقيم والمؤسسات الأميركية. وكما هو وارد في تقرير مجموعة تعليمية دولية، فإن ملايين الناس الذين درسوا في الولايات المتحدة على مدى سنوات يشكلون خزاناً رائعاً للنوايا الحسنة تجاه بلدنا، وكثير من هؤلاء الطلبة السابقين ينتهي بهم الأمر إلى احتلال مراكز يستطيعون من خلالها التأثير على نتائج السياسة التي تُعتبر مهمة للأمريكيين».

وتبرز أهمية الأدوات الثقافية في كونها توفر المناخ المناسب للتأثير السياسي، فالدول والشعوب التي تنجح في إبراز وجودها الثقافي في دول ومجتمعات أخرى، لا تجد صعوبة في

تحقيق أهداف سياستها الخارجية في تلك الدول، إذ أنّ التأثير الثقافي يخلق نوعاً من كسب الولاء سواء من طرف النخبة الحاكمة أو من طرف الرأي العام.

ولقد أخذت الأساليب الثقافية مظاهر عديدة ومختلفة بهدف زرع نمط ثقافي أو نموذج ثقافي معين في وسط اجتماعي معين، وذلك عن طريق برامج التبادل الثقافي، وإقامة العروض الثقافية، ونشر تعليم اللغة القومية وفتح المكاتب الثقافية والمؤسسات التعليمية في الخارج.

ولابدّ من ذكر الأسلوب الذي مارسته الدول الاستعمارية مع شعوب مستعمراتها وفي مناطق عديدة في العالم في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية، بما يسمّى الاستعمار الثقافي (العولمة الثقافية) أو الهيمنة الثقافية (الاستشراق) وهو من أخطر أنواع الاستعمار حيث يتمّ عبره تسهيل وتطبيق الاحتلال العسكري والاقتصادي والفكري وبالتالي السلوكي، وبالمجمل حداثة الحياة ونمطها.

كما يجب الإشارة إلى محاولة استقطاب الطلاب وطالبي التعليم والتقنيات من خلال استراتيجية التعليم للقرن الواحد والعشرين باستخدام التكنولوجيا لتدريس التعليم، فقد أشارت إليها الكثير من برامج واستراتيجيات وزارة الخارجية للدول الكبرى في النظام العالمي.

الأدوات والوسائل الإعلامية:

يشكّل التفاعل الدعائي أو الدعاية والرموز كأدوات اتصالية، واحدة من الوسائل المستخدمة لمساندة الفعل السياسي الخارجي للدولة تحقيقاً لأهداف يتطلع إلى إنجازها صنّاع القرار فيها، ويتحدد الغرض الأساسي من استخدام هذه الوسيلة بتهيئة المناخ الفكري والنفسي للبيئة الخارجية، وخلق قناعات مسبقة، وتغيير قناعات قائمة لتقبّل وتفهّم سياسة ما، فتلجأ إليها الدولة وبعض الكيانات المختلفة والمؤسسات التي تعمل على توظيف هذه الوسيلة. ويكون الغرض

"يشكّل التفاعل الدعائي أو الدعاية والرموز كأدوات اتصالية، واحدة من الوسائل المستخدمة لمساندة الفعل السياسي الخارجي للدولة تحقيقاً لأهداف يتطلع إلى إنجازها صنّاع القرار فيها، ويتحدد الغرض الأساسي من استخدام هذه الوسيلة بتهيئة المناخ الفكري والنفسي للبيئة الخارجية، وخلق قناعات مسبقة، وتغيير قناعات قائمة لتقبل وتفهم سياسة ما، فتلجأ إليها الدولة وبعض الكيانات المختلفة والمؤسسات التي تعمل على توظيف هذه الوسيلة."

من هذه الجهود الاتصالية والموجّهة إلى البيئة الخارجية، التأثير في أفكار وتوجهات الآخرين حول قضية محددة يخدم فيها محصلة التأثير في أهداف السياسة الخارجية للدولة أو المؤسسة التي تمارسها، وعبر هذا الأسلوب الموجّه يتم فيه خطاب قطاعات واسعة من الرأي العام، والذي يكون موجهاً بالدرجة الأولى إلى جمهور أجنبي لغرض التأثير عليه، وهو ما يسمى بالدعاية.

فالدعاية أو التفاعل الدعائي نشاط اتّصالي تقوم به الدولة أو المؤسسة أو إدارة ما بهدف تسويق فكرة يتبنونها، أو الترويج لسياسة مراد تنفيذها، لزرع قناعات لدى الجمهور المخاطب والمستهدَف المراد التأثير عليه، حتى يتبنّى وجهة نظر هذه الدولة أو الجهة فيما تريد تحقيقه، أو ما تُقدم عليه من سياسات. وتكمن أهداف الدعاية كأسلوب يُمارس لتحقيق أهداف السياسة الخارجية، بخلق رأي عام مناصر ومؤيد لمواقف ما من ناحية، ثم تعبئة هذا الرأي من ناحية أخرى ضدّ كلّ من يعارض هذه السياسة. وكما يذهب

«هارولد لاسويل» إلى أن هدف الدعاية يتحدد بتعبئة الكراهية ضد العدو والحفاظ على صداقة الحلفاء، وكذلك الحفاظ على صداقة الدول المحايدة، بل الحصول على تعاونها، وبالمقابل تحطيم الروح المعنوية للعدو وخلق رأي عام داخلي يعمل بالضد منه.

تتطلب الدعاية لكي تكون على قدر كبير من الفاعلية والتأثير لخدمة أهداف السياسة الخارجية للدولة التي تستخدمها:

1- صياغة المادة الدعائية بأسلوب مبسط وغير ممل، وأن يتسم هذا الأسلوب بعنصر الإثارة والتشويق بحيث يثير في النفس حافز الاستمتاع والمتابعة.

2- يفترض أن تكون المادة الدعائية مصاغة بأسلوب قابل للتصديق من طرف الجمهور المخاطب والمستهدف بهدف التأثير عليه.

3- ولكي تكون نتائج الدعاية إيجابية، يُفترض أن تكون على درجة من التوافق مع منطلقاتها.

4- وهنا لابد من أن يكون الأسلوب الدعائي منسجماً مع الخطوط الرئيسية البارزة في نمط دعائي معين. فإذا كان هذا النمط الدعائي يقوم على الدفاع عن السلام مثلاً، فإن المادة الدعائية يجب أن تصاغ بأسلوب يعطي الإيحاء بأنها تدافع عن هدف السلام وليس الأسلوب المباشر.

5- ألّا تتّسم الدعاية بالتذبذب من موقف إلى آخر، فإن ذلك من شأنه أن يفصح التناقض الكامن في هذا النوع من الدعاية.

6- زيادة فاعلية العمل الدعائي عبر أسلوب الترديد والتكرار المستمرَّين لبعض جوانبه أو عناصره الرئيسة، إذ أن التكرار يخلق انطباعات عميقة في نفسية من يتلقى مضمون الدعاية.

تحتل الوسائل الإعلامية والدعائية والمؤسسات الإعلامية مكانة مهمة لتنفيذ أهداف السياسة الخارجية لغالبية الدول والشركات والمؤسسات والقوى المختلفة، ونشر المفاهيم والقيم التي تخدم سياسات معينة، وفي عصر ثورات الاتصال والتكنولوجيا زاد تأثير هذه الأدوات بل أصبح يُستخدم في استراتيجيات دولية وعلى مستويات مختلفة عبر التأثير في عقول الجماهير وعواطفهم وتغيير اتجاهاتهم وسلوكهم، بما يخدم سياسات وتحقق مصالح وأهداف مرسومة في الاستراتيجية.

وهنا يقول جوزيف ناي عن بالقوة الناعمة، بأنها لا تعتمد على بطش الأساطيل والمدافع الحربية، إنما تلجأ إلى (أسر العقول والأفئدة) وهذا ما أكده (بريجنسكي) بأن: "الانتشار السريع للأنترنت كأداة جديدة للاتصال، ما هو إلا مظهر واحد من مظاهر التأثير العالمي الكبير لأمريكا بوصفها الرائد الاجتماعي للعالم».

وفي الصعيد نفسه وُظّفت الدعاية مع صناعة السينما، ففي عهد الرئيس (روزفلت) بدأ التنسيق على المستويات كلها بين وكالة الأمن القومي الأمريكي وبين الشركات الرئيسة العاملة في صناعة السينما في هوليود، وأصدرت الحكومة الأمريكية دليلاً موجهاً إلى هوليود يضم أنواع الموضوعات التي يمكن أن تحترم المجهود القومي الأمريكي، إذ حدد الرئيس (روزفلت) خمسة موضوعات تتمتع بالأولوية.

ولعل مصانع هوليوود وبغض النظر عن فسادها أو جوهرها أو رسائلها، تُعدّ أكثر ترويجاً للرموز البصرية للقوة الأمريكية الناعمة من جامعات مثل جامعة هارفارد، والسبب يعود إلى الإمتاع الشعبي للأفلام الأمريكية التي تجسّد وفق المفهوم الأمريكي مفاهيم الحرية والعنف، وتحوي على صور ورسائل لا شعورية عن الفردية وحرية الخيار للمستهلك، وقيم أخرى لها رسائل سياسية مهمة ومؤثرة خاصة للاستراتيجيات الأمريكية في المنطقة.

كما أنّ صنع القرار السياسي الخارجي يرتبط بمدى

المعلومات المتوافرة لدى صناع القرار الخارجي عن اتجاهات الشعوب في الدول الأجنبية والمجتمعات المحيطة ذات العلاقة بهذا القرار أو المستهدفة به. لذلك تحاول الدولة من خلال وسائل الإعلام المتاحة والملائمة التأثير على الرأي العام الأجنبي الخارجي وفي المحيط لكسب تأييده لقضايا معينة. وتبحث الدبلوماسية عن التأييد خصوصاً خارج الحدود القومية. وبهذا يرتبط الإعلام بالدبلوماسية في تنفيذ السياسة الخارجية. ولعل التطور الكبير والمستمر للمكاتب الإعلامية للدول المختلفة في الخارج يظهر بشكل جلي أهمية الإعلام في خدمة سياسات الدول الخارجية وخدمة أهدافها على صعيد العمل الدبلوماسي.

وتجدر الإشارة إلى دور الإعلام في العمليات الدبلوماسية وفي آلية التفاوض كوسيلة من وسائل تفعيل العلاقات الدولية والسياسات الخارجية، ويمكن تحديد هذا الدور من خلال النقاط التالية:

1- الإعلام كمصدر للمعلومات: فقد أكدت الدراسات أن الإعلام هو المصدر الأساسي للقادة السياسيين والدبلوماسيين وكل من لهم صلة بالعملية السياسية في المجتمع. حيث يقدم الإعلام لأطراف التفاوض رؤية أولية للأطراف المشاركة.

2- الإعلام كأداة لتنفيذ السياسة الخارجية: حيث يلعب دوراً هاماً في مجال خلق رأي عام مساند أو معارض لقضية يدور حولها التفاوض. وخلق الاتجاهات المعارضة أو المؤيدة للقضية التي تكون محل التفاوض أو لأحد أطراف التفاوض.

ورغم الدور المهم الذي تلعبه وسائل الإعلام في إطارها الرسمي والشعبي من أجل تنفيذ السياسة الخارجية. فإن هناك الوجه الآخر لوسائل الإعلام والذي تلعب فيه دور المضلل والمخادع لصانع القرار السياسي الخارجي. وذلك عندما تقوم بتحريف الأحداث والأخبار على النطاق الدولي مما يؤثر على سير العلاقات الدولية والخارجية والمجتمعية من خلال جعل الأكاذيب تحل محل الحقائق الثابتة وإعطاء بعض الأحداث أهمية إعلامية أكثر من حجمها الحقيقي.

مواقع التواصل الاجتماعي وشبكة الأنترنت:

تعد الوسيلة الإعلامية التي تعمل دول مركزية عالمية وإقليمية على توظيفها وتسخيرها لصالح قيادة الرأي العام في الإقليم والعالم. وتعد في جزء منها من أهم الوسائل التي تبث نتاجات الفكر الغربي الرأسمالي الذي يروّج للنموذج الليبرالي البرغماتي. حيث أن وسائل الإعلام لها دور كبير في ضخّ هذه الأفكار للرأي العام. وتسييسه وقيادته نحو ترسيخ أفكار الليبرالية والنموذج المراد هيمنته على المنطقة والعالم. وعلاوة عن العديد من القنوات الفضائية التي لديها تمويل هائل بالإضافة إلى العديد من الصحف والدوريات والمجلات ومراكز البحث التي تعنى بالفكر الليبرلي. هناك أيضاً الأخطبوط العملاق والذي يدعى شبكة المعلومات الدولية الإنترنت ودورها في تعبئة الرأي العام والجماهير في إحداث اضطرابات وتغييرات على الساحة العالمية. ولما لهذه الشبكة العنكبوتية الضخمة دور في رسم وسوق الأهداف المبتغاة نحو الطريق الذي تريده القوى العالمية وعلى رأسها الولايات المتحدة. عبر عدة قنوات كمواقع التواصل الاجتماعي (فيسبوك وتويتر ومحركات البحث الكثيرة مثل ياهو وجوجل والتي تعد من أهم الشركات الأمريكية العالمية التي تعنى بالتجسس وجمع المعلومات حول العالم). مع العلم أن القوى المجتمعية والمدنية أيضاً حاولت وتحاول الاستفادة قدر الإمكان من التطور التقني والأنترنت في الدفاع وشرح أهادفها ومطالبها. ولابدّ لها من وضع استراتيجيات للتعامل مع هذه الأدوات الإعلامية وشبكات الأنترنت وأجيالها.

وقدر ظهر في السنوات الأخيرة مفهوم التكنوبلوماسية (الدبلوماسية الرقمية)

"نجد أن القوى الناعمة في السياسة الدولية أو الخارجية لها مكانة ودور كبير وحضور فعال في المشهد التفاعلي، وكّذلك في بناء العلاقات والتحالفات سواء بشكل إيجابي أو سلبي أو في توجيه بوصلة الآراء والرأي العام وخلق أنماط وسلوكيات معينة، وأن أي دولة أو مجتمع أو شعب يستطيع الوصول إلى أهدافه وبأقل التكاليف والانتقادات دون الحاجة إلى القوة المفرطة والإجراءات الصلبة."

وحتى أن هناك دول أصبح لديها سفراء رقميين، والكثير من وزارات خارجية الدول وحتى القوى المجتمعية أصبحت ترفد دبلوماسييها وممثليها بقدرات ومساعدين تقنيين في مجال التواصل الرقمي لما له من دور وأهمية في السياسة الدولية وحتى المجتمعية والشعبية.

الأدوات والوسائل السياسية:

تعد الوسائل السياسية واحدة من الوسائل المهمة لتنفيذ السياسة الخارجية أو الدولية، وتأتي المنظمات والمؤسسات والشركات الدولية وكذلك المجتمعية السياسية لا سيما منظمة الأمم المتحدة ووسائلها، ومؤسساتها والمنظمات المجتمعية، من بين تلك الوسائل التي تستخدمها بعض الدول والقوى في المنطقة والعالم.

ومن أهم الوسائل والأدوات السياسية التي تعتمدها القوة الناعمة في تنفيذ السياسة الخارجية ما يلي:

1- الديمقراطية: على صعيد الأدوات السياسية تعتبر فكرة نشر الديمقراطية أو العمل على تحقيق التحول الديمقراطي في المنطقة والعالم، إحدى أهم أدوات القوة الناعمة التي يتم استخدامها في دول أو مجتمعات لتحقيق سياسات وتوجهات معينة. وهنا لابد من الإشارة إلى موضوع الديمقراطية وجوهرها وتعددها، حيث تعد الديمقراطية ودمقرطة دول المنطقة السلاح الممكن استخدامه في الرقعة الإسلامية في مواجهة الإرهاب الإسلاموي والديكتاتورية الشديدة والسلطات القوموية مقترنة بالقوى الصلبة في إطار استراتيجية القوة الذكية. لكن ليس كل الديمقراطيات المثارة هي لأجل مصالح الشعوب والدول، بل بعضها لتثبيت الديكتاتورية والقوموية والإسلاموية والجنسوية كالديمقراطيات التمثيلية. وهنا لابد من البحث عن الديمقراطية المباشرة أو الشعبية.

2- مبادرات الإصلاح السياسي : وفي سياق مبادرات الإصلاح السياسي ضمن إطار التحول الديمقراطي طرحت دول مركزية مبادرات مثل مبادرة الشرق الأوسط الكبير، التي تضمنت ثلاث أولويات، هي الترويج للديمقراطية والحكم الرشيد، وبناء مجتمع المعرفة، وتوسيع الفرص الاقتصادية، لكن شعوب المنطقة ودولها لا ترى في هذه المشاريع مبادرات حقيقة لتحقيق التطورات والحلول الديمقراطية المطلوبة وإن وافق بعض دول المنطقة وبعض التيارات السياسية على هذه المبادرات، حتى أنه يمكننا القول إن أغلب المبادرات الخارجية لم تحقق الحلول بل أن أغلب الأزمات مستمرة ومستفحلة وإن كان هناك ضغط ما على بعض الدول التي لا تنساق وفق خطط النظام العالمي المهيمن.

3- **الدبلوماسية المجتمعية:** بعد أن أصبحت الدبلوماسيات الرسمية غير كافية لتحقيق الأهداف المطلوبة للدول والشعوب، ونتيجة تزايد دور الرأي العام الضاغط على الحقل السياسي وبروز دور منظمات المجتمع المدني والثورة التقنية والإلكترونية، هنا أصبح للقوى الشعبية والمجتمعية أدوار مهمة في السياسة الدولية أو الخارجية.

إنّ الدبلوماسية التقليدية مهمة وأساسية، لكنّها أصبحت غير كافية؛ ذلك لِأنّ التطورات العالمية تتطلب الوصول لما هو أبعد من الحكومات، أي التواصل المباشر مع المواطنين، وتوسيع نطاق ملفات وزارة الخارجية لتشمل قضايا كانت تعد من قبل شأناً داخلياً، مثل: قوانين البيئة، والمخدرات، والجريمة المنظمة، وما يتعلق بالاقتصاد والجوع، نظراً لأن تأثير هذه القضايا عابر للحدود، وبالتالي تم تأكيد فكرة إيجاد استراتيجية جديدة للدبلوماسية العامة، تجعل من المشاركة العامة واجباً على كل دبلوماسي، أي تأطير العمل المدني بشكل رسمي ليصبح ضمن وظيفة السفراء والممثلين في الخارج، ويشمل العمل المدني المشاركة في المناسبات المحلية، والتواصل الافتراضي مع المواطنين ومنظمات المجتمع المدني وغيرها.

وتشير أهداف الدبلوماسية الشعبية إلى تحقيق أهداف أخرى تعتبر ذات أهمية كبرى، فقد أكد "هيتر ماهوني «مستشار الشؤون الإعلامية والثقافية الأسبق بسفارة الولايات المتحدة الأمريكية بالقاهرة، أن الدبلوماسية الشعبية الأمريكية تسعى لتحقيق العديد من الأهداف وليس الأمنية والسياسية فقط، فقد أضاف الأهداف الثقافية والعلمية مؤكداً بذلك على أهمية المحور الثقافي للدبلوماسية الشعبية في تحقيق الحوار الثقافي بين الشعوب.

ويمكن تحديد ثلاثة شروط رئيسية لتأثير القيم السياسية كمصدر للقوة الناعمة في العلاقات الدولية:

1- أن تكون ذات طابع عالمي وإنساني.

2- أن تكون ذات صدقية وشرعية شعبية ورسمية.

3- أن يتم تطبيقها في الداخل والخارج على حد سواء. ومن هنا فإن القيم السياسية التي تؤمن بها حكومة أو مجتمع أو قوى ما قد تعزز قوتها الناعمة أو تبدّدها.

منظمات المجتمع المدني:

إن الحديث عن منظمات المجتمع المدني ودورها في تنفيذ السياسة الخارجية في ظل الممارسة الدبلوماسية، يعطي لها الأهمية الكبرى في كونها جزءاً مشاركاً في عملية تنفيذ السياسة الخارجية إلى جانب الجهات الحكومية، وذلك من خلال التفاعل بينها وبين المنظمات غير الحكومية والممثلة في جميع مؤسسات وفعاليات المجتمع المدني. لقد شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين إحياء مصطلح المجتمع المدني لكي يشير إلى مجموعة التنظيمات الطوعية والاختيارية القائمة داخل المجتمعات المعاصرة، مثل النقابات المهنية والعمالية واتحادات رجال الأعمال، واتحادات المزارعين، والجمعيات الأهلية، وبناء على ذلك ظهرت أدوار جديدة منوط بها المجتمع المدني، لاسيما المتعلقة بالسياسة الخارجية والممارسة الدبلوماسية. وتبعاً لذلك تنامى دور مؤسسات المجتمع المدني في مختلف مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية والبيئية، وساهم ذلك في ربط أنشطة هذه المؤسسات سواء على المستوى المحلي أو الدولي واتساع العالم وتعزيز تفاعلها وتسريع استجاباتها للأحداث والتطورات، ما انعكس على مجال السياسة الخارجية والممارسة الدبلوماسية من خلال تبلور مسار للدبلوماسية غير الرسمية ساهمت في تنفيذ العديد من السياسات وبرامج عمل.

إن استراتيجية منظمات المجتمع المدني ودورها

في تنفيذ السياسة الخارجية مرهون بطبيعة العلاقة بين ديالكتيك الدولة والمجتمع، والتي تعكس طبيعة التعامل مع باقي الدول وتنتج أدواراً مختلفة للمجتمع المدني في تنفيذ السياسة الخارجية، خاصة إذا كانت الدولة أو المجتمع يتمتّعان بإدارة متماسكة قادرة على وضع السياسات وتنفيذها. وتسعى هذه المنظمات انطلاقاً من أسسها التي تقوم عليها إلى محاولة إضفاء الطابع الديمقراطي على ديناميات العمل السياسي وفتح المشاركات الشعبية للجهات الفاعلة من غير الدول في المساهمة في تفعيل التعاملات الدولية، وبالتالي فتح الممارسات الدبلوماسية التي تتم عن طريق المشاركة المباشرة للسكان الممثلة في المنظمات غير الحكومية باعتبارها المنفذ لبرامج الدولة أو المجتمع.

تجدر الإشارة إلى الدور الذي تلعبه منظمات المجتمع المدني في مسألة النزاعات والحروب وذلك من خلال جهود الدبلوماسية غير الرسمية الممثلة في أدوار هذه المنظمات والمؤسسات، لتقديم طرق بديلة لصنع السلام والتي تحتل مكانة طيبة كواحدة من أجهزة الدبلوماسية غير الرسمية والسياسة الخارجية، وذلك لما تتمتع به من وجود معمق في المجتمعات المحلية، فهي تتمتع بالقدرة على إقامة بنيات أساسية محلية عبر مختلف مستويات المجتمع والتي تدعم موارد عملية المصالحة، وتسمح لهم بالانخراط في مفاوضات على المستوى الدولي تساهم في تنفيذ السياسة الخارجية وبالتالي فضّ النزاعات، فكانت بذلك تقوم بالدور الفعّال الذي مهّد لخطوات لاحقة في سبيل فض النزاعات. لكن الكثير من هذه المؤسسات موجهة وممولة من قبل الدولة والأطراف السياسية التي تمتلك الإمكانات والقدرات، وهذا يجعل هذه المؤسسات تفتقد بعضاً من مصداقيتها واستقلاليتها وحتى في اختيارها للمناطق والشعوب والدول والأزمات.

يمكن استخلاص استراتيجية نشاط منظمات المجتمع المدني في تنفيذ السياسة الخارجية من خلال النقاط التالية:

1- تنطلق منظمات المجتمع المدني من استراتيجية مهمة هي تحسين مستوى المجتمعات، من خلال المناداة بالآراء ومناصرتها، وحشد الانتباه تجاه قضايا دولية ومراقبة سلوك الحكومات والمؤسسات والأطراف ومحاولة إقامة العلاقات الدولية والمعايير الضرورية للحكم الرشيد مثلما يقال.

2- تكوين روابط سياسية على المستوى الدولي، بحيث تسعى إلى دفع عجلة قضية معينة أو مجموعة من القضايا التي تخدم مصالح عملية تفعيل العلاقات الدولية.

3- وضع برامج محلية ودولية تساهم في تنفيذ أولويات وأهداف السياسة الخارجية في جميع المجالات، والتي تساهم في تعزيز مبادئ الديمقراطية من خلال التشجيع على المعايير الدولية والقيام بتحليل السياسات الخارجية والعمل كمراقب للإجراءات الحكومية في الشؤون الدولية.

4- محاولة نقل المعلومات والمعارف والخبرات التي تعتبر البوابة الرئيسية لمنظمات المجتمع المدني في عملية وضع السياسات المشتركة بين الدول، وهي سمة ملازمة للعلاقات الدولية المعاصرة وصياغة السياسة الخارجية.

5- استخدم النفوذ الذي يُعتبر استراتيجية ووسيلة فعالة للتأثير على ممارسات الدول والمؤسسات والحفاظ على العلاقات الدبلوماسية، وذلك من خلال التحالف مع مصالح الحكومات في الخارج لاسيما في ميدان انتهاكات حقوق الإنسان والديمقراطية.

6- المساءلة والمحاسبة من خلال الالتزام والامتثال والوعود الحكومية، وهي استراتيجية تقوم بها منظمات المجتمع المدني لمساءلة الحكومة تجاه الالتزامات السياسية والقانونية، لذلك فإن وسائل

الاتصال الحديثة سهّلت إلى حد كبير قدرات المراقبة لدى المجتمع المدني، مما يعرّض جميع الحكومات للمزيد من الضغط. وهذه الاستراتيجية تسمح بضمان وفاء الحكومة بالالتزامات المقترحة.

7- تعمل منظمات المجتمع المدني على تأمين الخبرة للموظفين المحليين والإقليميين لتطبيق مشاريع تمولها الحكومة وتساهم في ترشيد السياسة الخارجية، بما يسمح لها باستقطاب اهتمام المؤسسات الدولية والمنظمات الحكومية لدعمها ومساعدتها.

الأدوات الثقافية

للحقل الثقافي أهميته في تطوير وتعزيز الفعل الدبلوماسي وإقامة العلاقات بين الدول والشعوب والمجتمعات، ولعل القيم الثقافية لمجتمع أو دولة هي التي تعطي للسياسة الدولية أو الخارجية لون كل شعب ومجتمع ودولة، وأغلب دول المنطقة والعالم حاولت وتحاول توظيف الأدوات الثقافية الواسعة والمتنوعة من المادية والمعنوية في تسهيل وتهيئة الظروف لتحقيق أهداف في السياسة الخارجية.

وتتحدّد غايات السياسة الثقافية الخارجية أو الدولية تجاه المنطقة في الأهداف الرئيسية التالية:

1- تأمين الوجود الثقافي على النحو الذي يضمن عملية التأثير المستمر والفاعل في اتجاهات الرأي العام للمنطقة وتطويعها للتكيف مع تطلعات ومصالح السياسة المرسومة في المنطقة. وهذا يمكن فهمه من فحوى التقارير الاستشارية العالمية التي توصي بضرورة الاعتماد على الدبلوماسية الثقافية، وأهمية الدور الذي تؤديه في تحقيق أهداف الأمن والسلم الدولي.

2- غرس قيم وأنماط من الثقافة في المنطقة، وتعزيز دورها على المستوى الذي يكفل

"شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين إحياء مصطلح المجتمع المدني لكي يشير إلى مجموعة التنظيمات الطوعية والاختيارية القائمة داخل المجتمعات المعاصرة، مثل النقابات المهنية والعمالية واتحادات رجال الأعمال، واتحادات المزارعين، والجمعيات الأهلية، وبناءً على ذلك ظهرت أدوار جديدة منوط بها المجتمع المدني، لاسيما المتعلقة بالسياسة الخارجية والممارسة الدبلوماسية. وتبعاً لذلك تنامى دور مؤسسات المجتمع المدني في مختلف مجالات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والصحية والبيئية."

فتح أبواب القبول أمام السياسة المطبقة تجاه المنطقة، ومن ثم تأمين مستقبل المصالح العالمية الدولية وديمومة حصادها النفعي من الموارد، وتتم عملية زرع القيم في المنطقة من خلال جملة من الأساليب منها الجهود المتنوعة التي تبذلها أجهزة الدبلوماسية العامة التي ترتكز في الأساس على حرب الأفكار وفق فرضية المقاربة التي ترى "أن النصر النهائي لا يحدث على أرض المعركة وإنما في العقل البشري». وبالتالي السيطرة على الإرادة والفكر.

وليس خطأً إذا تحدثنا عن بروز تأثير القوى الناعمة الخارجية في أحداث وحروب المنطقة والتحركات فيها، فالربيع العربي والحروب المستمرة من أفغانستان إلى اليمن وسوريا وليبيا والصومال والعراق وأفريقيا وغيرها، نستطيع ملاحظة ظهور الوجود الخارجي عبر القوى الناعمة والأدوات الإعلامية والسياسية والثقافية بالإضافة إلى الأدوات الصلبة، حتى أنّ الكثير من القوى الأداتية

"القوة الناعمة هي "القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً من الإرغام، وهي القدرة على التأثير في سلوك الآخرين للحصول على النتائج والأهداف المتوخاة، بدون الاضطرار إلى الاستعمال المفرط للعوامل والوسائل العسكرية والصلبة. وهذا ما حصل مع الاتحاد السوفيتي، حيث تم تقويضه من الداخل، لأن القوة لا تصلح إلا في السياق الذي تعمل فيه"

وحتى الشعبية واليسارية المضللة والمتأثرة بأدوات القوى الناعمة للتدخلات الخارجية، يرى خلاصه عبر المشاريع التي يتم تصديرها للمنطقة أو عبر الحفاظ على الأدوات التي يتم زرعها في المنطقة مثل الدول القومية التي هي أهم أدوات التدخل والتجاوز الخارجي على إرادة ومصالح وقيم وثقافة شعوب المنطقة.

ربما بعض الدول والنظم السياسية العالمية ونتيجة التكاليف الباهظة التي ترهق الاقتصاد المتعثر في الأزمة الاقتصادية العالمية وكذلك نتيجة الانتقادات ورود الفعل المجتمعية والشعبية، ذهبت إلى القوى الناعمة في السياسة الدولية والخارجية، لكن القوى الناعمة تتطلب مهنية وحرفية كبيرة حتى تحقق الغاية المرادة، وهكذا نستطيع القول أن للقوى الناعمة أيضاً تحديات سواء تم استعمالها من قبل الدول أو القوى المجتمعية، ومن المهم الإشارة والتنبيه الدائم من القوى الناعمة للقوى التي تريد احتلال المنطقة وتشكيل إمبراطوريات قديمة ولو بصيغ جديدة وأشكال حديثة كالتوجهات التركية والإيرانية.

حيث عملت تركيا وبتوجيه مباشر من حزب العدالة والتنمية على استخدام كافة وسائل القوى الناعمة للتدخل في المجتمعات العربية وبين شعوب المنطقة وتمكين أدواتها في بعض المناطق والدول ودعمهم عبر مختلف الأدوات، وحتى استغلال القيم والمفاهيم المقدسة لتمرير تسللها وتدخلاتها واحتلالاتها للمنطقة وشعوبها.

بعض مظاهر تأثير القوة الناعمة السلبية التي تستهدف شعوب المنطقة:

1- إقبال قطاعات واسعة من شعوب المنطقة، وخصوصاً بين الشباب والنسوة على أنماط الحياة والثقافة الشعبية الغربية من المأكولات السريعة، إلى الأزياء والملابس وأدوات الزينة، إلى الأغاني والموسيقا والأفلام وخاصة الأمريكية، فقد أضحت هذه الجوانب جزءاً من حركة العولمة المناسبة نحو مختلف مناحي المعمورة الكونية معيدة تشكيل اختيارات وأذواق ملايين من البشر، فضلاً عن كونها مظهراً من مظاهر التحولات الاجتماعية والثقافية التي تشهدها البلدان العربية والإسلامية، وعلى رأسها منطقة الشرق الأوسط خلال العقدين الأخيرين على وجه الخصوص.

2- الانتشار الواسع لاستخدام اللغة الإنجليزية على حساب اللغات الأم لشعوب المنطقة، ليس في مجال الأعمال فحسب، بل أكثر من ذلك في مجال الإدارة والمؤسسات العامة، وقد يصل الأمر إلى حد تحولها إلى لغة تخاطب يومي، خصوصاً في منطقة الشرق الأوسط التي تقطنها جاليات واسعة وتشهد حضوراً غربياً، وحتى أن بعض الدول في المنطقة التي ظلت إلى وقت قريب حكراً على النفوذ الفرنسي تقريباً، مثل بلدان المغرب العربي، فإنها تشهد بدورها توسعاً

ملموساً في استخدام اللغة الإنجليزية على حساب اللغة الفرنسية. وفي ظل غياب الوعي بأهمية اللغة الأم وخطورة دورها فضلاً عن أهمية الثقة بالنفس والانبهار بكل ما هو أمريكي وأوروبي، فقد تم التساهل في استخدام اللغات الأجنبية إلى حد تهديد اللغة الأم ومقومات الهوية الثقافية للمنطقة إلى درجة غير مسبوقة في تاريخ المنطقة الحديث، فاللغة الإنجليزية تحولت إلى لغة توحد العالم، مع وجود دول في المنطقة تمنع اللغات الأم وتحرم المجتمعات والشعوب من حق تعليم أبنائها وتدريسهم بلغتها كما تفعل تركيا وإيران وسوريا مع الشعب الكردي، في الوقت الذي تسمح للغات الخارجية والأجنبية بالتوغل والتسلل للأجيال على حساب لغات شعوب المنطقة الأساسية.

3- الانتشار الواسع والسريع للمدارس والجامعات، إلى جانب المراكز الثقافية والبحثية توازياً مع تعاظم النفوذ السياسي والعسكري الخارجي الإقليمي والعالمي في المنطقة، وفتح فروع للجامعات الأمريكية والتركية والإيرانية في الكويت والشارقة والدوحة والدار البيضاء و طرابلس ومقديشو وإدلب والباب وعفرين المحتلة و بيروت وغيرها، والملفت أن أبناء الطبقات الوسطى والثرية يتجهون أكثر فأكثر نحو تعليم أبنائهم في المدارس والجامعات الغربية عامة، والأمريكية خاصة، بعد أن أصبح الانتساب إلى هذه المؤسسات التعليمية الأجنبية عنوان الوجاهة الاجتماعية وضمان النجاح المهني فيما بعد، نتيجة الوقوع تحت تأثير القوى الناعمة الإقليمية والدولية وسياساتهم، ولعل الظاهرة الأكثر خطورة تتمثل في ما تبديه هذه الجامعات والمدارس التي تشكل أدوات القوى الناعمة في السياسة الخارجية، وخصوصاً في بعض دول المنطقة من عزلة شبه تامة عن المحيط الثقافي واللغوي الذي توجد فيه، فاللغات الأم والمقرارت والمفردات الثقافية للمنطقة باتت تغيب تماماً من هذه الجامعات والمؤسسات التعليمية.

القوة الذكية (Power Smart):

ومن المفيد الإشارة إلى أنه مع ظهور مشكلة الإرهاب وأيديولوجيته المنحرفة والمتمكنة من بعض الإسلامويين، وعدم كفاية القوى الناعمة وحدها؛ اتجهت مراكز الفكر والدراسات في بعض الدول المركزية في النظام العالمي وبالتعاون مع الدوائر الأمنية والاستخبارات، في طرح ومناقشة استراتيجية مدمجة بين القوى الناعمة والصلبة في تركيب جديد باسم القوى الذكية.

ففي أمريكا قام مركز الدراسات الاستراتيجية والدولي (CSIS) وبدعم أطراف عديدة باستراتيجية مشروع القوة الذكية، التي تهدف إلى أن تقوم السياسة الخارجية الأمريكية على الدمج بين مفهومي القوة الناعمة والقوة الصلبة، وذلك في ظل البحث عن الرؤية الاستراتيجية لكيفية مواجهة التحديات الآنية والمستقبلية التي تواجه الولايات المتحدة، والسبيل الأمثل لإدارة السياسة الخارجية الأمريكية من أجل تحقيق المصلحة والأمن القومي الأمريكي.

القوة الذكية هي إحدى المصطلحات المتعلقة بالعلاقات المتبادلة بين الدول والشعوب والمجتمعات، ويشير المصطلح إلى مزيج من استراتيجيات القوة الصلبة واستراتيجيات القوة الناعمة، ويعرّفه مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بأنه "منهج يؤكد ضرورة وجود جيش قوي، لكنه يستثمر أيضاً بكثافة في التحالفات والشراكات والمؤسسات من جميع المستويات لتوسيع نفوذ الأطراف وإثبات شرعية أفعالها». تشير العديد من الكتب حول استراتيجية القوة الذكية، إلى أن الاستراتيجيات الأكثر فاعلية في العلاقات والسياسة الخارجية اليوم تتطلب مزيجاً من موارد القوة الصلبة والمرنة، وتؤكد أن توظيف القوة الصلبة فقط أو القوة الناعمة فقط في موقف معين عادة ما يكون غير كافٍ، ولابد من التعددية في استخدام

تعتبر فكرة نشر الديمقراطية أو العمل على تحقيق التحول الديمقراطي في المنطقة والعالم، إحدى أهم أدوات القوة الناعمة التي يتم استخدامها في دول أو مجتمعات لتحقيق سياسات وتوجهات معينة. وهنا لابد من الإشارة إلى موضوع الديمقراطية وجوهرها وتعددها، حيث تعد الديمقراطية ودمقرطة دول المنطقة السلاح الممكن استخدامه في الرقعة الإسلامية في مواجهة الإرهاب الإسلاموي والديكتاتورية الشديدة والسلطات القوموية.

القوة لتحقيق التأثير والهدف المطلوب. ويستخدم "جوزيف ناي" في ذلك مثال الإرهاب، ويعتقد أن مكافحة الإرهاب تتطلب استراتيجية قوة ذكية، ويعتبر من جهته بأن مجرد استخدام موارد القوة الناعمة لتغيير قلوب وعقول وخطاب وسلوك أفراد أو مجتمعات أو جهات أو تنظيمات أو دول، سيكون غير فعال لأنه يحتاج بالضرورة اللجوء لعنصر القوة. لا بدّ لِبناء و تطوير التفاعل والعلاقات في المنطقة والشرق الأوسط والعالم الإسلامي من موارد القوة الذكية، إذ إن استخدام القوة الصلبة قد يكون له آثار مضرة. ويقول الدبلوماسي الأمريكي تشستر آرثر كروكر إن القوة الذكية «تشمل الاستخدام الاستراتيجي للدبلوماسية، والإقناع، وبناء القدرات، وفرض القوة والنفوذ بطرائق فعالة من ناحية التكلفة ولها مشروعية سياسية واجتماعية»؛ لا سيما في اشتراك القوة العسكرية وجميع أشكال الدبلوماسية الأخرى. وهنا تظهر أهمية موارد القوة الذكية المتضمنة للقوة الصلبة والناعمة ولاستراتيجياتهما معاً و حسب المكان والزمان، كما القوى التقنية والعسكرية والاقتصادية والثقافة والسياسة والإعلامية، وحقوق الإنسان والقانونية والفن وذلك في إطار النطاق الكامل للأدوات التي في متناول اليد.

وعليه نجد أن القوى الناعمة في السياسة الدولية أو الخارجية لها مكانة ودور كبير وحضور فعّال في المشهد التفاعلي، وكذلك في بناء العلاقات والتحالفات سواء بشكل إيجابي أو سلبي أو في توجيه بوصلة الآراء والرأي العام وخلق أنماط وسلوكيات معينة، وأن أي دولة أو مجتمع أو شعب يستطيع الوصول إلى أهدافه وبأقل التكاليف والانتقادات دون الحاجة إلى القوة المفرطة والإجراءات الصلبة، إن تم تفعيل واستخدام كافة أدوات ووسائل القوى الناعمة في الحقل السياسي والتفاعلي والدبلوماسي بشكل جيد وبناء، لكن يبقى مفهوماً وفعلاً غير كامل في ظل التحديات المختلفة واستمرار حالات الإبادة والاحتلال وتواطؤ المنظومة الدولية والإقليمية مع حالات القمع والاحتلال والإبادة في الشرق الأوسط، لاستمرار هيمنتها ونهبها وتسلطها على المنطقة، وعندها تحتاج شعوب ومجتمعات ودول المنطقة لاستراتيجية القوة الذكية التي تجمع القوة الناعمة والصلبة معاً، فبدون شك لا تكفي القوى الناعمة مع داعش ومع الاحتلال التركي لكردستان، لكن يبقى للقوى الناعمة في السياسة مفعولها الكبير في الإقناع وتبيان الحقائق، وكذلك تمكين الحقوق والأخوّة والديمقراطية وحرية المرأة كثقافة مجتمعية قادرة على تحقيق الثورة الحقيقية، وبالتالي تغيير الذهنية ومعها السلوك والمقاربة.

لماذا يتمرد الكردي؟

صالح بوزان

لنبدأ بهذا السؤال الذي يطرحه جميع أعداء الكرد وحتى أصدقائهم. فلدى الجميع تصوّر أنّ الكرديّ بطبيعته متمرد.

لماذا يتمرد الكردي؟

لا شكّ أن هذا السؤال ليس سؤالاً فلسفياً أو سيكولوجياً، فقد كشف التاريخ الحديث أنّ شعوب المنطقة التي يعيش معها الكرد، وليس نُخبها السياسية والثقافية فقط، لم تفهم يوماً الإنسان الكردي، ولم تحاول ملامسة معاناته، بل لم تفكر به خارج دائرة العداوة غالباً. يتساءل أحياناً العرب والفرس والترك باستغراب لماذا الكردي سريع التمرد؟ لماذا يقاتل بشراسة دون التفكير بالنتائج؟ لماذا هو عنيد إلى درجة يشبهون عقله بالحائط؟ لماذا لم ينصهر في الإسلام رغم كل ثقل الإسلام السياسي والثقافي عليه عبر قرون، وظل يعتبر عاداته وتقاليده وتراثه فوق الإسلام؟ لماذا لم ينصهر في القومية العربية والفارسية والتركية رغم كل الأساليب البربرية التي استخدمتها حكومات هذه الشعوب لتحقيق هذه الغاية؟

الجواب على كل هذه الأسئلة وغيرها بسيط، وهو أن هذه الشعوب ونخبها السياسية والثقافية لم تفهم الكردي يوماً. ولم تتقارب مع معاناته التاريخية التي سببتها له أنظمة هؤلاء الجيران، بل كانت تنظر إلى الكرد كأفراد وليس كشعب.

لن أعود إلى التاريخ القديم لأستعرض معاناة الكردي من جيرانه. بل سأتحدث عن معاناة شاب كردي بسيط من كردستان إيران هو الشهيد إحسان فتحيان. فهو نموذج للكردي في كل أجزاء كردستان الأربعة. لقد اختزلت معاناة الأمة الكردية في شخصية هذا الشاب، وعبر عنها بكلّ صدق وبساطة. أجاب هذا الشاب على كل تلك الأسئلة بوضوح قبل إعدامه في صبيحة ٢٠٠٩/١١/١١ حين أقتيد من زنزانته إلى منصة الإعدام ونفذ الحكم به بتهمة ملفقة وهي «محاربة الله ورسوله».

أولاً:

ما من أحد لا يخشى الموت، بما في ذلك المؤمن الذي يتوقع أنه سيدخل الجنة ويعيش فيها خالداً مخلداً مع حورياته. الخوف من الموت صفة مشتركة لكل البشر منذ ما قبل أسطورة كلكامش وحتى الآن. لكن الحديث في موضوعنا يجري عن نوع مختلف من الموت يتمّ اختياره وقبوله بشجاعة، أو لنقل بخوف أقل إذا جاز التعبير. نعرف نوعاً من الموت يسمّى الانتحار. كأن ينتحر العاشق لأنه حُرم من حبيبته، أو الجنرال الذي هُزم في معركة، أو الغني الذي خسر ثروته فجأة في البورصة. وثمة إجماع حول هذا النوع من الموت على أنه تعبير عن اليأس وفقدان الأمل بالمستقبل.

هناك حالة أخرى من الموت أكثر ندرة، وهي أن يختار الإنسان الموت، أو يتقبله كشكل من أشكال التمرد والاحتجاج على واقع لا يستطيع قبوله. هذا النوع من الموت الاختياري ظاهرة إنسانية فريدة، يكون للموت معنى آخر غير المعنى الذي نعرفه ونرتعب منه. إنه الموت الذي يدخل في صلب ظاهرة الشاب إحسان فتحيان المتمرد.

يعيش الإنسان عادة حسب معايير مجتمعه. وفي إطار هذه المعايير يسعى إلى أن يحقّق ذاته ويجسد حريته. ولعل الشباب أكثر من غيرهم يسيرون في هذا الاتجاه بإرادة قوية تصل إلى درجة المغامرة، وكانوا في كل العصور مشاريع بناء وإرادة التطلع نحو الأفضل. لكن عندما يصطدم الشاب بالعوائق الاجتماعية والسياسية والمادية التي تضع الحواجز أمام حريته وخياراته، تتحوّل رغبته في تحقيق هذه الحرية إلى هدف يسعى من خلاله لتجاوز تلك العراقيل. وعندئذ يبدأ برسم آفاق أرحب، تصيغ الفضاء الذي يستطيع أن يكتشف فيه وجوده الإنساني وخيار حريته. هذا الهدف ينتج عن حقيقة صادمة وهي أن التعايش مع هذا الواقع غير ممكن. لأنه واقع يجرده من كل عواطفه وأفكاره وتطلعاته الحياتية. فيتمرّد على هذا الواقع بقوة، ويسعى لإزاحته من أمامه وأمام غيره بتغييره. ولكن سرعان ما يكتشف أنّ المسألة ليست بهذه السهولة، وأنّ هذا الواقع الظالم يملك قوّة القانون، وله قُضاته وبوليسه وسجونه. عندئذ يضطر أن يفكر خارج هذا القانون الذي يعتبره قانوناً باطلاً. فالظالم هو الذي صاغ تلك القوانين ضد المظلومين لتعزيز سلطته. وبالتالي يرى المظلوم أن الالتزام بهذا القانون يعني الاستسلام للظلم والخضوع للظالم. من هذه المعادلة يأخذ المتمرد شرعية تمرده على الظالم وعلى قوانينه ومؤسساته.

تبدأ بوادر هذا التمرد عندما يصيغ تطلّعه للحرية على شكل مبادئ وأهداف أولية تمكنه من البحث عن وسائل للقضاء على الظلم.

جاء في رسالة إحسان فتحيان قبل إعدامه ما يلي: «لقد ولدت في كرمنشاه كأحد مواليد البشرية، وبدأت بالحياة فيها وشعرت فيها بالظلم والقمع، ولهذا بحثت كثيراً عن السبل من أجل التخلص من هذا

الوضع». هكذا بدأ هذا الشاب مسيرته. فقبل أن يتمرد على الظلم دخل في حوار داخلي مضنٍ إلى أن وصل إلى نتيجة وحيدة وهي أن لا خيار أمامه سوى التمرد على هذا الظلم. قال في رسالته: «.. ولكن مع الأسف كل السبل كانت مغلقة أمامي، ولهذا اضطررت ...».

في الحقيقة كلما اشتدّ الظلم والاضطهاد على الإنسان، تعمَّقَ هذا الحوار الداخلي ليتجاوز حالته الفردية إلى حالة العقل الجمعي. وبالنتيجة يظهر أمامه طريقان، إمّا أن يستسلم للظلم والاضطهاد ويتعايش معهما، وبالتالي يجد مكاناً له بين قطيع المستسلمين. وإما أن يتمرد ويقول «لا».

عندما يقارن الإنسان في هذه الحالة بين كلفة الاستسلام وكلفة قول: «لا» يجد أن كلفة الاستسلام باهظة، ومن المستحيل أن تتقبلها النفسية التواقة للعدل والحرية. وهذا ما فعله إحسان فتحيان.

لهذا التمرد خلفية فكرية عميقة تعرّضَ لها كبار المفكرين العالميين. وقد كرس ألبير كامو كتاباً كاملاً حول مسألة التمرّد بعنوان «الإنسان المتمرد». نقرأ في هذا الكتاب أن العبد عندما يقول لسيده: «لا»، يعني ذلك أنّه وصل إلى درجة أنّ ما يجري لم يعد قابلاً للتحمل. بمعنى آخر، أنّ الأمور استمرّت أكثر ممّا يجب، وأنها كانت مقبولة حتى هذا الحد، ومرفوضة فيما بعده.[1]

صحيح أنّ إحسان فتحيان لم يكن مفكّراً ولا فيلسوفاً. وكان ما يزال طرياً على مختلف الصعد. لكن الإنسان العادي قد يجسد فكرة فلسفية من خلال سلوكه أكثر ممّا قد ينتجها فيلسوف ما. لقد توصل هذا الشاب إلى نتيجة مفادها: أنّ ما يقوم به النظام الإيراني ضد بني جلدته خرج عن حدود التحمل، على الأقل عن حدود تحمله وتحمل رفاقه. وكان لا بد أن يخرج من مدينته التي يعشقها ليتمرد على الاضطهاد. لقد برزت المقاومة عنده الوسيلة الوحيدة لإعادة

"يتساءل أحياناً العرب والفرس والترك باستغراب لماذا الكردي سريع التمرد؟ لماذا يقاتل بشراسة دون التفكير بالنتائج؟ لماذا هو عنيد إلى درجة يشبهون عقله بالحائط؟ لماذا لم ينصهر في الإسلام رغم كل ثقل الإسلام السياسي والثقافي عليه عبر قرون وظل يعتبر عاداته وتقاليده وتراثه فوق الإسلام؟ لماذا لم ينصهر في القومية العربية والفارسية والتركية رغم كل الأساليب البربرية التي استخدمتها حكومات هذه الشعوب لتحقيق هذه الغاية؟"

العدل لوجوده ولوجود شعبه. إنّها التحدي الممكن لواقع ما عاد بإمكانه تحمله، وبات هذا التمرّد هو الطريقة الوحيدة إلى الحرية. هكذا جسد إحسان فتحيان في خياره ضمير الإنسان الكردي الذي تُسحق إنسانيته تحت أقدام الأنظمة الاستبدادية. هذه الأنظمة التي تريد دفن الكردي في حفرة اليأس وإجباره للتخلّي نهائياً عن التفكير بخصوصيته القومية، ويتعود مع الزمن على العبودية كمصير محتوم لوجوده. في هذه الحالة تحمل كلمة «لا» المعنى الأعمق لقيمة الحرية كمفهوم إنساني وصرخة مدوية لشعب يريد أن يكون له وجوده الخاص مثل بقية الشعوب.

ثانياً:

نعلم أنّ تاريخ البشرية مليء بمظاهر الظلم منذ العصر العبودي الأول. وبالتوازي مع هذا الظلم فهو تاريخ حافل بالتمرد أيضاً. صحيح أنّ تطور المجتمع البشري قد لفظ الكثير من مظاهر الظلم، لكن في الوقت نفسه أنتج مظاهر

جديدة أكثر شناعة . إن الظلم الممارس على الكردي يعود إلى عصور سحيقة. فالأنظمة التي قضمت كردستان تتعامل مع الكردي على أنه مجرد حجر في عمارته. فكما لا يطلب من الحجر أن يختار مكانه في العمارة، لا تقبل هذه الأنظمة أن يكون للكردي خياره، كيف يعيش وعلى أي مستوى تكون العلاقة مع محيطه غير الكردي. فجوهر المسألة ألّا يكون له حق الحرية، ويبقى مثل أيّ عبد يقبل بعبوديته. على هذه القاعدة اُستبيح الدم الكردي بنفس الرخص الذي كان يستباح فيه دم العبيد في اليونان القديمة وفي أمريكا حتى الأمس القريب.

في تاريخ الحركة الكردية الحديثة لم ينتفض الكردي ضد الاضطهاد والتمييز الممارسين عليه لكونه كردياً فقط، بل كان رداً إنسانياً على الذين سعَوا، وما زالوا يسعَون لاجتثاثه من المكان. يريد هؤلاء الطغاة أن ينسى الكردي اسم كردستان، وأن ينسى اسم مدينته وقريته، بل وأيّ اسم يدل على هويته. لقد قاموا بترحيل ذهنه من الجغرافيا ومن ذاته. غيّروا أسماء أمكنة تواجده. وحرموه أن يطلق حتى الأسماء الكردية على أولاده. لقد كان تغريب المكان (حسب تسمية الشاعر سليم بركات) قاسياً على الكردي بنفس مستوى تغريبه عن ذاته.

يدرك الكردي العادي مثل الكردي السياسي والمثقف، أن ما قامت به الأنظمة القاضمة لكردستان من تغيير أسماء المكان، وحرمانه من أن يحمل اسماً كردياً، هو نوع آخر من الحكم عليه بالموت. فالهدف من هكذا عمل هو اجتثاث الكردي من المكان واجتثاث المكان من ذاكرته. وبالتالي القضاء على البقية الباقية من ذاكرته التاريخية. كان لدى جيران الكرد قانوناً واحداً تجاهه، يجب أن ينقرض الكردي.

يقول السجناء: إن أقصى معاناة كانوا يعانونها عندما يتحولون إلى رقم بدل أسمائهم الحقيقية. فالرقم يرمز إلى الأشياء. ولهذا يقول العلماء: إنّ مادة الرياضيات مادة جامدة. والغريب في الأمر أنّ الاستعمار الغربي قلما جرّد الناس في المستعمرات من مكان تواجدهم ومن أسمائهم. عندما نعود إلى الخرائط الفرنسية لسوريا في عهد الانتداب، نجد أنّ جميع المواقع حملت نفس الأسماء التي كانت متعارفة عليها بين الناس عندئذ. ولم تقم بتغيرها كما فعلت الأنظمة القاضمة لكردستان.

فالعلاقة الوجودية مع المكان ظاهرة إنسانية. لا يستطيع الإنسان أن يتصور العيش في فراغ. وبالتالي فهو غير قادر على أن يعيش عندما يُسلب منه المكان. صحيح أنّ الاسم بحدّ ذاته لا يعني الشيء الكثير في الحالات العادية. وهناك بلدان ومدن عريقة تغيّرت أسماؤها مع الزمن. غير أنّ ذلك حدث ضمن مسار تاريخي طويل. أمّا ما تقوم به الأنظمة القاضمة لكردستان فهو عمل يجري عن سابق إصرار، ويهدف إلى إلغاء وجود كيان شعب بكامله. قد يستهجن الإنسان الأوروبي، عندما يسمع من المعارضة السورية وهي تصر على صيغة الأقلية الكردية في سوريا، وأنّهم لاجئون ويتهرّبون من صيغة الشعب الكردي السوري. لكنّ ذلك ليس جهلاً منهم بالمعرفة أو التاريخ، وإنّما استمراراً انتهج اجتثاث الكردي من المكان.

لا تكتفي هذه الأنظمة القاضمة لكردستان بإعدام الكردي، بل تقوم بإعدام تاريخه ولغته وثقافته أيضاً. ما الفرق بين قتل إنسان وتجريده من الحياة وبين القضاء المتعمد على ثقافة ولغة شعب؟ أليس كلا العملين يحملان صفة الجريمة الجماعية؟

قرأنا في الأدب العالمي، لا سيما في الشعر أنّ كبار الكتاب والشعراء أعطَوا مكانة خاصة لاسم المكان الذي ولدوا فيه. وهناك شعراء سمّوا بعض دواوينهم الشعرية بأسماء قراهم أو جبالها أو أنهارها. بكلمة أخرى كان الحنين للموطن مبعث نتاج أدبي رائع.

لا يمكن للإنسان أن يتمرد على الظلم إذا لم يكن لديه انتماء عميق للمكان الذي يحوي تاريخه وثقافته وتراثه. ولا يمكن أن يتمرد إذا لم يكن لديه شعور عميق بالانتماء إلى مجموع

المظلومين الذين يعانون ما يعانيه. فشعور الانتماء للمكان وللمجموع هو شعور إنساني خالد، يزيد من قوة الإرادة في التمرّد على الظلم والمقاومة والكفاح البطولي.

ثالثاً:

ما ميّز إحسان فتحيان أنّه وقع في حالة الخيار بين ذاته كفرد وحقه كمجموع. أيهما يختار؟ كان يريد أن يعيش بأمان في المكان الذي اختار له التاريخ، وضمن الكيان الذي هو جزء منه. فكلما نظر إلى حقه هذا وجد شعباً كاملاً يتعرض للانقراض. لقد اتحد الذات بالمجموع في داخله. فثار متمرداً.

ترصُد أوروبا المتحضرة مبالغ طائلة من أجل الحفاظ على حيوان نادر خوفاً من الانقراض. وتمول هذه الدول ومؤسساتها مبالغ كبيرة من أجل الحفاظ على التراث البشري القديم. بينما في الشرق، ترصد الأنظمة الاستبدادية موارد مادية ضخمة لفرض الانقراض على شعوب بكاملها (كما فعلت تركيا العثمانية مع الأرمن والسريان ومازالت تركيا الأتاتوركية تفعل مع الكرد). إنّ شعباً يتمرّد على هذا التفكير العنصري، مهما كان متخلّفاً، يجسد قيماً حضارية أعلى بكثر من هذه الأنظمة الشرقية المستبدة بكل تأكيد.

في تاريخ الشعب الكردي المعاصر يوجد المئات مثل إحسان فتحيان جابهوا الموت كشكل من أشكال التمرد وقالوا «لا» في وجه الطغاة. ففي الأربعينيّات من القرن الماضي انتفض كُرد العراق. وبعد فشل انتفاضتهم نتيجة التحالف بين الإنجليز والحكم الملكي العراقي جرى اعتقال وإعدام مجموعة من الضباط الكرد. جابه هؤلاء الموت بشجاعة منقطعة النظير. ففي كلماتهم قبل الموت ما يلفت الانتباه. قال النقيب مصطفى خوشناو موجهاً كلامه إلى جلاديه: «.. أنا فخور لكوني أعي أن اسمي سيبقى خالداً في ذاكرة أبناء جلدتي، ولن يطويه النسيان، وسيكون بمصاف أسماء أولئك الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل عظمة وسعادة كردستان». قال الرائد عزت عبد

> **إن الظلم الممارس على الكردي يعود إلى عصور سحيقة. فالأنظمة التي قضمت كردستان تتعامل مع الكردي على أنه مجرد حجر في عمارته. فكما لا يطلب من الحجر أن يختار مكانه في العمارة، لا تقبل هذه الأنظمة أن يكون للكردي خياره، كيف يعيش وعلى أي مستوى تكون العلاقة مع محيطه غير الكردي. فجوهر المسألة ألّا يكون له حق الحرية، ويبقى مثل أي عبد يقبل بعبوديته.**

العزيز: «إنّ شجرة الحرية مغمسة بدمي وبدماء رفاقي. عندي أمل بأنها ستزهر قريباً زهور الحرية والسعادة في وطني».

لقد وقف الإعلام العالمي مشدوهاً أمام خبر المقاتلة الكردية: بريفان سامسون في دفاعها عن مدينة كوباني ضد داعش. فعندما انتهت ذخيرتها، أطلقت الرصاصة الأخيرة على نفسها لكيلا تقع أسيرة بيد الدواعش. أي إرادة حديدية كانت تحملها هذه الفتاة التي جاءت من مدينة باطمان من كردستان تركيا لتدافع عن شعبها في كوباني. إن جيران الكرد لا يفهمون أنّ الكردي منذ بداية وعيه يحمل في نفسه آلام تاريخ شعبه. إنه يسمع هذا التاريخ من الأغاني الشعبية التي تغني له الأم منذ الرضاعة، ومن القصص والملاحم الشعبية المثخنة بالجِراح الكردية.

هناك أشكال مختلفة من مقاومة الظلم والاضطهاد في تاريخ البشرية. ولكن عندما يُحرم المظلوم من أي شكل من أشكال التعبير

عن رفضه للظلم، ويُجرّد من إنسانيته، يتحول الموت متمرداً عندئذ إلى آخر ما يستطيع أن يقوم به لكيلا يحقّق الظالمون انتصارهم عليه. فأن يموت المقاوم بتهمة هويته دون الاستسلام يعطي لهذه الهوية قانون البقاء. صحيح أنّ الموت يُنهي المقاوم جسدياً، لكن في الوقت نفسه تنتقل فكرة المقاومة إلى داخل نفسية الطاغية، لتمارس هذه المرة عملاً كفاحياً داخل دماغه. لذلك قالت بيريفان إنّ مقاتلي دواعش يرتعبون من المقاتلة الكردية.

إنّ شراسة الطاغية ضد المقاوم تكشف مدى خوفه منه. فعندما يموت المقاوم دون أن يستسلم، يصبح الخوف رفيق الطاغية حتى في نومه، وتراوده هواجس انهيار سلطته. ويقف الطاغية بالذات هذه المرة وجهاً لوجه أمام فكرة الموت.

كشف لنا التاريخ أنّ الطغاة كانوا أكثر جبناً أمام الموت عندما جُردوا من سلطتهم مقارنة مع أولئك الذي تعرّضوا للموت في ظل استبدادهم. وهكذا ازداد الطغاة شراسة كلما قام الشعب الكردي بانتفاضة جديدة.

هناك تحليل بسيط لقساوة الطغاة العرب والفرس والترك ضد الشعب الكردي. فهؤلاء الطغاة يعرفون أنّ أيديهم مغمسة بالدم الكردي بسفالة ونذالة. ولهذا يبقى الهاجس الكردي يطاردهم حتى في حلمهم. إنّهم لن يرتاحوا مادام هناك كردي واحد على الأرض يرفض الاستسلام. وهذا سر مقولة القوميين الترك الذين يكررون حتى الآن أنهم سيقفون ضد دولة كردية حتى وإن كانت في أفريقيا. وهذا أيضاً هو سر اختزال السلطان العثماني الجديد أردوغان في استراتيجيته منع كرد سوريا من الحصول على بعض حقوقهم.

عندما رفض إحسان فتحيان أن يسحب الجلاد الكرسي من تحت قدميه، وقام بهذا العمل بنفسه، لم يكن ذلك مجرد شجاعة قصوى وشهامة، بل يكشف هذا التصرف الفريد أن المقاوم يفضل الموت اختياراً من أجل الحق الذي بسببه يُعدم. لقد وضع الحق فوق مصيره الذاتي، ليكون عمله هذا آخر رسالة يتركها وراءه. تتضمن هذه الرسالة نقطتين: النقطة الأولى: موجهة لشعبه بأن حقّه المستلب يستحقّ هذا المصير. والأخرى: موجّهة للطاغية الإيراني بأنّ تمرده عليه حالة إنسانية عميقة أكثر من الدفاع عن حق شعبه. كان قيام إحسان فتحيان بدفع الكرسي من تحت قدميه بنفسه الصرخةَ الأخيرة ليقول للطغاة: «لا». وكانت صرخة مدوية في ضمير الشعب الكردي لطالما بقي الظلم رابضاً على كاهله.

قد يتساءل البعض لماذا يقوم المناضل بهكذا عمل، مع العلم أنه ليس أقل من غيره حباً للحياة. إنّ تحليل هذه الظاهرة ليس مستعصياً على الفكر البشري. فعندما يُجرّد الإنسان من كل مظاهر إنسانيته، ويعزل عن المجتمع وعن العالم، لا يبقى أمامه سوى هذا الشكل الوحيد لأن يقول «لا» لطغاته. إنه يدرك نهايته. لكنه يريد أن يكون لهذه النهاية معنًى خالدٌ. قانونٌ أقوى من قوانين الطاغية.

نستطيع أن نتصوّر صراعاً حادّاً يجري في هذه الحالة بين الطاغية في شخصية السجّان والمقاوم في شخصية السجين. إنه صراع يجري في مكان وزمان غير متكافئين. فالسجان يملك كل أسباب السيطرة على المسجون. يملك حتى حق اغتصاب الحياة منه. لكنّ المسجون لا يملك سوى حقٍّ واحد؛ وهو التحمل لكيلا ينكر ذاته. كلّما صمد المسجون وأظهر للسجّان أنّه مستعد للموت، شعَرَ السجّان بالإهانة والهزيمة. يريد السجّان أن يرى المسجون مرعوباً مستسلماً يتضرّع له، ويتخلّى عن ذاته. وعندما لا يتحقق له هذا الأمر، فإنّه يشعر بالخُزي وبذلٍ داخلي. ويدرك عندئذ أنه هو المهزوم أمام المسجون، وأن ما يملك الأخير من قيم بشرية هي أمتن بكثير من وسائل تعذيبه. يصل السجان إلى استنتاج أن المقاوم لن يسمح له بأن يجتث ما في داخله مهما استعمل من وسائل وحشية في تعذيبه. وأن ما في داخله له أهمية أكثر من عذابه وموته.

يقول ألبير كامو لماذا يثور الإنسان لو لم يكن هناك في ذاته شيء يستدعي الصيانة؟(٢) وهكذا يكشف المقاوم في تقبّله الموت بشجاعة أنّ ما في داخله قضية عادلة لا يستطيع المساومة عليها.

عندما ننظر إلى حال سجناء الكرد في سجن ديار بكر أثناء الحكم العسكري في ثمانينيّات القرن الماضي، وإلى أقوال سجناء الكرد في العراق والذين سبقت الإشارة إلى أقوالهم سنتوصل إلى فكرة جوهريّة، وهي أنّ هؤلاء المقاومين حدثت لديهم حالة صوفية من التوحد مع قضية شعبهم. حالة تتخطّى الانتماء الحزبي والأيديولوجي. لقد توصلوا إلى قناعة أنّ استسلامهم للطغاة وانهيارهم أمام الموت يتجاوز حالتهم الفردية ليصبح استسلاماً وانهياراً لشعب بكامله. وما كان بإمكانهم قبول ذلك بأي وجه من الأوجه.

أن الوصول إلى هذه الحالة لا يتطلب بالضرورة ثقافة عالية. كل ما في الأمر أنّ المقاوم ينتقل من حالة «الأنا» إلى حالة «النحن».

يقول ألبير كامو: « الحقيقة أنّ الفرد إذا قبل الموت، ومات في الوقت الموافق لحركة تمرّده، فإنه يدلل بذلك على أنّه يضحي بذاته في سبيل خير يعتبر أنه يتجاوز مصيره الخاص».(٣) والتاريخ البشري مليء بهذه النماذج من المتمردين منذ سبارتاكوس.

يأتي التأكيد على الذات في الفكر الوجودي من خلال ممارسة الحياة بحرية. وإذا لم تتحقق هذه الممارسة فإن الوجود والعدم واحد. وهكذا يتحوّل الموت عند المتمرّد والمقاوم كشكل آخر من استمرار الحياة. وهذا جوهر شعار المقاومين الكرد عندما يقولون: «المقاومةُ حياةٌ». يريد المقاوم أن يؤكد للطاغية بأن موته بإباء هو ترسيخ لرمزية استمرار كيان إنساني يخشى منه الطاغية، وأن هذه المعاملة القاسية بحقه تدلّ على مدى ارتعاب الطاغية من فكرة تمرّده.

كلما ازداد السجان قسوة تجاه المقاوم اكتشف هذا المقاوم عدالة قضيته. وبالتالي ازداد التصاقاً بها. ورأى في موته مستقبلاً آخر يتجاوز حياته. وهذا ما عبر عنه إحسان فتحيان عندما قال في رسالته: «إذا كان المستبدّون الظالمون بقتلي سيقضون على قضية كردستان والكرد، فذلك خيال أجوف، هم بقتلي بل وبقتل آلاف الشباب من أمثالي لن يستطيعوا إطلاقاً تحقيق هذا الهدف، فكل موت يجلب معه حياةً جديدة».

قد لا ندين المعتقل الذي ينهار تحت التعذيب الجسدي والنفسي. فالإنسان له حدود للتحمل، وعندما يُمارَس بحقه تعذيب وكأنه حيوان، فمن الطبيعي أن ينهار؛ لأنّه دلالة على أنّ الظالم لم يعد إنساناً. وحتى هذا الانهيار شكل تراجيديّ للإدانة. إن المتعة التي يحصل عليها السجّان من خلال استسلام السجين، هي غريزة حيوانية. ولا عجب هنا أن تنهار أحياناً غريزة الإنسان أمام غريزة الحيوان.

لكن الذي يرفض الاستسلام ويرضى بالموت، هو الذي لا يقبل أن تنهار الغريزة الإنسانية أمام الغريزة الحيوانية. يقول ألبير كامو: «لا يتحرّر العبد إلا برفض يتطابق مع الموت» (٤)

يا ترى هل وصلت رسالة إحسان فتحيان إلى جيران الكرد من الفرس والترك والعرب ونخبها السياسية والثقافية، وهل سيفهمون لماذا يتمرّد الكردي؟

الهوامش:

-1 الإنسان المتمرد لألبير كامو ترجمة نهاد رضا، الطبعة الثالثة 1983، صفحة 18.

-2 المصدر السابق، الصفحة 21.

-3 المصدر السابق، الصفحة 21.

-4 المصدر السابق، الصفحة 182

العلاقات الكردية العربية
(بداية العصر الحديث_3)

عبد الله شكاكي

دور الكرد في مقاومة الصليبيين وبناء مصر

بعد سقوط الدولتين الكرديتين الرواديّة والشدّادية في جنوب القوقاز أمام الغزاة التركمان والسلاجقة، لجأت الأسرة الأيّوبيّة وعلى رأسها شادي جدُّ صلاح الدين إلى جنوب كردستان، واستقرّت في تكريت، حيث لمع اسم شيركوه وأخيه أيّوب عندما أصبح شادي والدهما قائداً للشرطة في تكريت، وبسبب قيام شيركوه بقتل أحد الضباط لاعتدائه على امرأة صدر قرار إبعاد الأخوين من تكريت فلجأ إلى الموصل ثم إلى بعلبك بتدبير من عماد الدين زنكي، وعمل الأخوين في جيش الزنكي، وبعد أن دبّ الضعف في الدولة الفاطمية في مصر، وقيام وزيره شاور بعقد علاقات مشبوهة مع الفرنجة، لمع دور شيركوه التاريخي.

ـ شيركوه (أسد الدين) بن أيّوب (ت ١١٦٩): هو عم صلاح الدين الذي قام بواجب الدفاع عن مصر، وجهز حملته العسكرية الأولى سنة ١١٦٤م وقادها بنفسه يرافقه صلاح الدين ابن أخيه وكان قد أشرف على تنشئته وتدريبه إلى مصر، وحدثت الحملة الثاني سنة ١١٦٧م ، وكان شيركوه قد جهّزَ فرقته الاسدية (نسبت إليه) وبلغ عدد المتطوعين فيها لاحقاً /٨٦٤٠/ فارساً بكل معداتهم، بينهم /١١١/ أميراً كردياً، وتوفي في مصر إثر تحريرها بعد الحملة الثانية، وكانت الفرنجة قبلها قد استولت على ولايات رها والبيرة وآديمان وديار بكر ومراش بقيادة الكونت جوسلين، حيث أرادوا السيطرة على عموم بلاد العرب وكردستان، ويمكن إيجاز أعمال شيركوه العسكرية في حماية مصر من الصليبيين لعجز الدولة الفاطمية الدفاع عنها وتوحيدها مع بلاد الشام تحت سلطة الدولة الزنكية تمهيداً لتأسيس الدولة الأيّوبية، وفيها تقلّدَ منصب الوزارة في الدولة الفاطمية لكنه توفي بعد شهرين وذلك سنة ١١٦٩.

ـ صلاح الدين الأيّوبي (يوسف بن أيّوب) (١١٣٨ـ١١٩٣): كتب ديفيد مكدول في وصفه كردستان «لقد نالت كردستان سمعة مشابهة لسمعة أسكتلندا كموطن معترف به للقادة، والأشهر من بين هؤلاء القادة هو صلاح الدين الأيّوبي، الذي تمكّن من هزيمة الصليبين بشكل نهائي وإقامة السلالة الأيّوبية»[1]، كما وصف بـ"البطل الأنقى" حسب تعبير ألبير شاندو أحد أحفاد الفرنجة، وهو مؤسس الدولة الأيّوبية بعد إزاحة الدولة الفاطمية وكان عمله هذا موضعَ ترحيب من قبل الخليفة العباسي "العاضد"، التي ضمّت بلاد الشام و مصر و ليبيا و الحجاز واليمن، فهو قائد عسكري بارع وبطل معركة حطين ومحرّر القدس، وهو من وضع أولى أواصر الوحدة بين الشعوب العربية (باستثناء المغرب العربي) من جهة، وبين العرب والكرد من جهة ثانية، اشتهر بتسامحه، واتخذت مصر ودول عربية أخرى من نسر صلاح الدين رمزاً لها، ويسجل له حمايته للمسيحيين الشرقيين (خصوصاً أقباط مصر)، الذين أحبوه ووضعوا صورته في كنائسهم وأديرتهم، فصورة صلاح الدين المنشورة في جميع أرجاء العالم اليوم منقولة من كتاب روسي مأخوذ من دير قديم بمصر، وهذا **ما دفع (عبد المنعم الأندلسي) لنظم قصيدة في مدحه، ومنها:**

فحطوا بأرجاء الكنائس صورة
لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم
يدين لها قس ويرقى بوصفها
ويكتبه يشفي به في التمائم

كما يشهد التاريخ على الروح السمحة التي تميز بها، يقول القاضي **(وليام. و. دوغلاس)**: «عندما استولينا على القدس قطعنا آلاف الرؤوس، وحين حرّرها واستعادها صلاح الدين، بدا في رأيي أكثر مسيحية من المسيحيين، لأنه لم يضرب عنقاً واحداً[2]. وحسب قول هاملتون جب: «أن صلاح الدين كان يدعو بني جلدته في كردستان للمجيئ إلى مصر عبر رسائله الموجهة لهم» والدفاع عن بلاد المسلمين، كما وجّه رسائل مماثلة للمجيء إلى جبل الكرد-عفرين الذي كان مسكوناً من قبل الكرد للدفاع عنهم تجنباً لقدوم حملات صليبية جديدة عبر ممرّ بيلان على جبل الأمانوس المطل على البحر المتوسط والمشرف على عفرين، يذكر أن الأسرة الأيّوبية تنتمي إلى العشيرة الراوندية وهي فرع من القبيلة الهذبانية الكردية كانت تقيم في جنوب القوقاز في بلدة «دڤين» (دبيل بالعربية) وعشيرته هي التي أسست أول دولة كردية إسلامية في جنوب القوقاز وذلك في

١ ديفيد مكدول: تاريخ الاكراد الحديث ــ مرجع سابق ــ ص61

٢ دانا ادمز شمدت، رحلة الى رجال شجعان في كردستان، ترجمة و تعليق: جرجيس فتح الله، دار آراس ط2 1999 / اربيل، ص10.

القرن العاشر (٨٤٦-١١٢٦)م. ولظروف قاهرة رحلت أسرته إلى العراق. وولد صلاح الدين سنة ١١٣٧ في قلعة تكريت في الليلة التي صدر قرار ترحيل أسرته منها إلى الموصل. ثم رحلت لظروف قاهرة ثانية إلى بعلبك في لبنان. كما نشير أن السلطنة الأيّوبية التي أسّسها صلاح الدين بدأت من مصر سنة ١١٦٩. وانتهت سنة ١٥٢٤م في مملكة حسنكيف بشمال كردستان. حيث ضمت السلطنة من البلاد العربية: مصر- ليبيا- السودان الحجاز- اليمن (زبيد وصنعاء)- فلسطين- الأردن (إمارة الكرك)- لبنان (إمارة بعلبك)- سوريا (حكومات: الشام وحمص وحماة وحلب. ومن كردستان إمارتَي فارقين وحسنكيف اللتين ضمتا جزءاً من ولاية الموصل والجزيرة وماردين وآمد ومحيطها. بمعنى تمكن صلاح الدين الأيّوبي من توحيد الشرق الأوسط في دولة فيدرالية ولأول مرة. مؤلفة من ممالك وإمارات شبه مستقلة. دون تحيز لدين أو تعصب لقومية. لأنه سليل شعوب الشرق الأوسط من الكرد والعرب... وأديانهم من مسلمين وإيزيديين ومسيحيين ويهود. وهذا ما تصبو إليه الشعوب العربية والكردية. وتوفي صلاح الدين في دمشق ودفن فيها وضريحه بجوار الجامع الأموي.

ونذكر فيما يلي عدداً من الشخصيات الكردية على سبيل المثال وليس الحصر. والتي ساهمت بفاعلية لتأسيس جسر تاريخي بين العرب والكرد في مرحلة ما بعد الأيّوبيين:

- محمد علي باشا (١٧٦٩- ١٨٤٩): سليل أسرة كردية من آمد. ولد في قرية قولة المكدونية غرب استانبول بـ ٣٠٠ كم توفي والده إبراهيم وتوفيّت والدته أيضاً وهو في الرابعة من عمره. وكان لوالده سبعة عشر ولداً لم يعش منهم غيره. وقد كفله عمه توسون آغا. وبمقتل عمه بأمر من السلطان العثماني أضحى بلا أهل أو بيت يأويه. حيث ضمه أحد أصدقاء أبيه ويدعى خربجي براوسطه إلى أولاده. وقد تعلم أن لا سبيل لحياة كريمة إلا بالاعتماد على الذات

"كتب ديفيد مكدول في وصفه كردستان • لقد نالت كردستان سمعة مشابهة لسمعة أسكتلندا كموطن معترف به للقادة، والأشهر من بين هؤلاء القادة هو صلاح الدين الأيوبي، الذي تمكّن من هزيمة الصّليبين بشكل نهائي وإقامة السلالة الأيوبية"، كما وصف بـ"البطل الأنقى" حسب تعبير ألبير شاندو أحد أحفاد الفرنجة، وهو مؤسس الدولة الأيوبية بعد إزاحة الدولة الفاطميّة."

وامتلاك القوة. عمل موظفاً لفترة ثم انتقل إلى التجارة وبقي فيها حتى سنة ١٨٠١ وهي السنة التي انسحبت فرنسا من مصر. وفيها تبدأ ولادة محمد علي الثانية. حيث انتسب إلى الجيش العثماني وتوجّه إلى مصر ضمن قوة بحرية قوامها ثلاثمائة جندي ألباني بقيادة علي آغا ابن خربجي براوسطه وهو ابن مربيه. وكان محمد علي قد انضم إلى تلك القوة في وقت سابق وأصبح معاوناً لقائدها. وشاركت تلك القوة في المعارك ضد الجيش الفرنسي. وقد ترك علي آغا تلك القوة في عهدة نائبه البكباشي محمد علي عائداً إلى «قوله».

شهدت جغرافية مصر وقتها صراعات متعددة بين عدد من القوى:

١- السلطة العثمانية الضعيفة أرادت تثبيت وجودها من خلال تصفية بقايا المماليك.

٢- المماليك حاولوا إعادة فرض سيطرتهم بعد أن أبعدوا عن السلطة من قبل العثمانيين إثر

معركة الريدانية سنة ١٥١٧م.

٣- الإرادة المصرية في مقاومة صنوف الاحتلال والتي ظهرت أثناء الاحتلال الفرنسي وبدعم من علماء الأزهر.

٤- محاولات الإنكليز للبحث عن موضع قدم في مصر من خلال إثارة الفتن بين الجميع وكانوا يريدون بقاء السلطة العثمانية في مصر، لكن في وضع ضعيف ليتمكنوا من فرض شروطهم عليها.

في مواجهة هذا المشهد كان على «محمد علي» إما الانسحاب أو الدخول في اللعبة الدولية، وقد اختار خوض غمار اللعبة، وذلك من خلال الاتصال مع جميع الفرقاء وتقديم نفسه كداعٍ للسلم والتوفيق بين الأطراف وليس كمنافس، وبحنكته السياسية تمكن من إفشال الوالي العثماني خسرو باشا في تصفية المماليك وفرّ إلى دمياط، كما فشل الوالي الجديد طاهر باشا في إعادة الأمور إلى نصابها، حيث ثار الجند عليه وقتلوه، كما فشل الوالي الثالث خورشيد باشا في القضاء على المماليك رغم استعانتهم بفرق الدالاتية (المرتزقة) من الشام، وعمّت الفوضى في البلاد وكثرت جرائم القتل والنهب وخاصة من الدالاتية والجنود لعدم دفع مستحقاتهم الشهرية، وكان محمد علي يعزّز علاقاته مع الشعب لكسب قلوب الجماهير، في وقت كان الوالي العثماني خورشيد يرهق الشعب بالضرائب الثقيلة، ويسعى لدى الباب العالي من أجل إبعاد محمد علي إلى ولاية أخرى، ونجح في إصدار قرار بنقله إلى الحجاز، لكن محمد علي تصرف كوالٍ واضعاً شارة الوالي وزاد اهتمامه بأمور الشعب، وخرجت المظاهرات ومعهم علماء الأزهر وأغلقت المحلات التجارية لوضع حد لتصرفات الوالي والجنود الذين يفرضون الأتاوات، وطالبوا بخلع الوالي وتعيين محمد علي بدلاً عنه.

بغية تحقيق النجاح حاول محمد علي إقناع الباب العالي للموافقة على خلع الوالي خورشيد عن طريق رسائل باسم علماء الأزهر من جهة، وزيادة تحريض الجماهير ضد خورشيد، كما جرت مفاوضات بين الوجهاء وضباط القلعة حول قبول اختيار الشعب للحاكم، كما جذب محمد علي كافة الجنود الألبان (الأرناؤوط) إلى جانبه، وفي تلك الأثناء وصل مندوب الباب العالي إلى الإسكندرية لإنهاء التمرد في مصر، وقد أسرع محمد علي والعلماء والوجهاء لاستقبال المندوب في تموز ١٨٠٥ وحراسته، حيث أعلن المندوب تعيين محمد علي والياً على مصر، وهكذا أصبح الطفل اليتيم قبل ٣٥ عاماً حاكماً على مصر العظيمة لكنه تابعٌ للدولة العثمانية، وبعد فترة قصيرة حاولت الدولة عزله باستصدار قرار جديد لأنه استأثر قلوب الشعب، لكنه أوفد ابنه إبراهيم باشا بنقل رسالة من الشعب والعلماء والوجهاء بمعية سفير فرنسا إلى السلطان، حيث أصدر السلطان فرماناً جديداً بتثبيت محمد علي على ولاية مصر، والعقبة الأخيرة التي واجهته كانت حملة عسكرية إنكليزية، حيث تمكّن من إفشالها بمساعدة الجنود الألبان، وبالتالي تخلص من كافة العقبات التي واجهته، ومن ثم «منحه السلطان مصطفى الرابع خلعة وسيف شرف»[٣].

ثم تمكن محمد علي من تشتيت قوات المماليك والتخلص منهم بإعمال السيف بعد دعوتهم إلى القلعة، كما قمع الحركة الوهابية في نجد بحملة قادها ابنه إبراهيم باشا، وساعد السلطان في قمع ثورات جزر اليونان، واحتل قبرص وجزيرة رودس وضمتهما إلى ولاية مصر، كما توجهت قواته نحو عكا وفتحها ثم حمص وخاض معركة بيلان قرب عفرين وطرد القوات العثمانية إلى أن وصلت قواته إلى قونية حيث تدخلت الدول الكبرى وأوقفت الحملة بالتوقيع على معاهدة كوتاهيا، وتم بموجبها تولية محمد علي رسمياً على مصر والحجاز و كريت وابنه إبراهيم باشا على عكا ودمشق وطرابلس

٣ د. أحمد الخليل مرجع سابق ص ٢٣٩

وحلب.

قررت الحكومة المصرية الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية فجردت الأخيرة حملة ضخمة قوامها ثمانون ألف جندي مع أفضل الأسلحة، ودارت المعركة قرب نزيب سنة ١٨٣٩ وأسفرت عن هزيمة الجيش العثماني بقيادة حافظ باشا، وتم الاستيلاء على كامل الأسلحة وخزينة حافظ باشا.

تفرغ محمد علي بعدها للبناء الداخلي حيث اعتبر بحق مؤسس مصر الحديثة وصانع نهضتها، ومؤسس الدولة المصرية الثانية بعد صلاح الدين وموحد مصر مع بلاد الشام، وكان ينوي ضم الكرد إلى الوحدة لكن الدول الأوربية وقفت في وجه تقدمه، يقول الكاتب والمفكر عباس محمود العقاد: حسب بلاد الكرد شرفاً انها أخرجت للعالم الإسلامي بطلين خالدين تاريخياً هما: صلاح الدين الأيّوبي ومحمد علي الكبير، وقد تلاقيا في النشأة الاولى وفي النهضة بمصر وفي نسب القلعة اليوسفية إليهما (قلعة القاهرة)، فهي في البناء تنسب إلى صلاح الدين وبالتجديد والتدعيم إلى محمد علي الكبير٤، وقد توافد الكرد إلى مصر منذ العهد الأيّوبي وفي العهدين المملوكي والعثماني، خصوصاً في عهد محمد علي باشا وعائلته التي حكمت مصر حتى عام ١٩٥٢، وسمي احد اروقة الازهر الشريف برواق الكرد تيمناً بهم واعترافاً بدورهم في تاريخ مصر. وفي حي شبرا بالقاهرة توجد الجمعية الكردية التي أسسها كرد الصعيد، ومن العائلات الكردية المعروفة، عائلة تيمور باشا، وبدرخان، الأورفلي، زازا، وانلي، عوني، الكردي، الأباضية، خورشيد، والأغا... إلخ.

تقدّمت مصر في عهد محمد علي إلى مصاف الدول الكبرى، بفضل مهاراته السياسية والعسكرية ونبل أخلاقه وتجنب التعصب الديني والمذهبي، وأكرم الأقباط سكّان مصر الأصليين ومنحهم فرصة العيش بكرامة وأمان، وأخيراً

٤ دانا آدمز شميدت مرجع سابق ص ١٥٥ -١٥٦.

"كان محمد علي باشا سليل أسرة كرديّة من آمد، ولد في قرية قولة المكدونية غرب إستانبول بـ ٣٠٠ كم توفي والده إبراهيم وتوفيت والدته أيضاً وهو في الرابعةّ من عمره، وقد كفله عمه توسون آغا الذي قُتل بأمر من السلطان العثماني أضحى بلا أهل أو بيت يأويه، فقد تعلم أن لا سبيل لحياة كريمة إلا بالاعتماد على الذات وامتلاك القوة."

تقدم به العمر وضعفت قواه فتنازل عن الحكم لابنه إبراهيم باشا سنة ١٨٤٧ وعاش حياة هادئة لسنتين حيث توفي سنة ١٨٤٩، وأضحت إنجازاته إرثاً حضارياً ليس للشعب المصري وحده، وإنما لشعوب الشرق الأوسط قاطبة.

سليمان محمد أمين المشهور بـ «سليمان الحلبي»: شاب كردي من غرب كردستان-عفرين كان طالباً في جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة، ووالده محمد أمين تاجر زيت الزيتون يقيم في حلب، زار أهله وكانت والدته تحتضر وبعد وفاتها، سمع بظلم الفرنسيين للمسلمين فقرّر العودة إلى مصر للدفاع عن أهلها، ومع أنّ والده حاول منعه من السفر وأراد البقاء عنده لمساعدته لكنّه رفض البقاء، ومع أنّ طريق الوصول إلى مصر كان صعباً زمن الحرب، ومع ذلك تمكن الوصول وبصعوبة عن طريق غزة، وانتقم لشعب مصر الشقيق بقتله الجنرال كليبر خليفة نابليون بونابرت القاهرة سنة

١٨٠٠ لاعتدائه على قيم الشعب والإسلام، حيث طعنه بسكّينه بأربع طعنات في حديقة قصره وأرداه قتيلاً، ومن ثم قُبِض عليه وأعدم بالموت على الخازوق، ثم أحرقت يده اليمنى، وترك جثمانه طعاماً للعقبان، ثم نقلت عظامه ضمن صندوق إلى باريس، ووضعت جمجمة سليمان على رفٍ في إحدى قاعات متحف «إنفاليد» قرب متحف اللوفر في باريس٥ ، وعلى الرف الأعلى وضعت جمجمة كليبر.

أعلام الكرد في مصر

نبغ في مصر وغيرها من البلدان العربية طوال القرنين التاسع عشر والعشرين عددٌ كبيرٌ من العباقرة والكتاب والفنانين والقادة والتجار الكرد ففي مصر وحدها يفوق عددهم عن أربعمائة شخصية مشهورة، ويعود سبب هجرة أغلبهم نتيجة الإذلال والقهر من السلطة العثمانية، بعد إلغاء الإمارات والإدارات الكردية المتمتعة بالحكم الذاتي، وكذلك تصفية الثورات والانتفاضات الكردية في جنوب وشمال كردستان، حيث أصبحوا وأحفادهم من رواد حركة الاصلاح والتحرر والفكر والادب والفن في مصر والعالم العربي والإسلامي، من أمثال:

ـ أمير الشعراء احمد شوقي (١٨٦٩ـ ١٩٣٢) الذي أكّدَ انتماءَه للكرد لنقيب الفنانين العراقيين حقي شبلي في حفل تنصيبه أميراً للشعراء حيث هاجر جده في عهد محمد علي باشا إلى مصر، وأصبح أميناً للجمارك في عهد الخديوي سعيد، وكان جده من أمه أحمد حليم النجدلي (نسبة لمدينة (نغدة- نـگده) جنوب بحيرة أورميه في شرق كردستان، بمعنى جده من الأب والأم كرديين، لكن جدته من الأم يونانية ومن الأب شركسية، ولما تخرّجَ من كلية الحقوق قسم الترجمة استقبله الخديوي توفيق وهنأه، وقد نفي من قبل الإنكليز إبان الحرب الكونية الأولى إلى برشلونة ثم عاد بعد الحرب، وأصبح أكثر قرباً من الشعب في شعره، وكان بيته منتدى الأدباء والشعراء، وزاره طاغور شاعر الهند الكبير سنة ١٩٢٦، واختير عضواً في مجلس الشيوخ.

اشتهر أحمد شوقي بديوانه الشعري «الشوقيات»، المؤلف من أربعة أجزاء، زاد شعره عن ثلاثة وعشرين ألف بيت وهذا الرقم لم يصله شاعر بالعربية، وله نظم «دول العرب»، وسبع مسرحيات شعرية.

ـ عبد الرحمن الكواكبي (١٩٠٢) المولود في حلب وتوفي مسموماً في مصر وتعود أصوله إلى مدينة أردبيل في أذربيجان، كان مناهضاً للحكم العثماني وسجن ونفي مرات، وكان مؤسس جريدة الشهباء، ومن مؤلفاته (طبائع الاستبداد وأم القرى).

ـ الإمام المصلح محمد عبده (١٨٤٩ـ ١٩٠٥): عالم دين ومفكر وقاضي وكاتب كردي الأصل مصري المولد والنشأة، وهو أحد دعاة النهضة والإصلاح، ساهم في تأسيس حركة فكرية لتجديد الإسلام والقضاء على الجمود الفكري والحضاري وإحياء الأمة الإسلامية، من مؤلفاته: رسالة التوحيد، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية وغيرها.

ـ قاسم أمين (١٨٦٣ـ ١٩٠٨): سليل أسرة كردية من أمراء السليمانية بجنوب كردستان نزحت إلى مصر وفيها ولد قاسم أمين بضواحي القاهرة، التحق والده محمد أمين بك بالكلية الحربية وتدرّج ضابطاً حتى وصل إلى رتبة مير آلاي، ووالدته مصرية، بعد إنهاء قاسم أمين الدراسة الأساسية، درس الحقوق في فرنسا وعاد إلى مصر، عمل في النيابة وأصبح رئيس النيابة في طنطا وبني سويف، وكان يهتم بنهوض الشعب المصري حيث كان وطنياً قولاً وفعلاً، وناضل من أجل حقوق المرأة وقال: - إنّ

٥ محمد علي الصويركي ، الكرد في بلاد الشام ومصر ص ١٥٠و١٥٣

الإسلام سبب تخلفها، ودعا إلى تحريرها، وأصدر كتابَين من أجلها «تحرير المرأة» و»المرأة الجديدة» كما أنشأ مجلة تحرير المرأة في الإسلام وجريدة التمدّن وجمعية النهضة الأدبية، وطالب بإعادة النظر في تربيتها، وانتقد بشدة مسألة تعدد الزوجات والحجاب وأسباب الطلاق والعادات والتقاليد التي تحد من تحررها ومساهمتها في بناء المجتمع، ولذلك تعرض لانتقادات وشتائم وخصومات من أصحاب الأفكار الرجعية، ومن أقواله:

«أقل مراتب العلم ما تعلمه الإنسان من الكتب والأساتذة، وأعظمها ما تعلمها بتجاربه الشخصية».

«في الأمة الضعيفة المستعبدة حرف النفي <لا> قليل الاستعمال»

ـ الأديب عباس محمود العقاد: هو أديب وشاعر وناقد أدبي وفيلسوف وسياسي ومؤرخ، ولد في أسوان سنة ١٨٩٩ وتوفي سنة ١٩٦٤وكان يفتخر بكرديته ويحتفل بعيد النوروز حيث أصوله من كردستان العراق، أخذ كنيته من والده الذي كان يعقد شباك صيد السمك، أشهر كتبه «العبقريات» وعشرات الدواوين الشعرية والكتب النقدية والفكرية، كما اشتهر ابن أخيه الاديب عامر محمود العقاد (١٩٣٦-١٩٨٥) وله مؤلفات كثيرة حيث تابع خطى عمه وجمع أعماله وأصدره.

ـ المؤرخ والمترجم محمد علي عوني (١٨٩٨ـ ١٩٥٢) وهو والد الكاتبة والصحفية درية عوني التي كانت تفتخر بكرديتها حتى وفاتها.

ـ العائلة التيمورية

تعود جذور العائلة التيمورية إلى الموصل في جنوب كردستان (العراق)، وكان جدّهم محمد كاشف أول من انتقل إلى مصر في عهد محمد علي باشا، وأصبح أحد قادته وشارك في حملة القضاء على المماليك، ثم أصبح والياً على بلاد الحجاز، **ونذكر أربعة من مشاهير هذه الأسرة**:

- الشاعرة عائشة التيمورية (١٨٤٠-١٩٠٢) هي ابنة إسماعيل تيمور باشا ولدت في القاهرة، وكانت تجيد اللغات التركية والفارسية إلى جانب العربية، ومن آثارها: حلية الطراز (ديوان شعري)، شكوفة (ديوان شعر بالفارسية والتركية)، مرآة التأمل في الأمور (موضوعات اجتماعية نثرية).

- المؤرخ والأديب أحمد تيمور باشا (١٨٧١-١٩٣٠)، ولد في القاهرة وتوفي والده إسماعيل باكراً فربّته أخته عائشة، وترك خلفه مؤلفات كثيرة منها: معجم تيمور الكبير في الأمثال العامية، اليزيدية، ومنشأ نحلتهم، ضبط الأعلام، الآثار النبوية، الحب والجمال عند العرب، السماع والقياس، معجم الفوائد.

- الأديب محمد بن أحمد تيمور (١٨٩٢-١٩٢١) هو شاعر وقاص ونثري ومن مؤلفاته: وميض الروح، الأقاصيص المصرية، المسرح المصري، عصفور في القفص وغيرها، ومما يؤسف له توفي باكراً.

- القاص والأديب محمود بن أحمد تيمور (١٨٩٤-١٩٧٣) لقب برائد القصة العربية وشيخ القصة، ولد بالقاهرة وأصبح عضواً في المجلس الأعلى للفنون والعلوم، بلغ مؤلفاته أكثر من خمسين مؤلفاً ترجمت إلى معظم اللغات الرئيسية في العالم، ومن رواياته: نداء المجهول، صقر قريش، النبي والإنسان.

كذلك الكاتب والصحفي إبراهيم رمزي الأرضروملي، وشيخ المقرئين الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد (ت ١٩٨٨)، والأديب المفكر أحمد الأمين، والأديب والمفكر الدكتور حسن زازا، و الدكتورة سهير القلماوي (١٩١١-١٩٩٧): والدها كردي وأمها شركسية، وهي أوّل امرأة تحصل على درجة الدكتوراه في الآداب، وتتولى رئاسة قسم اللغة العربية

> **كان سليمان محمد أمين المشهور بـ "سليمان الحلبي": شاباً كردي من غرب كردستان- عفرين، وكان والده محمد أمين تاجر زيت الزيتون ويقيم في حلب، زار أهله وكانت والدته تحتضر وبعد وفاتها، سمع بظلم الفرنسيين للمسلمين فقرر العودة إلى مصر للدفاع عنّ أهلها، فتمكّن من الوصول وبصعوبة عن طريق غزة، وانتقم لشعب مصر الشقيق بقتله الجنرال كليبر.**

بكلية الآداب، والشيخ محمد نجم الدين الكردي، وعازف الغيتار عمر خورشيد وشقيقتاه شيرين وشريهان، والفنانة سعاد حسني وهي كردية سورية حصلت على الجنسية المصرية من جمال عبد الناصر وشقيقتها الفنانة نجاة الصغيرة، والممثلة شويكار، والممثل محمود المليجي، والمخرج السينمائي احمد بدرخان وابنه علي.... الخ.

- وأصدر مقداد مدحت حفيد بدر خان باشا أوّل صحيفة كردية في القاهرة تحت اسم (كردستان) بتاريخ ٢٢ نيسان ١٨٩٨، كما أصدر صالح بدرخان جريدة (أوميد) في الأول من أيلول عام ١٩٠٠ في مصر، وهي نصف شهرية، كما أنشئت عددٌ من المطابع الكردية في مصر منها: مطبعة جريدة كردستان سنة ١٨٩٨ ، ومطبعة التمدن سنة ١٩٠٠، ومطبعة اجتهاد الدولية سنة ١٩٠٥، ومطبعة كردستان العلمية سنة ١٩٠٨، والتي طبعت العديد من الكتب، مما أقلقت هذه النشاطات الكردية السلطات العثمانية التي طلبت من السلطات الحاكمة في مصر تضييق الخناق على هؤلاء الناشطين، وفي عام ١٩١٧ أنشئت جمعية استقلال كردستان في القاهرة، وكان مؤسسها الأمير أحمد ثريا بدرخان، وانتسب إليها الكرد المقيمون في مصر والطلبة الكرد الذين كانوا يدرسون في الأزهر، وكانت جمعية سياسة تدعو إلى توعية الكرد والسعي لوضع أبجدية موحّدة للغة الكردية وتحرير كردستان.

في عام ١٩٥٧ خصص راديو القاهرة أوّل إذاعة كردية، واستمرت لعشر سنوات، تبث لمدّة ساعة في اليوم، موجّهة إلى أنحاء كردستان باللغة الكردية، وتتناول مواضيع شتى ثقافية وتاريخية وسياسية، وكانت تسمع في كل أرجاء كردستان في العراق وإيران وسوريا وتركيا، وهذا مؤشر على تعاطف جمال عبد الناصر مع القضية الكردية في العراق على أقل تقدير، ومن العاملين فيها: الشيخ عمر وجدي (من ماردين) شيخ رواق الكرد في الأزهر، والدكتور فؤاد معصوم (رئيس جمهورية العراق السابق)، والأديب عبد الوهاب الملا (من حيّ الكرد بدمشق)، و الشيخ عدنان حقي (من الجزيرة)، وذكر الدكتور جلال زيناتي عندما احتجّ السفير التركي في مصر على فتح الإذاعة الكردية في القاهرة، وقد استدعاه الرئيس جمال عبد الناصر وسأله: هل يوجد كرد في تركيا؟ أجاب السفير التركي: لا، وهنا ردّ عليه جمال باستنكار: إذاً لماذا هذا الاحتجاج والامتعاض؟ حيث كان عبد الناصر يؤيد القضية الكردية في العراق ربما نكاية بنوري السعيد وعبد الكريم قاسم لانضمامهم إلى حلف بغداد[٦]، كما كان يتمنى قيام دولة كردية تتوسط بين العرب من جهة والفرس والأتراك من جهة ثانية.

٦ تأسس حلف بغداد METO سنة ١٩٥٤ كان بدايته اتفاقاً عسكريا بين تركيا والعراق ثم انضمت إليه إيران وباكستان والمملكة المتحدة، كان الهدف المعلن تطويق روسيا والمد الشيوعي في الشرق الأوسط ، لكن الهدف الحقيقي التنسيق بين تركيا والعراق وإيران لوقف نشاطات الحركة الكردية ومحاربتها، وعزل مصر وسوريا لعدم انضمامهما إلى الحلف، وبعد انسحاب العراق سنة ١٩٥٩ دعي حلف المعاهدة المركزية CENTO

بعد قيام ثورة تموز ١٩٥٨ في العراق وترحيب قيادتها بقدوم البارزاني من المنفى، صرح عبد الناصر لوسائل الإعلام قال فيه: «من حق الكرد التمتع بحقوقهم المشروعة... لأن للعرب عدواً خطيراً واحداً يهدّد مستقبلهم وأمنهم وهو إسرائيل وتركيا وإيران، ... لكن في سوريا تغير الوضع حيث قامت قيادة البعث كل من: أكرم الحوراني وميشيل عفلق وصلاح البيطار وعبد الحميد السراج بتضليل عبد الناصر في عهد الوحدة وتلفيق الأكاذيب ضد الشعب الكردي في سوريا واعتقال قيادة الحركة الكردية»[٧].

علاقة الكرد مع اليمن

فتح الملك المعظم شمس الدين تورانشاه بن صلاح الدين اليمن سنة ١١٧٣، وفي سنة ١١٨٣ انتقل الحكم إلى أخيه الملك العزيز طغتكين، وبعد وفاته سنة ١١٩٤ خلفه ابنه المعز إسماعيل، الذي مات مقتولاً سنة ١٢٠١، ثم خلفه أخوه الناصر أيّوب الذي قتل أيضاً سنة ١٢١٤، ثم انتقل الحكم إلى الملك المسعود صلاح الدين بن الملك الكامل، الذي جهّز قوة عسكرية واتّجه صوب اليمن لتأديب العصاة، ودخل مدينة زبيد عاصمة اليمن، واشتبك مع جماعة الإمامية، وبعد عامين من القتال استولى على صنعاء، وفي سنة ١٢٢٢ رجع إلى مصر، وترك الحكم لأبناء الأسرة الرسولية الكردية أتباع الأيّوبيين، لكنهم في سنة ١٢٢٩ أعلنوا استقلالهم بالحكم وأسسوا الحكومة الرسولية[٨].

تشير وثيقة روسية كتبها القنصل الروسي في بيازيد أكيموفيچ: «بقدر ما استاء الترك من فشلهم في شبه الجزيرة العربية واليمن، ارتاح الكرد من هذا الفشل، وإذا ما تابع العرب صراعهم مع الأتراك بنجاح فسيؤدي إلى انفجار انتفاضة في كردستان، ويخشى الترك ذلك دون شك، لعلمهم أن قمع الكرد المسلحين حتّى أسنانهم سوف يكلفهم ضحايا كبيرة»[٩]، ووردت في وثيقة أخرى من المصدر نفسه أن «كرد ولاية بدليس يتلقون بعطف كبير أخبار نجاحات الثوار في اليمن»[١٠]، وحسب الوثائق نفسها أن عدداً من الزعماء الكرد أجروا «اتّصالاً مباشراً مع الثوار اليمنيين، وباشروا بجمع الأموال لمساندة قضيتهم العادلة... وبدأ زعماء اليمن بإرسال ممثلين عنهم إلى كردستان واتصلوا ببعض المتنفذين في مناطق آمد وموش وخنس وغيرها، وفي بداية آذار ١٩١١ وصل الممثل الشخصي للإمام يحيى وعقد اجتماعاً مع الرؤساء الكرد في مدينة موش"، وشكلت تلك الأحداث والزيارة قاعدة جديدة لصرح العلاقات التاريخية بين الشعبين العربي- اليمني والكردي.

مساهمة الكرد في بناء العراق

وفي التاريخ المعاصر وتحديداً إبّان الحرب الكونية الأولى وقيام الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين سنة ١٩١٦ انشق عدد من الضباط الكرد وعملوا لصالح الشعوب العربية ضدّ الحكم العثماني، ومن بينهم: رشيد مدفعي ساهم في الثورة العربية الكبرى وعيّنه فيصل مستشاراً للشؤون العسكرية، و «يوسف العظمة الذي شغل منصب وزير الدفاع الوطني في حكومة فيصل بن الشريف حسين ملك سوريا ١٩١٨، وخليل بكر ظاظا

٧ حسن ظاظا مصدر سابق ص ٢١١.

٨ اختلف المؤرخون في أصل بني رسول فمن قائل أنهم من أصل تركماني وآخر من أصل عربي، أما المؤرخ تقي الدين المقريزي فقد ذكر في موضعين من كتابه "الذهب المسبوك في من حج من الملوك ص 79-78"، بأن: عمر بن علي رسول كردي الأصل ووصفه بالهكاري، وأنه من أحد الأمراء في الدولة الأيوبية، وكان معتمد الملك المسعود بن الملك الكامل الأيوبي (السادس في سلسلة ملوك بني أيوب- المؤلف)، ثم استقل ببلاد اليمن سنة 1231م بعد وفاة الملك المسعود ... وقد ذهبت جماعات من الكرد إلى اليمن في العهد الأيوبي وسكنت في صعدة وزمار ونواحي صنعاء، وما زال بعض قبائلهم تحمل حتى الآن اسم الكرد. (الدولة الدوستكية، عبد الرقيب يوسف هامش ص 65).

٩ مظهر كمال مرجع سابق 133.

١٠ كان في عداد الجيش العثماني في اليمن كثيراً من الكرد وقد فرّ اثنين من أبناء قريتي بعد مسيرة شاقة نحو عفرين استغرقت ستة أشهر مشياً على الأقدام عن طريق دمشق لعدم قبولهم محاربة اليمنيين، وقد سردا كثيراً من القصص حول بطولات اليمنيين ضد ظلم العثمانيين وأخيراً انتصروا فيها، ويعتقد أن هذه الثورة حدثت سنة 1909 والتقيت بأحدهم- المؤلف.

ساهم في تأسيس المملكة الأردنية الهاشمية، وعلي جودة الأيّوبي من الموصل، وأصبح رئيس وزراء العراق في ثلاثينيات القرن الماضي، وجميل المدفعي الذي أصبح رئيس وزراء العراق في أربعينيات القرن الماضي»[11].

وفي مجال الحركة الأدبية والفكرية في العراق نذكر:

ـ الشاعر والفيلسوف جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ـ ١٩٣٦): ولد في «زهاو» وهي بلدة تقع بين مدينتي قصر شيرين وكرمنشاه على الحدود العراقية الإيرانية كما تدعي «دَرْتَنْك» وألوان والوند وبعد السيطرة العربية الإسلامية من قبل سعد بن أبي وقاص دعيت «حلوان»، وينتسب جميل صدقي إلى قبيلة بابان الشهيرة في جنوب كردستان التي ثارت على الحكم العثمانيّ. وشكلت إمارة بابان في بداية القرن التاسع عشر، وكانت والدته السيدة فيروز أيضاً زهاوية والده محمد فيضي الزهاوي مفتي العراق، درس في بغداد وتركيا وكان يُتقن اللغات العربية والفارسية والتركية لغته الأم الكردية، درس الحقوق وتوسّع في القانون وعيّن في محكمة الاستئناف، كما مارس السياسة حيث تحدّى السلطان عبد الحميد، ودافع عن العراق والعرب في مجلس المبعوثين، وفي ثورة العشرين ضد الإنكليز، ورفض طلب الملك فيصل أن يكون شاعر البلاط، كما دافع عن حقوق المرأة مثل قاسم أمين في مصر، وكان الزهاوي متعدّدَ المواهب وكتب في مجالات متعدّدة، ومن مؤلفاته في العلوم: كتاب الكائنات، الجاذبية وتعليلها، الخيل وسباقها في صفات الخيل، وترجم رباعيات الخيام من الفارسية نثراً، وكتب رواية «ليلى وسمير»، ومن آثاره الشعرية: الكَلِم المنظوم، رباعيات الزهاوي، ديوان الزهاوي، ثورة الجحيم (قصيدة من ٤٣٣ بيتاً).

ـ الشاعر معروف الرصافي (١٨٧٥ـ ١٩٤٥):

> **في بداية تواجد حزب العمال الكردستاني في لبنان عقد الحزب صداقات جيدة مع المنظمات الفلسطينية الثورية، واستشهد دفاعاً عن فلسطين الكادر عبد القادر چبوكجي أثناء تنفيذه عملية استشهادية بالتعاون مع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في مطار اللد سنة ١٩٨١، وأثناء الاجتياح الإسرائيلي سنة ١٩٨٢ على لبنان قاوم كوادر حزب PKK بشجاعة نادرة، وخاصة في قلعة الشقيف لعشرة أيام وحدهم.**

هو شاعر وكاتب وخطيب ومدرس ومربّي، والده عبد الغني من عشيرة جباري الكردية ولقّبه محمود الآلوسي شيخه بـ»الرصافي» نسبة إلى شيخ قديم وحبه الدين، توفّي والده مبكراً فربّته والدته فاطمة بنت جاسم، وهي من أصل عربي بدويّ، وأدخلته الكتاب وتعلم فيه القرآن والعلوم الدينية ثم انتسب إلى المدرسة الرشيدية العسكرية، ولقي فيها صعوبة بالغة كون لغة التدريس التركية، وهو يجهلها إضافة إلى التناقض بين ميوله الأدبية وقسوة النظام العسكري، ومن ثم اضطر إلى ترك المدرسة، عين مدرساً في المدارس الابتدائية والإعدادية للغة العربية ثم كاتباً في جريدة «إقدام» الاستانبولية بالعربية، ثم مدرساً في المدرسة الشاهانية وكاتباً في مجلة الإرشاد ونائباً عن لواء المنتفق العراقي، كما أصبح مدرس الخطابة في مدرسة الواعظين في استانبول، وغادر بعد الحرب الكونية الأولى إلى دمشق وإلى القدس لتدريس الآداب العربية، وعاد إلى العراق سنة

١١ حسن ظاظا، دور الكرد في بناء مصر وبلاد الشام، دار شلير قامشلو 2018 ص 50.

١٩٢١ فأصدر جريدة الأمل وعمل رئيساً للجنة الترجمة والتأليف، ثم مفتشاً لوزارة المعارف والتدريس في دار المعلمين، كما شغل مقعداً نيابياً في خمسة دورات متتالية.

ومن آثاره: ترجمة رواية «الرؤيا» للأديب التركي نامق كمال، و«الأناشيد المدرسية» و «تمائم التعليم والتربية» للأطفال، «دفع الهجنة في ارتضاخ اللكنة»، أرجع الكلمات العربية المستعملة في التركية إلى المعجم، «الأدب الرفيع في ميدان الشرف»، «خواطر ونوادر»، «الرسالة العراقية»، «آراء أبي العلاء»، «دفع المراق في كلام أهل العراق»، «الآلة والأداة» و «الشخصية المحمدية»، كما له ديوان من جزئين في الشعر يؤرّخ لتاريخ العراق في نهاية الحكم العثماني.

الكرد في ليبيا

جرى التواصل بين الكرد و ليبيا في العهد العثماني كضباط وجنود وجباة الضرائب، كما نفى العثمانيون عشيرة الهماوند» الكردية المتصفة بالشجاعة والتي كانت تقيم في شرق كردستان (كردستان الإيرانية) وقد قدمت في مطلع القرن (١٨) م، لمؤازرة أمراء عشيرة بابان في السليمانية ومقاتلة العثمانيين، وكانوا يقيمون في مدينتي «جمجمال وبازيان» بجنوب كردستان، فقد نفاهم العثمانيون من موطنهم الاصلي عام ١٨٩٠ إلى «منطقة طرابلس» في ليبيا ومن تبقى منهم إلى «أضنة» في جنوب تركيا، لكن معظم من هجروا إلى ليبيا عادوا بعد سبع سنوات إلى ديارهم، وقد وصف ادموندز هذه العودة بانها تشكل أروع ملحمة في تاريخ هذه القبلية، ولا زالت في ليبيا عائلات كردية استعربت ونسيت لغتها لكنها تقر بكرديتها.

الكرد في السودان

تزامن الوجود الكردي في السودان مع وجودهم في مصر إبان قيام السلطنة الأيّوبية، وحسب دراسة للباحث «جوهر وسو» التي نال

في عام ١٩٥٧ خصص راديو القاهرة أوّل إذاعة كردية، واستمرت لعشر سنوات، تبث لمدّة ساعة في اليوم، موجّهة إلى أنحاء كردستان باللغة الكردية، وتتناول مواضيع شتى ثقافية وتاريخية وسياسية، وكانت تسمع في كل أرجاء كردستان في العراق وإيران وسوريا وتركيا، حيث كان عبد الناصر يؤيد القضية الكردية في العراق ربما نكاية بنوري السعيد وعبد الكريم قاسم لانضمامهم إلى حلف بغداد.

فيها الماجستير من جامعة النيلين: أن تاريخ الكرد في السودان يعود إلى سنة ١١٧٢، حين قاد الملك الأيّوبي توران شاه حملة على بلاد النوبة، ويعيد بعضهم إلى العهد العثماني في أيام ولاية محمد علي باشا، ويقدر عدد الكرد في السودان بحوالي مئة ألف نسمة يقيم أغلبهم في شرق السودان وكردفان، وبعضهم يتحدّثون الكردية ويحتفلون بعيد النوروز، وأغلبهم مسلمون، لكن بعضهم اعتنقوا المسحية، وقد برز أحدهم في قيادة الحركة المهدية ويدعى «عثمان ديقنه» الذي حارب البريطانيين وانتصر عليهم، ثم قبض عليه وحكم بالسجن مدى الحياة، ومات في السجن بعد مضي سبعة عشر عاماً، وكان قد أقر عند استجوابه من قبل البريطانيين: بأنه كردي الأصل ومن ديار بكر[١٢].

الوجود الكردي في فلسطين

تعود بداية الوجود الكردي في فلسطين إلى

١٢ دراسة قيد الطبع للدكتور جلال زيناتي.

نهاية مرحلة الدولة الزنكية وبدء تأسيس الدولة الأيّوبية على يد صلاح الدين، وخاصة في مرحلة الصراع الصليبي – الإسلامي على مصر وبلاد الشام، حيث وجّه صلاح الدين رسائل إلى القبائل الكردية في كردستان عامة طلب فيها إرسال الشبّان كمجاهدين دفاعاً عن بلاد المسلمين والأماكن المقدسة، واستجاب الكرد لطلبه وتوافدوا إلى معظم مدن وقرى فلسطين، ودافعوا عنها أمام الحملات الصليبية المتلاحقة إلى أن تمّ تحرير القدس وغيرها، و»كانت سياسة صلاح الدين تقوم على إسكان الجنود الكرد في المدن الفلسطينية ومنحهم إقطاعات خاصة بهم، ومع الأيام شكل الكرد أحياءً خاصة بهم في كل من القدس والخليل وعكا ونابلس وغزة واشتهرت باسم محلات الكرد»[١٣]، واستمر التوافد في العهود المملوكية والعثمانيّة والانتداب البريطاني وحتى مرحلة الصراع العربيّ الإسرائيليّ.

اشتهر القائد حسام الدين لاچين في مدينة نابلس، وهو ابن أخت صلاح الدين حيث منحه الأخير إياه نابلس لأنه حرّرها من الصليبيين، وشكّل الكرد حياً باسمهم «حارة الأكراد» في القدس وتدعى اليوم حارة «الشرف» التي تقع غرب حارة المغاربة، وتولّى أحفاد العالم بدر الدين الهكاري إمامة المسجد الأقصى لفترة طويلة باسم «عائلة الإمام»، وفي ساحة الحرم القدسي يوجد «قبة القيمرية» نسبة إلى المجاهدين الكرد القادمين من قلعة قيمر الواقعة بين الموصل وخلاط (ويوجد حي باسمهم- القيمرية في دمشق)، ويضيق المكان في سرد بطولات الجنود والأمراء الكرد في معارك فلسطين، وكذلك مساهمات العلماء الكرد الدعوية والتدريس وخدمة المساجد في معظم المدن والقرى الفلسطينية، ولا زالت تشتهر أسماء عائلات كردية في مدن فلسطين مثل: آل قيمر وآل زعرور في الخليل، آل الملا في الناصرة، وآل الأيّوبي، الكردي، عليكو وزلوم في القدس، والكنفاني في عكا، والآغا في صفد، والكردي في دير البلح، والظاظا في بيسان، وباكير وعلو في حيفا، والآغا والظاظا في غزة، والأيّوبي والسعدية في يافا، وغيرها من مئات العائلات الكردية حيث استعربوا وبقي فقط أسماءها وإقرار انتمائها للكرد.

كما ننوه أن فوزي القاوقجي (١٨٩٠-١٩٧٧) وهو ضابط كردي من طرابلس لبنان وخريج الكلية الحربية في إستانبول، ساعد الملك عبد العزيز في تشكيل الجيش السعودي سنة ١٩٢٩، وقام بتشكيل قوات متطوعة توجه بها إلى فلسطين سنة ١٩٣٦، وساهم في ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ في العراق، وكان قائد جيش الإنقاذ خلال حرب ١٩٤٨ من أجل تحرير فلسطين.

مساهمة الكرد في بناء الأردن

كانت الأردن جبهة متقدمة في مرحلة الصراع الأيّوبي- الصليبي وفيها قلاع الفرنجة في الكرك والشوبك، وشيّد صلاح الدين فيها قلعة عجلون لمراقبة تحركات الصليبيين في غور الأردن، ورابط فيها فرقة الكرد الهكارية، وأقامت في مدينة السلط ولا زالت حارة الأكراد فيها تحتفظ باسمها، و»انتقل بعضهم إلى القدس بعد تحريرها «وكوّنوا حارة خاصة بهم باسم حارة السلطية»[١٤]، وتولى الملك العادل الأيّوبي أخو صلاح الدين فيها إمارة الكرك (١١٨٣-١٢٦٢)[١٥] التي كانت تابعة للكونت رينولد أرناط ووقع أسيراً بيد صلاح الدين، وانتشر صيت عدد من الأعلام الكرد لتطور الحركة العلمية والثقافي في مرحلة الملك الناصر داود الأيّوبي أمثال: عائشة الباعونية، عبدالله الهكاري وابنه بدر الدين، والفقيه شهاب الدين الگوراني، والدكتور محمد الصويركي، واستمر توافد الكرد في العهود المملوكية والعثمانية، فكان معظم الجنود والدرك والموظفين الإداريين وجباة

١٣ المصدر نفسه ص ٢٣٩.

١٤ المصدر نفسه ص ٢٢٨.

١٥عبدالله قره مان، وطن الشمس ج ٢ ص ١٥٢.

الضرائب من الكرد في الأردن عامة. وانتقل عدد كبير من التجار الكرد من حيّ الصالحية بدمشق إلى المدن الأردنية وأصبحوا مواطنين فيها. كما ساهم الكرد في بناء الأردن الحديث من خلال الأنشطة السياسية والعسكرية والثقافية. وكانوا في مقدمة مستقبلي الأمير عبد الله بن الحسين عند قدومه سنة ١٩٢٠.

في المجال العسكري كان الضباط الكرد: خليل بكر ظاظا الذي سبق ذكره. نظمي خليل بدرخان. مصطفى الملّي. والزعيم رشيد المدفعي (والد المذيعة الشهيرة في BBC مديحة المدفعي في سبعينيّات القرن الماضي) من بين مؤسسي الجيش والشرطة. كما ساهم مع المشرع والصحفي علي سيدو كوراني في بناء المملكة الأردنية الهاشمية. وكذلك الفريق صالح الكردي قائد سلاح الجو ونائب القائد العام للقوات المسلحة الأردنية (١٩٦٢-١٩٧١). وفي السلك السياسي والدبلوماسي برزت شخصيات كردية تقلّدت مناصب رفيعة أمثال: سعد جمعة رئيساً للوزراء مرتين. ومن الوزراء: رشيد المدفعي - داخلية. صلاح جمعة - زراعة وتموين. يوسف ذهني - الشؤون الاجتماعية والعمل. سعد الدين جمعة - وزير دولة. والدكتور أشرف الكردي - وزير الصحة وأمين عام اتحاد أطباء العرب للعلوم العصبية ونائب رئيس أطباء العالم للعلوم العصبية وعضو مجلس الأعيان الأردني والطبيب الخاص للرئيس ياسر عرفات.

وفي المجال الثقافي: المفكر والسياسي والأديب سعد جمعة كتب عشرات الكتب والأبحاث والمقالات. وعلي سيدو الكوراني الكردي. صنف كتاباً للسلك الدبلوماسي والعمل القنصلي. وكتب عن رحلته "من عمان إلى العمادية". وقاموس كردي- عربي. وعضو في المجمع العلمي الكردي العراقي. والدكتور محمد علي الصويركي كتب عدة كتب تاريخية حول الأردن. وآخرون يصعب حصرهم كتبوا في مجالات عدة في الدراسات الإسلامية والفقهية والصوفية والإعلام والمسرح. ولكرد الأردن جمعية خيرية اجتماعية باسم "جمعية صلاح الدين الأيّوبي".

الوجود الكردي في لبنان

يعود جذور الوجود الكردي في لبنان إلى بداية «الفتوحات الإسلامية» عندما هاجرت الموارنة من جبل الكرد- عفرين والجراجمة من مراش شمال عفرين (حالياً تابعة لتركيا) إلى جبل لبنان وشكّلتا مؤخراً تياراً سياسياً باسم «تيار المردة». وفي العهد العثماني هاجر الكثير من العائلات الكردية ديارها وخاصة من ولاية هكاري في الزاوية الجنوبية الشرقية من الخارطة التركية. بسبب سياسة القمع العثمانية . وقد سكنوا في المنطقة الجبلية عكار المصحفة من هكاري حسب التسمية المحلية. ثم انتشروا في المناطق الشمالية (طرابلس والساحل). وأهم الأسر الكردية المعروفة فيها: آل سيفا. آل حميه. آل المرعبي. آل الكلسلي. آل مرعشلي. ثم استمر التوافد في عهود مختلفة بسبب الضغط العثماني المستمر. حيث سكنوا في مناطق بيروت وزحلة والجنوب. ومن أهم العائلات: آل محو. آل برازي. آل الأيّوبي. آل رمضان. آل ملا. وفي صيدا آل الحريري (عائلة رفيق كالو الحريري رئيس الوزراء أخذ كنيته من بلدة «حرير» في جنوب كردستان). وآل صعب في قلعة الشقيف. وآل جنبلاط زعماء الدروز الذي كانوا أمراء كلس. ومئات العوائل الأخرى. ومن الكرد المسيحيين من السريان والكلدان نذكر: الأديب سمير شيخاني[١٦] (عشيرة شيخان) والكاتب الكبير الأب لويس شيخو . حيث يبلغ عدد الكرد في لبنان حوالي ٢٥٠ ألف نسمة منهم خمسون ألفاً يحملون الجنسية اللبنانية.

ونشير أنه في بداية تواجد حزب العمال الكردستاني في لبنان والذين عقدوا صداقات جيدة مع المنظمات الفلسطينية الثورية استشهد دفاعاً عن فلسطين الكادر عبد القادر

١٦ حسن ظاظا، مرجع سابق ص ٢٣.

"انتقل الحكم في اليمن إلى الملك العزيز طغتكين بن صلاح الدين الأيّوبي، وبعد وفاته سنة ١١٩٤ خلفه ابنه المعز إسماعيل، الذي مات مقتولاً سنة ١٢٠١، ثم خلفه أخوه الناصر أيّوب الذي قتل أيضاً سنة ١٢١٤، ثم انتقل الحكم إلى الملك المسعود صلاح الدين بن الملك الكامل، الذي جهّز قوة عسكرية واتّجه صوب اليمن لتأديب العصاة، ودخل مدينة زبيد عاصمة اليمن."

چبوكچي أثناء تنفيذه لعملية استشهادية بالتعاون مع الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين في مطار اللد سنة ١٩٨١، وأثناء الاجتياح الإسرائيلي سنة ١٩٨٢ على لبنان قاوم كوادر حزب PKK بشجاعة نادرة، وخاصة في قلعة الشقيف لعشرة أيام وحدهم في ظل حصار محكم ورفضوا الاستسلام، مما اضطر الجيش الإسرائيلي إلى استعمال الأسلحة الغازية حيث استشهد عشرة كوادر خنقاً بالغاز الكيماوي، في وقت كان المقاتلون الفلسطينيون قد انسحبوا من المواجهة ووصلوا إلى بيروت.

مساهمة الكرد في بناء سوريا

يعود التواصل بين الكرد والشعوب السورية إلى أكثر من خمسة وثلاثين قرناً، عندما انتشر الخورو- ميتانيون أجداد الكرد في تلك الجغرافيا، وهم الذين منحوا سوريا اسمها، حيث دعيت «بلاد خورا» حسب ما ورد في وثائق المملكة المصرية الوسطى كإشارة إلى سكان سوريا وفلسطين، و»حوري- هوري» تعريب من «خوري» المشتق من «خور» بمعنى الشمس، وكان الشمس ذكر في الميثولوجيا الآرية والكردية) إله الخوريين والميتانيين والميديين ويلفظ حسب اللهجات الآرية (آخورا- آهورا- آسورا)، ويخطئ من يقول: إنّ اسم سوريا مشتق من السريان، لأن مصطلح سوريا كان موجوداً قبل ظهور المسيحية وكانت سوريا مقاطعة رومانية قبل المسيحية، في حين ظهر مصطلح السريان عندما انضم بعض آراميي سوريا إلى المسيحية تمييزاً عن الآراميين الوثنيين.

ونشير أن عاديات الخوريين والميتانيين منتشرة في جميع أنحاء سوريا وفي المواقع الأثرية في الجزيرة مثل: تل البيعة، تل بري، تل الحديدي، شاغر بازار وتل ليلان وغيرها، لأن عاصمتهم كانت أوركيش (تل موزان) بداية ثم واشوكاني (تل الفخيرية) قرب راس العين، وكذلك تتبعها الممالك الميتانية التالية: آلالاخ على نهر العاصي، وكيزوفتنا في كيليكيا، وأوغاريت (رأس شمرا) في اللاذقية، وقطنا (تل المشرفة) شرق حمص، وخابوراتوم على نهر الخابور، ومردمان في ماردين، وبوروندوم قرب عينتاب ومملكة نوزي في كركوك.

وفي المرحلة الأخيرة للدولة العثمانية لوحظ تعاون وثيق بين الكرد والعرب أثناء حملة إبراهيم باشا بن محمد علي باشا مصر سنة ١٨٣٩ لتحرير سوريا من الحكم العثماني وتوحيدها مع مصر، وقد ناصرت الحملة مباشرة الأمير اللبناني بشير الشهابي وكان سبباً في «هزيمة الجيش العثماني في حمص»[١٧]، والأمير تيماوي رئيس العشائر الملية (تحالف عشائري ضم العرب والتركمان إلى جانب الكرد) الذي زحف على الجيش العثماني المرابط في ماردين بكل قوّاته واستشهد في ساحة المعركة، وقد انتقم العثمانيون من العرب السوريين واللبنانيين من خلال نصب المشانق للوطنيين في السادس من أيار ١٩١٦، وتجويع سكان جبل لبنان خلال

١٧ فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ١ ص ٣٤١.

ولد الرئيس محمد علي العابد (١٨٦٧-١٩٣٩) وكان أول رئيس جمهورية لسوريا في سنوات ١٩٣٢-١٩٣٦ بالانتخاب، وكان جده الخامس قد هاجر من مدينة پالو في شمال كردستان سنة ١٧٠٠ م، وكان جده الثالث "هولو باشا" متصرّف بلاد الشام في العهد العثماني ومن أغنى رجال سوريا، وكان مكتبه في منزله بساحة المرجة ويصرف على إقامته وتنقلاته من أمواله الخاصة.

سنوات الحرب الكونية الأولى مما أدّى إلى موت سبعين ألف شخص من سكان جبل لبنان جوعاً. أما حصة الكرد من الانتقام العثماني أثناء الحرب الكونية الأولى، فكان موت أكثر من مئة ألف جندي بسبب البرد فقط في الجبهة الروسية في مناطق قارص، ناهيك عن التسبب بقتلهم في الجبهات الأخرى أو قتلهم أثناء قيامهم بالانتفاضات وعمليات التهجير حيث بلغ مجموعهم أكثر سبعمئة ألف قتيل.

وأثناء مقاومة الانتداب الفرنسي سارع الكرد إلى التصدي لجيش الاحتلال. ففي الشمال أطلق «المجاهد محو إيبو شاشو الرصاصة الأولى (من جبل الكرد- عفرين) في وجه المستعمرين الفرنسيين وأن عصابته كانت النواة الأولى لتشكيل العصابات السورية»[١٨]. وفي الجنوب تصدّى الكردي يوسف العظمة لجيش الجنرال غورو رغم ضعف الإمكانات كي لا يدخل العدو إلى دمشق دون مقاومة. وقد استشهد الاثنان في المقاومة. يذكر أن نواة المقاومة الأولى للقوات الفرنسية كانت مؤلفة من سبعة أشخاص، منهم أربعة من الكرد وهم: أحمد روتو و شيخ عبدي خوجة (جبل الكرد- عفرين)، يوسف العظمة (دمشق)، إبراهيم هنانو (جبل الزاوية)، وثلاثة من العرب وهم: الشيخ صالح العلي (اللاذقية)، سعدالله الجابري (حلب)، مصطفى شيخ حسين. وقد خاضوا معارك طاحنة ضد جيش الانتداب الفرنسي منذ عام ١٩٢٠ وحتى ١٩٣٩وبدء الحرب الكونية الثانية في جبل الكرد وكوباني والجزيرة. ورغم المحاولات التركية لجذب الكرد من خلال الوجهاء عن طريق والي عينتاب وانطاكية إلا أنها فشلت في مسعاها. فقد كانت المقاومة الكردية بزعامة إبراهيم هنانو إلى جانب الكتلة الوطنية في سوريا. كما حاولت فرنسا استقطاب المجاهد البارز رشيد إيبو إلى جانبه لكن دون جدوى. كما استعملت العنف المفرط بقصف قرى منطقة عفرين بالطائرات وخاصة على قرية نازا والقرى المجاورة في عفرين سنة ١٩٤٠ . وقصفت مثلها بياندور وعامودا في الجزيرة لكن دون جدوى.

وكان للنخب السياسية الكردية دور لافت إلى جانب إخوتهم العرب في الدفاع عن سوريا في العهد العثماني، وفي إدارة سوريا في ظل الانتداب الفرنسي أثناء مرحلة الاتحاد السوري وبعد الجلاء. **وعندما نتتبع أصول أولئك الكرد في سوريا ودمشق خاصة نجد على سبيل المثال وليس الحصر عائلات: الأيّوبي، آلوسي، آل رشي، بارافي، برازي، زازا، سويركلي سيواسلي، أورفلي، وانلي، ماردیني، شيخاني، كيكي، مللي وغيرهم، ونذكر بعضاً من الشخصيات:**

- الشاعر خير الدين زركلي (١٨٩٣-١٩٧٦): هو خير الدين بن محمود آغا بن محمد بن علي الزِرِكْلي نسبة لعشيرة زِرِكي الكردية

١٨ أدهم آل جندي، تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي، مطبعة الاتحاد ١٩٦٠ ص٢.

في شمال كردستان، وكانت لهذه العشيرة إمارة قبل سيطرة العثمانيين على كردستان واستمرت في العهد العثماني لفترة ليست قصيرة، ولد من أبوَين كرديين دمشقيين وتعلم في مدارسها، درس في المدرسة الهاشمية وقال الشعر وهو صبي، درس في بيروت وعمل أستاذاً للتاريخ والأدب العربي في الكلية العلمانية الفرنسية، وبعد معركة ميسلون غادر دمشق إلى الأردن، وبسبب نشاطه السياسي ضدّ فرنسا حكم عليه غيابياً بالإعدام وحجز أملاكه، ونال الجنسية العربية من الشريف حسين في الحجاز وانتدب مع ابنه الأمير عبد الله إلى الأردن، وعين مفتشا عاماً للمعارف في حكومته ثم رئيس ديوان رئاسة الحكومة ١٩٢١-١٩٢٣ وفي هذه الأثناء قررت فرنسا وقف تنفيذ حكم الإعدام بحقه، ثم عين مستشاراً للمفوضية السعودية في مصر ١٩٣٤، وانتدب لإدارة وزارة الخارجية سنة ١٩٤٦ في جدة، ووزيراً مفوضاً للمملكة لدى جامعة الدول العربية سنة ١٩٥١، وسفيراً للسعودية لدى المملكة المغربية، وبقي عميداً للسلك السياسي حتى سنة ١٩٦٥ ولاعتلال صحته أحيل إلى الراحة برتبة سفير، وأذن له الملك فيصل الإقامة في بيروت حتى وفاته.

ومن آثاره: إصدار مجلة «الأصمعي» وكتاب «معجم الأعلام» أسوة بابن خلكان، قال عنه الدكتور شاكر مصطفى: «كان الزركلي من قناديل تلك الأيام والدفعة الشعرية التي غذّت نهضة العرب بالقوافي في الربع الأول من هذا القرن» (القرن العشرين)، وكان منبراً مثل شوقي والرصافي والزهاوي وحافظ إبراهيم.

ـ الأديب محمد كرد علي (١٨٧٦ـ ١٩٥٣)

هو محمد بن عبد الرزاق بن محمد اشتهر باسم محمد كرد علي، ولد في دمشق ونشأ فيها، والدته جركسية، قدم جده من نواحي أربيل بجنوب كردستان إلى دمشق بقصد التجارة واستقر فيها، درس في مدارس دمشق وأتقن اللغتين العربية والفرنسية، عشق

"أثناء مقاومة الانتداب الفرنسي سارع الكرد إلى التصدي لجيش الاحتلال، ففي الشمال أطلق المجاهد محو إيبو شاشو الرصاصة الأولى (من جبل الكرد- عفرين) في وجه المستعمرين الفرنسيين وكانت عصابته النواةَ الأولى لتشكيل العصابات السورية" وفي الجنوب تصدّى الكردي يوسف العظمة لجيش الجنرال غورو رغم ضعف الإمكانات كي لا يدخل العدو إلى دمشق دون مقاومة، وقد استشهد الاثنان في المقاومة.

الصحافة منذ صغره وأخذ يكتب فيها منذ السادسة عشر إلى جانب اهتمامه بالعلوم الدينية، وتأثر ببلاغة القرآن، وقرأ كثيراً من كتابات الأدباء والشعراء العظام، كما اطّلع على كتب المستشرقين بشكل واسع لإتقانه الفرنسية، وأصدر مجلة المقتبس سنة ١٩٠٨، لكن أكبر إنجازاته للغة العربية وثقافتها عندما عين رئيساً لديوان المعارف بعد انفصال سوريا عن الدولة العثمانية سنة ١٩١٩، حيث قام بتغيير المفردات التركية وإحلال العربية مكانها، كما وضع كثيراً من المصطلحات اللغوية، خاصة بعدما استبدل الديوان بـ «المجمع العلمي العربي» كمركز مستقل سنة ١٩٢١ حيث حوّله إلى مركز للإشعاع الفكري والثقافي للثقافة العربية والإسلامية، وأعطى المركز كلَّ وقته واهتمامه، وجمع الآثار والمخطوطات النادرة لإعلاء شأن المركز وشأن التعليم من المرحلة الابتدائية وحتى الجامعية.

أبرز آثار محمد كرد علي الذي يعتبر

من أعلام النهضة السورية، كتابه «خطط الشام» المؤلَّف من ستة أجزاء عن تاريخ بلاد الشام، وكذلك: دمشق مدينة السحر، الإسلام والحضارة العربية، أمراء البيان، كنوز الأجداد، رسائل البلغاء، غابر الأندلس وحاضرها، غوطة دمشق و المذكرات[19].

ومن رجال السياسة والسلطة نذكر:

ـ محمد علي العابد (١٨٦٧ـ١٩٣٩): أول رئيس جمهورية لسوريا في سنوات ١٩٣٢-١٩٣٦ بالانتخاب، وكان جده الخامس قد هاجر من مدينة بالو في شمال كردستان سنة ١٧٠٠ م، وجده الثالث «هولو باشا» كان متصرف بلاد الشام في العهد العثماني ومن أغنى رجال سوريا، وكان مكتبه في منزله بساحة المرجة ويصرف على إقامته وتنقلاته من أمواله الخاصة[20].

ـ عطا الأيّوبي (١٨٧٧ـ ١٩٥١): من الكرد الأيّوبيين كان وزيراً في أول حكومة سورية في سنة ١٩١٨ بعد رحيل العثمانيين، وكان يموّل الثوار بالأسلحة والأموال ومنهم إبراهيم هنانو وصالح العلي، وأصبح رئيس الحكومة سنة ١٩٣٦، كما كلف بتشكيل حكومة مؤقتة سنة ١٩٤٣ مع الاحتفاظ بحقيبتي الدفاع والداخلية، وكان أكثر من ناضل لأجل تحقيق الاستقلال في سوريا.

ـ حسني الزعيم (١٨٩٤ـ١٩٤٩): من كرد حلب (حي الجديدة- حارة الأكراد) كان قائداً للجيش ورئيساً للأركان، قاد انقلاباً عسكريا في نيسان ١٩٤٩ بسبب انتقادات حادة من البرلمان ورئيس الجمهورية والتخطيط لتسريحه بسبب حرب ١٩٤٨ مع إسرائيل، واستياء شعبي من أداء الحكومة، لكنه لم يتمكن من إصلاح الأمور، حيث جرى انقلاب مضاد في آب ١٩٤٩ من قبل العقيد سامي الحناوي وأعدم الزعيم بطلب من

"نفى العثمانيون عشيرة الهماوند" الكردية المتصفة بالشجاعة والتي كانت تقيم في شرق كردستان (كردستان الإيرانية) وقد قدمت في مطلع القرن (١٨) م، لمؤازرة أمراء عشيرة بابان في السليمانية ومقاتلة العثمانيين، وكانوا يقيمون في مدينتي "جمجمال وبازيان" بجنوب كردستان، فقد نفاهم العثمانيون من موطنهم الأصلي عام ١٨٩٠ إلى "منطقة طرابلس" في ليبيا ومن تبقى منهم إلى "أضنة" في جنوب تركيا.

السفارة التركية.

ـ فوزي سلو (١٩٠٥ـ١٩٧٢): عمل وزيراً للدفاع في خمس حكومات بين سنتي ١٩٥٠-١٩٥١، وبعد انقلاب أديب جيجكلي ١٩٤٩عين رئيساً للدولة ورئيس مجلس الوزراء ووزيراً للدفاع بمرسوم تعيين حتى ١٩٥٣، وتوفي سنة ١٩٧٢ بدمشق.

ـ العقيد أديب جيجكلي (١٩٠٩ـ١٩٦٤): ولد في حماة من عائلة آل فنري- عشيرة الملان الكردية وخاله محسن البرازي، شارك في حرب فلسطين ١٩٤٨، قاد الانقلاب العسكري في ١٩ كانون أول ١٩٤٩، وفي آب ١٩٥٣ انتخب رئيساً للجمهورية، واغتيل سنة ١٩٦٤ في البرازيل على يد شاب درزي.

ـ د. محسن البرازي (١٩٠٤ـ١٩٤٩): محامي وأديب وسياسي ولد في حماة وينتمي إلى

١٩ بتصرف عن بحث للدكتور أحمد الخليل حول مشاهير الكرد في التاريخ.
٢٠ حسن ظاظا مرجع سابق ص ١٤٠.

عشيرة البرازي الكردية في كوباني، تولى رئاسة وزراء سوريا لفترة وجيزة في عهد حسني الزعيم وأعدم رمياً بالرصاص مع الزعيم إثر انقلاب سامي الحناوي بتوجيه من السفارة التركية كونه من أصول كردية.

ـ حسني البرازي (**١٨٩٥ـ١٩٧٥**): ولد من أسرة البرازي الكردية الحموية، درس الحقوق في إستانبول وشكّل مع الطلاب الكرد والعرب منتدى أدبياً شكلاً لكنه كان منتدى سياسياً، قابل جمال باشا السفاح على رأس وفد، ولما سأله جمال «بأي صفة تتكلم؟ أجابه البرازي بصفتنا كردٌ وعربٌ نسعى من أجل حقوق بلاد العرب وكردستان بإقامة حكم فيدرالي ضمن إطار عثماني»[٢١]، كما أسس جمعية العهد مع مجموعة من الضباط الكرد والعرب في الجيش العثماني بينهم: يوسف العظمة، نوري السعيد، رشيد مدفعي، عبدالرحمن شهبندر، عزيز علي المصري... وكانت الجمعية منقسمة بين عراقي وسوري فعمل على توحيدهما من أجل استقلال بلاد العرب وكردستان، وشغل منصب رئيس الوزراء ووزير الداخلية بين نيسان ١٩٤٣ وكانون الثاني ١٩٤٣.

ـ الشهيد يوسف العظمة وزير الحربية السوري (**١٨٨٤ـ١٩٢٠**): ولد من أسرة كردية دمشقية في حيّ الشاغور (فرع الغصن بالكردية)، درس الابتدائية والإعدادية في المدارس العسكرية بدمشق ثم أكمل في المدرسة الحربية العليا بإستانبول وتخرج ضابطاً في سلاح الفرسان، ثمّ إلى مدرسة الأركان وتخرج برتبة نقيب ركن، كان رئيس أركان الفرقة ٢٥ في بلغاريا أثناء الحرب الكونية الأولى، كما حارب في القوقاز، وبانتهاء الحرب عاد إلى دمشق وأسس الجيش السوري، وبعد خضوع سوريا للانتداب الفرنسي حسب مؤتمر سان ريمو أصبح وزيراً للحربية سنة ١٩٢٠ في ظل الانتداب، واستشهد في معركة ميسلون إثر مواجهته هجوم الجنرال غورو من لبنان، وذلك برصاصة غادرة من الخلف أطلقها أبو شاكر الطباع.

كما نذكر: علي بوظو أمين عام حزب الشعب السوري (**١٩١٦ـ ١٩٨٥**) وكان عضواً في مجلس الأمة الاتحادي زمن الوحدة مع مصر، وعبد الرحمن الشهبندر (١٨٧٩-١٩٤٠) ولد في القيمرية بدمشق من العشيرة البابانية في السليمانيّة، تقلّد منصب وزير الخارجية السوري في حكومة فيصل واغتيل في عيادته، ورشدي الكيخيا (١٨٩٩-١٩٨٧) رئيس البرلمان السوري بين ١٩٤٩-١٩٥١ وزعيم حزب الشعب السوري، حيث رفض تولي منصب رئيس الجمهورية في عهد الانفصال قائلاً: «نحن الكرد صادقون ومخلصون لهذا الوطن واليد التي وقعت على الوحدة مع مصر لن توقع وثيقة الانفصال»[٢٢].

ونشير إلى عدد من الكتاب والفنانين والمخرجين والممثلين الكرد في سوريا الحديثة والذين ساهموا مع إخوتهم من المكونات الأخرى في تطوير الحركة الثقافية مثل: الكاتب والشاعر سليم بركات، الكاتب والشاعر حامد بدرخان، الكاتب المسرحي وليد ماردیني، وفي الفن التشكيلي عمر حمدي (مالفا) وبهرام حاجو، الكاركاتير كاميران شمدين، ومن المخرجين: هيثم حقي، رياض ديار بكرلي وبسام الملا، ومن الممثلين: نهاد قلعي (نهاد قلعي الخربوطلي، نسبة الى مدينة خاريبت في كردستان تركيا، وكان يلقب بحسني بورزان)، عبد الرحمن آل رشي، منى واصف (جيلمران مصطفى واصف)، خالد تاجا، طحت حمدي الأيّوبي، زهير رمضان ،لقمان ديركي ، سوزان نجم الدين، كاريس بشار، عبير شمس الدين، جيان عيد، جيني إسبر، محمد أوسو نجم، وائل رمضان، وأحمد مللي.

مما يؤسف له لم يتم تقدير الكرد على مساهماتهم في بناء البلاد العربية طيلة التاريخ، باستثناء جمل نظرية مقتضبة من

٢١ حسن ظاظا مرجع سابق ص ١٤٢.

٢٢ المصدر نفسه ص ١٩١.

بعض الزعماء مثل: أحمد بن بلّا الرئيس الأسبق للجزائر، والرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر، والرئيس الليبي معمر القذافي وميشيل إدة وزير خارجية لبنان الأسبق، وبعض السياسيين العرب مثل شفيق الحوت: عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، الذي قال: «كنت آخذ على المفكرين القوميين العرب أنهم لم يعوا في أدبيّاتهم السياسية قضايا القوميات الأخرى، لاسيما القضية الكردية، ولم يولوها ما تستحقه من عناية واهتمام، فبدت العروبة والفكر العربي قومية استعلائية عنصرية، ... ومضى يقول: نحن نطل على القرن الحادي والعشرين، ونمر في عهد يسمى عهد الانسان، من حق الشعوب أن تقرر مصائرها... فالشعب من حقّه أن يكون ضمن هذا الكيان أو لا يكون، ولم يعد من الممكن أن تكره شعباً على وحدة، كما أنّه من غير الممكن أن تكرهه على انفصال لا يريده. إنّ هناك اليوم دولاً تتفكك وأخرى تتشكل حديثاً، والسبب في ذلك أنّ الشعوب في هذه البلدان لم تكن قد سئلت في شأن تقرير مصيرها في السابق، والفيدرالية نوع من أنواع الخيارات المطروحة في أكثر من مكان في العالم، بما في ذلك منطقتنا... وفيما يتعلق بوضع الأخوة الكرد، إذا كان الأمر ينطلق من مبدأ حق تقرير المصير، وإذا كانت الظروف الذاتية والموضوعية تسمح بذلك، فهذا قرار صائب. ثم يقول: - كثيراً ما عمدنا الى حل مشاكلنا – نحن العرب – إما بأسلوب القمع أو بأسلوب التجاهل والإنكار (أسلوب النعامة)، وقد حان الوقت لتغيير ذلك. ربما هناك عند العربي وَهْم بأنّ الكردي إنسان غريب قادم ليعتدي على أراضينا وخيراتنا، ولا يعرف أنّه قائم على أرضه وخيراته، وأنّه محروم من أرضه وخيراته، ويلقى الظلم والاضطهاد، لأنه يتشبث بأرضه ولغته وتاريخه»[٢٣].

وقال غسان سلامة عبر إذاعة مونتي كارلو: «دافع الكرد منذ فجر الإسلام وحتى اليوم عن الإسلام والقضايا العربية العادلة، وقدموا على هذا الدرب قادة عظام وتضحيات جسام، والآن يتعرّضون إلى سياسة تقوم على القمع والاضطهاد والتنكيل، ناهيك عن الجينوسايد، وها قد جاء دور العرب للوفاء لهذا الشعب والبحث عن حلول عادلة للقضية الكردية في كل من العراق وسوريا، ومساندته للحصول على حقوقه القومية كاملة».

والكاتب المصري: محمود عزمي، رئيس تحرير مجلة «الفكر العربي» كتب: «إن المطلوب هو خلق مناخ ديمقراطي سلمي لحل القضية الكردية ....، وتابع: هناك فراغٌ ملحوظٌ في مشروع عربي شامل لحلّ القضية الكردية، على الأقل في العراق وسوريا، وهذا يعود الى غياب الديمقراطية. والواقع أنّه ليس الكرد فقط يعانون الظلم، بل إنّ الشعوب العربية نفسها تعاني من اضطهاد أنظمتها، صحيح أنّ الكرد يعانون أكثر ويلقون اضطهاداً شاملاً، قومياً وثقافياً واقتصادياً وسياسياً، لكنّ الشعوب العربية بدورها ليست حرة، ولا تملك إرادة التعبير...، فالكرد في وضع مختلف تماماً عن وضع إسرائيل. فهم ليسوا جسماً غريباً في المنطقة، إنهم من تاريخ المنطقة وساهموا في الحضارة العربية والإسلامية بقوة... وعلى النخب العربية أن تعي أهمية استيعاب الخصوصية الكردية وألّا تنظر إليها على أنها بعبع أو مؤامرة، وما إلى ذلك من تصورات مشبوهة وخاطئة رسختها الممارسات والتصورات المعيبة للأنظمة.. إنّ جوهر الحل يكمن قبل كل شيء، في توفير الديمقراطية[٢٤].

٢٣ أنظر: صحيفة الحياة – العدد /١٠٩٩٩٧/- الاثنين ٢٢ آذار ١٩٩٣.

٢٤ صحيفة الحياة – العدد /١٠٩٩٨/- الثلاثاء ٢٣ آذار ١٩٩٣.

الصراع والعداء التركي الفرنسي تاريخه، وأسبابه

جمال علو

مخطط البحث

مقدمة

- مفهوم العداء والصراع
- نشأة الدولة الفرنسية الحديثة
- نشأة الدولة العثمانية
- بداية التقارب السياسي بين الممالك الأوروبيّة وإماراتها والدولة العثمانية
- التحالف الفرنسي العثماني كان في عام ١٥٣٦م
- مشروع ملك فرنسا شارل الثامن في الاستلاء على القسطنطينيّة
- جذور ومسببات الصراع والعداء العثماني الفرنسي والغرب

- ببروز الدولة الطورانية العثمانية التركية كقوى على أطرف الشمالي من الحوض المتوسط
- العداء الفرنسي العثماني وحملة نابليون بونابرت على المستمرات العثمانية
- ظهور المسألة الشرقية تعني بروز أهمية الممرَّين المائيين: الدردنيل والبوسفور
- مواقف الدول الفاعلة من الدولة العثمانية/بريطانية
- الحرب العالمية الأولى
- اتفاقية سايكس بيكو الانكليزية الفرنسية في ١٩١٦
- اتفاقية "سيفر" عام ١٩٢٠ قد نصت صراحة على إقامة دولة كردية وأخرى أرمنية ضمن حدود تركيا الحالية
- استمرار حروب الفرنسية العثمانية التركية حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانيّة
- الوضع الراهن وتصاعد العداء والخلاف الفرنسي التركي
- أبعاد العداء والخلافات الفرنسية التركية وتشابك قضاياها الجيو - السياسية
- المراجع والمصادر

مقدمة

يقصد بالصراع بأنّه حالة متناقضة سببها التعارض الحقيقي في التفكير أو التناقض فيما بين الاحتياجات والرغبات أو السلوكيات أو القيم أو الأيديولوجيات أو تشابك المصالح. فالصراع قد يكون داخلياً. في الشخص نفسه أو خارجيّا. بين شخصين اوبين مجموعة من الافراد. او مجموعات بشرية. التنافس والاختلاف قد تتطور حتى وصل إلى الحقد والكراهية ثم الصراع أو النزاع فالعداء.

مفهوم العداء والصراع

يشمل كثيراً من جوانب الحياة الاجتماعية ما بين البشر كاختلاف في الرؤى، أو في وجهة نظر أو اختلاف في المصالح، أو خلاف اجتماعي أو تعارض وتنافس على المصالح ما بين الطبقات

أو شرائح أو مجموعات. والتي تؤدي إلى صراع أو نزاع عنيف دموي كالحروب والغزوات. والأمثلة كثيرة عبر التاريخ التي كان سببها الاختلاف بين العشائر والقبائل أو جماعات أو منظمات أو حضارات أو إمبرطوريات أو حتى دول في التاريخ الحديث. وسببه الرئيس هو التنافس والصراع على الثروات أو الخيرات أو على الجغرافيا التي تمتلك موادّ أولية غنية. أو على مناطق استراتيجية. بالمختصر أن الصراع هو قانون ناتج عن حتمية تطور المجتمعات وفرض حتميته على الجوانب الحياتية منذ بداية الخليقة نتيجة عدم سيطرة القيم والأخلاق على توجيه الرغبات والدوافع الغريزية. وقد بدأ من صراع الإنسان مع نفسه ومع أخيه الإنسان وحتى مع الطبيعة التي تختصنه في الوجود بغية الديمومة والامتلاك. ثم الاستيلاء سواء كان معرفياً ذاتياً أو فطرياً غريزياً. لذا يستوجب على الكائن البشري أن ينظّم سلوكياته بالوجدان وبذكاء وعقلانية في جميع جوانب حياته الاجتماعية والمجتمعية. وإلا فسوف تتحول الرغبات والمتناقضات إلى تنافس واختلاف ثم إلى تناقض في المصالح ثم إلى صراع. فنزاع فعداء ثم ينتقل إلى بلاء فحروب ثم دمار وفناء.

١- الصراع كمفهوم أو مصطلح: يتحدّد الصراع من خلال تحديد الظروف الموضوعية للموضوع أو من خلال المادة عند بروز العقدة أو المشكلة. فعندما نقول: مجموعتان أو شريحتان مصالحهما متناقضة. فالتعبير الذي يمكن أن يفسره هو الاختلاف فالصراع أو النزاع. إذاً يمكن القول: - إن طبيعة الصراع والنزاع هي التي تولّد الكراهية والحقد ثم العداء.

٢- موضوعنا ليس البحث في مفهوم أو طبيعة الصراع أو أشكال الصراع أو كيف يتطور الصراع إلى نزاع أو إلى أزمات ثم إلى عداء فحروب.

يمكن أن نعرّف الصراع أو العداء على أنه ظاهرة اجتماعية تتضمن حالة من الضغط أو عدم الارتياح أو عدم القبول الناتج سواء بين الأفراد أو المجتمعات على حد سواء. إن جميع المتغيرات تحدث بين رغبتين أو أكثر لصراع ما، سواء كان نفسياً داخلياً أو خارجياً كصراع المجتمعات وصراع المصالح بين الشعوب وبين الطبقات، وصراع المجتمعات كصراع الأعراق والحضارات إلخ.

المدخل إلى الموضوع

نشأة الدولة الفرنسية الحديثة:

إن اندلاع الثورة الإنكليزية في عام ١٦٨٨ والثورة الأمريكية في عام ١٧٧٦ وخاصة الفرنسية في عام ١٧٨٩ تلك الثورة التي كان الفقر أهم أسبابها، واتّسمت بالاضطرابات السياسية والاجتماعية التي انهار من خلالها النظام الملكي، وتم الإعلان عن الجمهورية في عام ١٧٩٢ وإعدام الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت في عام ١٧٩٣، الثورة التي غيرت وجه العالم والتي أدت إلى بناء لبنة لنشوء الحضارة الحديثة.

كانت فرنسا من أوائل الدول التي تطورت في منتصف القرن السابع عشر وتمكنت من أن تصبح دولة ذات نفوذ قوي على الصعيد العالمي، بعد أن كانت تواجه مشاكل اقتصادية جمة جراء السياسات الخاطئة التي اتبعها الملك لويس الرابع عشر، مما أدى في نهاية الأمر إلى ثورة الشعب المقهور التي عُرفت بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وكان لها تأثير كبير وعميق على أوربا والشرق الأوسط والعالم برمته، حيث انتهت بسيطرة البرجوازية بتحالفها مع الجنرال نابليون بونابرت، وأثمرت عن تصدير أزمتها إلى المستعمرات من خلال التوسع، لتصبح إمبراطورية فرنسية ذات

> **يمكن أن نعرف الصراع أو العداء على أنه ظاهرة اجتماعية تتضمن حالة من الضغط أو عدم الارتياح أو عدم القبول الناتج سواء بين الأفراد أو المجتمعات على حد سواء. إن جميع المتغيرات تحدث بين رغبتين أو أكثر لصراع ما، سواء كان نفسياً داخلياً أو خارجياً كصراع المجتمعات وصراع المصالح بين الشعوب وبين الطبقات، وصراع المجتمعات كصراع الأعراق والحضارات.**

شأن كبير، فكانت الثورة الفرنسية حدثاً محورياً في تاريخ العالم. وبصعود نابليون بونابرت إلى سدّة الحكم في فرنسا مع لعب كتابات مفكرين وفلاسفة تلك الفترة مثل إيمانويل جوزيف والكونت دي ميرابو وماركيزدي لافاييت ولويس أنطوان وجورج دانتون ونابليون بونابرت وغيرهم، الذين كان لهم الفضل الأعظم في وصول فرنسا إلى ركب الحداثة والتطور الحضاري بعدما كانت قبل الثورة مقسّمة إلى ثلاث فئات:

ا- الكهنة ورجال الدين

ب- الارستقراطيون والإقطاعيون

ج- وفئة عامة الشعب.

فرجال الدين كانوا خاضعين للذهنية الخرافية الميتافيزيقية وكانوا يحتقرون العلم والعلوم التجريبية، ويعتقدون أنّه ليس بالإمكان أفضل ممّا كان، وكلّ شيء موجود في النصوص الدينية المقدسة، وبالتالي لا داعي للبحث عن الحقيقة

من خلال العلوم التجريبية والعلمية، وكانوا خاضعين ومستسلمين للمسلمات اللاهوتية والطائفية والمذهبية التي أوصلت المجتمع إلى الهلاك والضياع ثم الركود فالانحطاط.

مما لا شكّ فيه أن الحتمية المادية والجدلية التاريخية والصراع المجتمعي ستتولد من حاضنتها شخصيات عظيمة وفلاسفة يؤمنون بالعلم والعلوم والمعرفة والنور الذي سيقودنا إلى اكتشاف الحقائق والحقيقة، ذلك أنّ العقل الفلسفي الذي يُضيء طريق المجتمعات في اكتشاف ما في جوف الأرض وما يحيط بها، والوصول إلى المادة وقوانين الطبيعة، الأمر الذي أدى إلى اكتشاف الآلة والمخترعات الحديثة التي تريح الإنسان من بذل الجهد العضلي، وتحقق الرفاهية، بالفعل لقد نجح مشروع التنوير في أوربا وقضى على مخلفات الأصوليين، ذلك المشروع التنويري نهض بالحداثة والحضارة الحديثة إلى غزو الفضاء وكشف الكواكب والمجرات إلخ...

نشأة الدولة العثمانية

العثمانيون قوم من الأتراك ينتسبون من وجهة النظر الأثنية إلى العرق الأصفر أو العرق المغولي، ويُرجِع بعض المؤرخين نشأة الإمارة العثمانية إلى حوالي ١٣٠٠م، بينما يرجع البعض الآخر إلى ١٣٨٠م، عندما توفي آخر سلاطين دولة السلاجقة الروم؛ السلطان غياث مسعود الثالث، حيث كانت الإمارة العثمانية تابعة للدولة السلجوقية، ولم يكن للعثمانيين بروز قبل ١٣٠٠م، لقد ساهم وتسبّب الغزو المغولي المتوحش للمنطقة في هجرة البعض من القبائل التركية من وسط آسيا إلى الأناضول، ثم تعاظمت هجراتهم وخاصة إبان انتصار السلاجقة على البيزنطيين في معركة ملاذ كرد، وتنسب الدولة العثمانية إلى مؤسسها عثمان بن أرطغرل الذي ولد في عام ١٢٥٨ من قبائل الآغوز التركية التي هاجرت من موطنها الأصلي آسيا الوسطى ليستقر في كنف دولة سلاجقة الروم في عام ١٢٨١ وتولى عثمان بن أرطغرل سيداً على العشيرة وبدأ بالتوسع حتى تمت السيطرة على أنقرة عام ١٣٥٤م، ثم بدأ التوسع نحو الغرب إلى أن تمت السيطرة على أدرنة ثم قلعة جناق، أي «جناق قلعة»، وبعد عدة معارك مستفيداً من تمزق الشعوب السلافية تمت السيطرة على قسطنطينية أي إسطنبول الحالية بقيادة محمد الفاتح، فتوغّل العثمانيون في البلقان ثم غيّروا وجهتهم نحو شرق المتوسط والشمال الإفريقي.

الجذور التاريخية للصراع والعداء الفرنسي العثماني

مما لا شكّ فيه أن أوربا وعلى رأسها فرنسا قد سعت باستمرار وبلا هوادة لتحقيق أطماعها في السيطرة على حوض المتوسط والسواحل الشمالية لإفريقيا والوصول إلى شرق المتوسط بكل ما أمكن، وكانت فرنسا على رأس الدول التي شاركت في أحلاف بغية السيطرة على شرق المتوسط، فكان أول تحالف بين فرنسا وإسبانيا إبان الملكية، وكان من أولويات أهدافه هو الوقوف في وجه الزحف العثماني نحو الغرب، وحاول الحلف الفرنسي الإسباني مراراً إخراج العثمانيين من شرق القارة أي البلقان الأوربية وحتى الأناضول بغية السيطرة على الممرات والمضائق المائية كمرمرة والبوسفور.

مشاركة فرنسا في الحلف الغربي ضد السلطان بيازيد الأول

جاء تخوفاً من تنامي القوة العثمانية وبالتالي عجز الممالك والإمارات الأوروبية في التصدي والوقوف في وجههم، فقد وجّه «بونيفاس» بابا روما دعوة تاريخية لتشكيل تحالف قوي ضد العثمانيين بلغ تعداد مقاتليها ١٢٠ ألف مقاتل، وكان على رأسهم المقاتلون الفرنسيون

تحت إمرة وقيادة نبلاء فرنسا. إن مشاركة فرنسا في التحالف ضد السلطان محمد الفاتح لمنعه من التوسع نحو البلقان، ثم مشاركة فرنسا في حلف أوربي ضد السلطان بيازيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح في معارك خليج ليبانتو باليونان في عام ١٤٩٩ خير دليل على جذور العداء التاريخي.

بداية التقارب السياسي بين الممالك والإمارات الأوروبية والدولة العثمانية

حدث ذلك في أواخر عهد السلطان بيازيد الثاني ومن بينها فرنسا، وكانت فرنسا إحدى المحطات التي ينتقل فيها الأمير جم شقيق السلطان بيازيد الثاني الذي نازعه أخاه السلطان على السلطة وفشل في طموحه، فلجأ إلى فرسان يوحنا في جزيرة رودس، فطلب السلطان بيازيد أن يحافظوا عليه مقابل أن لا يغزو جزيرتهم، ولكن عارض الطلب كل من ملك مجر وإمبراطور جرمانيا فطلبوا من فرسان رودس أن يسلموا الأمير جم لأخذه أسيراً، ولكن رفض الفرسان ذلك لأنه كان يريد استخدامه كعامل ضغط لإضعاف الدولة العثمانية في سبيل إيقاعهم في حروب داخلية، وبقي هناك يتنقّل مع الفرنسيين إلى أن توفي في مدينة نابولي الإيطالية.

التحالف الفرنسي العثماني كان في عام١٥٣٦م

شهد عام ١٥٣٦ عقد أول تحالف دبلوماسي وعسكري متناقض في الإيديولوجيا بين الفرنسيين والعثمانيين، فالأولى مسيحية والثانية مسلمة، وذلك بطلب من الملك الفرنسي فرانسوا الأول من السلطان العثماني سليمان القانوني بغية المساعدة في الوقوف في وجه التوسع الإسباني بقيادة الملك شارلكان وبرفقة الإمبراطور الروماني، وما إن تم الإعلان عن التحالف

كانت فرنسا من أوائل الدول التي تطورت في منتصف القرن السابع عشر وتمكنت من أن تصبح دولة ذات نفوذ قوي على الصعيد العالمي، بعد أن كانت تواجه مشاكل اقتصادية جمة جراء السياسات الخاطئة التي اتبعها الملك لويس الرابع عشر، مما أدى في نهاية الأمر إلى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وكان لها تأثير كبير وعميق على أوربا والشرق الأوسط والعالم برمته.

الفرنسي العثماني حتى بدأت الكنيسة الأوربية الكاثوليكية بمهاجمة هذا التحالف المعلن بوصفه أثيماً، الأمر الذي سبّب إحراجاً واضحاً لفرنسا في العالم المسيحي والكاثوليكي بالأخص، وبرغم معارضة الكنيسة لذلك فقد استمر التحالف ليخدم مصالح الطرفين في سبيل العمل لفرض هيمنتهم على الممرات والطرق التجارية البحرية لحوض المتوسط، من خلال منح ميناء طولون الفرنسي للعثمانيين الذي حولوه إلى قاعدة عسكرية من أجل الإسراع في السيطرة على سواحل الشمال الإفريقي.

مشروع ملك فرنسا شارل الثامن في الاستيلاء على القسطنطينية

يُذكر في صفحات التاريخ أن شارل الثامن كان يرغب في تنفيذ مشروع كبير يهدف من ورائه الاستيلاء على قسطنطينية إسطنبول الحالية

والإطاحة بالدولة العثمانية، وخطط للوصول إليها عن طريق البندقية وجعْلها قاعدة ليتوجه منها إلى ألبانيا، فلما شرع في الإغارة على إيطاليا إبان زمن البابا إسكندر، خشي حكام نابولي والبندقية من تعاظم شأن الفرنسيين فوضعوا لهم العراقيل، إذ أرسلوا للسلطان بيازيد ليُعلموه بما ينوي شارل الثامن، واستمر الصراع إلى أن غزا سليمان القانوني جزيرة رودس عام ١٥٢٢م فتم الاستيلاء على الجزيرة.

التقارب والتحالف الفرنسي والدولة العثمانية في ١٥٣٦

وكان هذا التقارب بين ملك فرنسا فرنسوا الأول والسلطان العثماني سليمان القانوني، فهذا التحالف يرجع إلى عدة أسباب منها بروز العثمانيين كقوة ومحاولات التوجه نحو أوربا والاستيلاء على الطرق البحرية، ورغبتهم في التوسع إلى شمال إفريقيا وشرق المتوسط، فتخوّف الملك فرانسوا من التقارب بين الإمارات والممالك الأوربية والدولة العثمانية مما يؤدي إلى تحالف يشكل خطراً على المصالح الفرنسية.

جذور ومسبّبات الصراع والعداء العثماني الفرنسي والغرب

تكمن جذور الصراع في ثلاث ركائز وحتميات أساسية وهي:

1- أهمية حوض مياه البحر الأبيض المتوسط ٢- شرق المتوسط كبقعة استراتيجية كونية للتنافس عليه ٣- أهمية وميزة سواحل شمالي إفريقيا للدول المتصارعة وقربها من فرنسا.

هذه النقاط الأساسية هي التي حددت المسارات السياسية للدول المتصارعة على هذه الجغرافيا الاستراتيجية والبقعة الهامة من العالم، والتي تسببت في تشابك مصالح الدول في التنافس والاختلاف والصراع ثم إلى العداء.

يكتسب البحر الأبيض المتوسط أهميته كونه يتوسط العالم بجغرافيته ذات البعد الاستراتيجي والمؤثر منذ بدايات التاريخ، وله بعد اقتصادي هائل بدءاً من المواد الأولية التي يمتلكها مروراً بالممرات المائية وطرق العبور والخلجان والجزر، ثم الدور التاريخي والحضاري لهذه الجغرافيا التي كانت بوابة انطلاق البشرية والآدمية والحضارات والأديان منذ فجر التاريخ، هذه الجغرافيا كانت مهداً للحضارات التي نمت وشيدت على سواحلها وضفاف أنهارها كالنيل ودجلة والفرات، وكانت حاضنة للتقدم والازدهار، وملتقى امتزاج وتعايش جميع الحضارات والثقافات، فزادت أهميتها في القرن السادس عشر نتيجة المتغيرات التي حصلت على المستوى العالمي باكتشاف العالم الجديد ونجاح الثورات وخاصة الثورة الصناعية في أوربا، والتي يُعتبر حوض المتوسط رئة يُتنفس منها، فتطور وتضخم اقتصاده مما أدى إلى تغيير موازين القوى بين الشرق والغرب، فأنتج مخاضاً لولادة ونشأة صراعات بين الدول والقوى الكبرى في سبيل السيطرة على الطرق التجارية سواء كانت برية أو بحرية، واستثمار أحواض البحيرات والسيطرة على المساحات لضرورة فتح الأسواق أمام المنتجات التي أنتجتها الثورة الصناعية.

بروز الدولة الطورانية العثمانية التركية كقوة على الطرف الشمالي من حوض المتوسط

ثقافة الغزو والتوسع الشرسة الإجرامية والدموية وباستثمارها للأصولية الدينية في احتلالها جغرافية شعوب البلقان وشرق المتوسط والسواحل الجنوبية للشمال الإفريقي أدت إلى تصادمها مع بحّارة وأساطيل الإمبراطورية الإسبانية والملكية الفرنسية، التي كانت مسيطرة على حوض وممرات البحر المتوسط، وتلتها بعد ذلك الجمهورية الفرنسية.

وبعد أن تمكنت الطورانية العثمانية من إخضاع ممالك سوريا ومصر في ١٥١٦ و١٥١٧ م فضلاً عن مناطق واسعة من أوربا وانتزاع سواحل إفريقيا من الهيمنة الإسبانية، وباستيلائها على جزيرة ريودس المسيحية الواقعة على الطريق التجاري بين إسطنبول القسطنطينيّة والإسكندرية في عام ١٥٢٢، وإعطاء السلطان فرماناً بإخلاء الجزيرة نهائياً خلال اثنى عشر يوماً لانسحاب كل سكانها منها، وبالفعل في كانون الثاني عام ١٥٢٣ غادرت ٥٠ سفينة محمّلة بالفرسان والجرحى مع خمسة آلاف من السكان الجزيرة وبينهم الأستاذ الأعظم للفرسان «فاليري دياساي»، أدى كل ذلك في سبيل تأمين الحدود الشرقية للمتوسط، مما أدى إلى تعمق الصراع والعداء بين أوربا وخاصة إسبانيا والدولة الفرنسية مما أدى إلى انتعاش المسألة الشرقية والتي كانت السبب الرئيس في اندلاع الحرب العالمية الأولى في المستقبل.

العداء الفرنسي العثماني وحملة نابليون بونابرت على المستعمرات العثمانية

بدأت الحملة بمصر حيث جهزت فرنسا حملة عسكرية ضخمة بقيادة الجنرال نابليون، كان الهدف منها الدفاع عن المصالح الفرنسية في حوض المتوسط والسواحل الشمالية لإفريقيا وشرق المتوسط، بعد أن تعاظم النفوذ التركي العثماني في شرق المتوسط وشمال إفريقيا والحجاز والعراق، وتطورِ العلاقات العثمانية الإنكليزية، مما أصاب المصالح الفرنسية بالضرر، لذا انطلقت الحملة من ميناء طولون الفرنسي في عام ١٧٩٨ بقيادة نابليون وغادرت الحملة بثلاثمئة سفينة حربية مجهّزة بالعتاد والخبراء لدراسة الأوضاع متوجّهة إلى السواحل المصرية الشمالية. وكانت أهدافها الأساسية:

1- جعل مصر قاعدة استراتيجية وعسكرية يُبدأ منها لتوسيع مستعمراتها وجعلها قاعدة لتشكيل إمبراطوريتها الحديثة

2- الوقوف أمام تطور العلاقات العثمانية الإنكليزية

3- تضييق الخناق على العثمانيين وتلقينهم درساً

4- السيطرة على طرق التجارة العالمية

5- العمل على فتح قناة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط لنقل طريق التجارة البحرية من رأس الرجاء الصالح إلى قناة السويس، لإحراج وضرب وعرقلة أسطول التجارة الإنكليزية الذي يربط شبه الجزيرة الهندية بالمملكة المتحدة.

قبل الغزو قدّم «شارل مجالون» القنصل الفرنسي بولاية مصر العثمانية تقريراً مفصّلاً إلى الحكومة الفرنسية عن ضرورة غزو مصر والاستيلاء على ثرواتها ومنتجاتها وتجارتها لحرمان الدولة العثمانية منها، ولقد تحركت الحملة وفي طريقها تم الاستيلاء على جزيرة مالطا للتحكم بالطرق التجارية وجعلها قاعدة للتواصل مع المركز وقطع الطريق أمام السفن الإنكليزية والعثمانية، فوصلت الحملة إلى الإسكندرية المصرية وتم احتلالها بعد مقاومة أهلها وحاكمها محمد كريم، وتابعت الحملة طريقها حتى وصلت إلى القاهرة في ٢٥ يوليو عام ١٧٩٨ عندما سمع نابليون أن الأتراك يعدّون لاستعادة مصر بمساعدة الإنكليز، فأعدّ ثلاثة عشر ألف مقاتل من جيشه وتوجّه إلى سوريا وفلسطين في ١٠ فبراير عام ١٧٩٩ واستولى على العريش وغزة ويافا ثم عكا، ولكن لم يتمكن من السيطرة عليها نتيجة مقاومة أهلها وحاكمها أحمد الجزار، فعاد إلى مصر بعدما سمع أنباء عن نزول قوات تركية إنكليزية في خليج أبي قير، فتوجه شمالاً وانقضّ على الجيش التركي فألحق به الهزيمة. وكان من أهم نتائج هذه الحملة هو ظهور المسألة الشرقية.

ظهور المسألة الشرقية يعني بروز أهمية الممرَّين المائيَّين الدردنيل والبوسفور

”يذكر في صفحات التاريخ أن ُشارل الثامن كان يرغب في تنفيذ مشروع كبير يهدف من ورائه الاستيلاء على قسطنطينية إسطنبول الحالية والإطاحة بالدولة العثمانية، وخطط للوصول إليها عن طريق البندقية وجعلها قاعدة ليتوجه منها إلى ألْبانيا، فلما شرع في الإغارة على إيطاليا إبان زمن البابا إسكندر، خشي حكام نابولي والبندقية من تعاظم شأن الفرنسيين فوضعوا لهم العراقيل.“

ما بين حوض المتوسط وحوض البحر الأسود، مما أدى إلى ظهور تحالفات استراتيجية من قبل القوى الفاعلة، وكان ذلك نتيجة الصراع لتقاسم ميراث وأملاك الدولة العثمانية

أسباب ظهور المسالة الشرقية:

1- ضعف الدولة العثمانية نتيجة التنافس العائلي على السلطة

2- السياسات الشوفينية والعنصرية التي مارسها السلاطين بحق شعوب المستعمرات

3- تدنّي ثقافة الدولة ونجاح الثورة الصناعية في أوربا

4- انتشار الفساد في نظام الحكم في مركز وولايات الدولة العثمانية

5- ظهور دول متطورة وقوية كبريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والقياصرة الروس، وتنافسهم على ممتلكات الدولة العثمانية

6- وعي ونهوض الشعور القومي في مستعمرات الدولة العثمانية والممارسات القذرة بحق الشعوب الأصلية في المنطقة وكشف خداعهم الدين المسمى بقميص آل عثمان.

مواقف الدول الفاعلة من الدولة العثمانية – بريطانيا مثالا

التي عملت بسياسة التوازنات في تفتيت وتوزيع أملاك السلطة مع إبقاء أراضي الأناضول وجزء من البلقان بيد الأتراك لاستثمارهم كشرط للحفاظ على التوازن ما بين البحرين المتوسط والأسود. أما موقف فرنسا وروسيا فكان حازماً وهو تفتيت الدولة كلياً، أما ألمانيا وإيطاليا فقد شكلتا محوراً مع السلاطين ضد الحلفاء مما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الأولى.

الحرب العالمية الأولى:

عُرِفَتْ حينئذٍ بالْحَرب الْعُظْمَى، نشبت بدايةً في أوروبا من ٢٨ يوليو ١٩١٤ وانتهت في ١١ نوفمبر ١٩١٨. أسبابها متعددة لكن سببها المباشر: اغتيال الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند، لكنّ أسبابها الجوهرية متعددة ومنها التنافس والأطماع، والصراع على الخيرات والأسواق، وتوزيع مستعمرات العثمانيين.

اتفاقية سايكس بيكو الإنكليزية الفرنسية في ١٩١٦

هي معاهدة سرية بين فرنسا والمملكة المتحدة بمصادقة من الإمبراطورية الروسية على اقتسام منطقة الهلال الخصيب بين فرنسا وبريطانيا، ولتحديد مناطق النفوذ في غرب آسيا وتقسيم الدولة العثمانية التي كانت المسيطرة على تلك المنطقة في الحرب العالمية الأولى، واعتمدت

الاتفاقية على فرضية أن الوفاق الثلاثي سينجح في هزيمة الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى ويشكل جزءًا من سلسلة من الاتفاقات السرية التي تأمل في تقسيمها. وقد جرت المفاوضات الأولية التي أدت إلى الاتفاق بين ٢٣ نوفمبر ١٩١٥ و تاريخ ١٩١٦، وهو التاريخ الذي وقّعت فيه الدبلوماسية الفرنسية والإنكليزية الاتفاقية، وتم خلالها توزيع المستعمرات العثمانية في شرق المتوسط والشمال الإفريقي وتقزيم العثمانيين فيما بعد.

اتفاقية "سيفر" عام ١٩٢٠ قد نصت صراحة على إقامة دولة كردية وأخرى أرمنية ضمن حدود تركيا الحالية

لقد تمكن «أتاتورك» من دفع الدول الغربية خلال اتفاقية «لوزان» إلى التخلص من بنود اتفاقية «سيفر» بهذا الخصوص، وهو ما يعدّه الأكراد «خيانة» غربية لتطلعاتهم وحقوقهم القومية، خاصة أن الحكومات التركية اللاحقة قمعت بالقوة عشرات الثورات والانتفاضات الكردية، وقد كان لافتاً إصدار العشرات من المنظمات والهيئات الكردية في الذكرى السنوية لاتفاقية «لوزان» بيانات دعت فيها الأمم المتحدة وسويسرا ومعظم المنظمات الدولية الحقوقية إلى إعادة الاعتبار للبنود الواردة في اتفاقية «سيفر» بخصوص إقامة دولة كردية، والاعتراف بما أسمته «الإبادة العثمانية والتركية للأكراد» على غرار ما جرى للأرمن. لذا ينادي الرئيس التركي بالتخلص من «لوزان»، والجواب المختصر هو الروح الاستعمارية، إذ أن العدول عن "لوزان" والعودة إلى الميثاق الملي يعني العودة إلى احتلال تركيا أراضي شاسعة من شمال سوريا والعراق ومناطق من اليونان، بل إن تركيا تريد تطوير الميثاق الملي على شكل "عثمانية جديدة" تهدف إلى احتلال وتوسيع نفوذ تركيا في مناطق بليبيا ودول أخرى في الجوار الجغرافي، مثل شمال قبرص والقوقاز وغيرها من المناطق التي تعدها تركيا جزءاً من أمنها القومي. ولعل هذا ما يفسر النزعة العسكرية التركية في القوس الجغرافي الممتد من إدلب في شمال غرب سوريا إلى شمال العراق وإقليم كردستان، مروراً بمدن دير الزور والرقة والموصل وكركوك وصولاً إلى السليمانية، إذ تتحدث تركيا عن "حقوق تاريخية" لها في هذه المناطق، ولسان حال الرئيس التركي أردوغان يقول إما أن تكون هذه المناطق تحت نفوذ تركيا أو أن تقلب تركيا الحدود على أهلها، ما يوضح النزعة التوسعية الاستعمارية التركية.

لقد شهدت الحرب الأولى ضحايا بشرية لم يشهدها التاريخ من قبل، وسقطت السلالات الحاكمة والمهيمنة على أوروبا، وانهارت السلطة العثمانية، وتم تغيير الخارطة السياسية لأوروبا. وتعدّ الحرب العالمية الأولى البذرة للحركات الأيديولوجية كالشيوعية وصراعات ونزاعات مستقبلية كالحرب العالمية الثانية، بل وحتى الحرب الباردة.

أنتجت الحرب العالمية الأولى بروز الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، ثم سطوع بريق النازية في ألمانيا، كونها خسرت في الحرب العالمية الأولى وتركت الكثير من الأمور معلّقة إلى بعد الحرب.

وأخذت الحروب شكلاً جديداً في أساليبها بتدخل التكنولوجيا بشكل كبير في الأمور الحربية، ودخول أطراف لا ناقة لها بالحروب ولا جمل وهي كالشعوب المظلومة والشرائح الاجتماعية المدنية

استمرار الحروب الفرنسية العثمانية التركية حتى بعد وقف الحرب العالمية

استمرت سلسلة من النزاعات والصرعات والحروب التي خاضتها القوات الفرنسية في كيليكيا برفقة الفيلق الفرنسي الأرمني

ضدّ الحكومة المؤقتة التركية، في الفترة ما بين مايو ١٩٢٠ وأكتوبر ١٩٢١ امتداداً للحرب العالمية الأولى، ما يؤكد مدى الاهتمام الفرنسي بتطبيق اتفاقية سايكس بيكو مع الاتفاقية الفرنسية الأرمنية (١٩١٦) التي أدت إلى إنشاء القوات الأرمنية تحت قيادة الجيش الفرنسي لاحتلال عاصمة الخلافة العثمانية إسطنبول من قبل قوات المملكة المتحدة وفرنسا في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ إلى غاية ٤ أكتوبر ١٩٢٣م، وتم الوصول إلى هدنة ما يسمى بهدنة «مودروس»، التي أدت إلى تقسيم الإمبراطورية العثمانية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. دخلت القوات الفرنسية أولاً إلى المدينة في ١٢ نوفمبر ١٩١٨، تلتها القوات البريطانية في اليوم التالي.

هبطت القوات في إسطنبول بعد هدنة مودروس، وانتقل الجيش الفرنسي إلى تشوكوروفا بما يتماشى مع سرية اتفاقية سايكس- بيكو، والتي أعطت فرنسا السيطرة على سوريا العثمانية وجنوب الأناضول، بما يتضمن المواقع الاستراتيجية المحورية في سهل تشوكوروفا الخصيب، وموانئ مرسين والإسكندرونة، ومناجم النحاس في إرغاني من جهة أخرى، وكانت أراضي بلاد الرافدين الخصيبة وولاية الموصل (حيث كانت حقول النفط من أولويات البريطانيين، وتبعاً للاتفاقية سيتولى البريطانيون السيطرة عليها، وتتقدم القوات الفرنسية نحو مدينتي عنتاب ومرعش، ثم سيطر الفرنسيون بحسب اتفاقية ساكس بيكو على مناطق جنوب الأناضول المخصصة لهم في الاتفاقية. الاحتلال الفرنسي لآسيا الصغرى: كان أول ما فعله الجيش الفرنسي هو السيطرة على مناجم الفحم العثمانية ذات الأهمية الاستراتيجية، وكان الهدف هو السيطرة على موارد الطاقة تلك وتلبية احتياجات الجيش الفرنسي، كما مُنع توزيع الفحم في الأناضول، والذي كان يُستخدم في أنشطة لدعم التمرد ضدّ الجيش التركي.

في مارس ١٩١٩، اتّجه زورقان فرنسيان إلى ميناءَي زنغل داك وقرة دنيز إرغلي على البحر الأسود للسيطرة على منطقة تعدين الفحم التركية. وبسبب المقاومة التي واجهتها فرنسا في عامها الأول في المنطقة، بدأت القوات الفرنسية في الانسحاب من قرة دنيز إرغلي في ٨ يونيو ١٩٢٠. واصلت القوات احتلالها في زنغل داك، حيث احتلت المدينة بأكملها في ١٨ يونيو ١٩٢٠ وكانت العمليات الرئيسية في تراقيا تهدف إلى دعم الأهداف الاستراتيجية للحلفاء. دخل لواء فرنسي القسطنطينية في ١٢ نوفمبر ١٩١٨. وفي ٨ نوفمبر ١٩١٩، وصل الجنرال الفرنسي فراشيه داسبيري وهو القائد الأعلى لقوات الحلفاء إلى الدولة العثمانية- القسطنطينية للتنسيق مع حكومة الاحتلال.

سقوط مدينة بورصة العاصمة العثمانية السابقة ذات الأهمية الاستراتيجية في شمال غرب الأناضول: وقعت في أيدي القوات الفرنسية أيضاً لفترة وجيزة قبل الهجوم الصيفي الكبير للجيش الأرمني عام ١٩٢٠، والذي سقطت فيه المدينة بالكامل.

الوضع الراهن وتصاعد العداء والخلاف الفرنسي التركي

لقد ذكرنا فيما سبق مدى أهمية واستراتيجية حوض البحر الأبيض المتوسط، وما حوله من جغرافيا، نتيجة تقاطع المصالح الاستراتيجية وتشابك القضايا الجيوسياسية، وتصاعدَ وتفاقمَ بشكل واضح التوتّر الفرنسي التركي في الآونة الأخيرة حيث توضحت الاتهامات المتبادلة بينهما نتيجة تضارب مصالحها، وخاصة في سوريا وشرق المتوسط وليبيا وجنوب المتوسط بخوص عملية ما يسمى «الأطلسي» الأمنية، أي مناورات لحماية أمن أوربا والتهديدات العسكرية مختلفة الأشكال، حيث يُكشف عن حجم الخلاف الفرنسي التركي العثماني، وفي تصريح من الرئيس الفرنسي إمانويل ماكرون «إن الدور

الإجرامي لتركيا في سوريا وليبيا لا يبعث الخير للمنطقة». بالمقابل اتهمت تركيا فرنسا بلعب دور خطير في دعمها لقوات المشير حفتر، إذ لا يبدو أن انسحاب فرنسا من عملية الأطلسي الأمنية في المتوسط خطوة مؤقتة أو عابرة، ولا تبدو وحدها منزعجة من تركيا، فالاتحاد الأوربي بشكل عام يتوجس من الدور التركي الأحادي في منطقة المتوسط، انطلاقاً من احتلال أجزاء من سوريا ومهاجمة تركيا للقوات الكردية المتمثلة بقسد في شمال سوريا، والتي تعمل مع التحالف الدولي في مواجهة التنظيم الإرهابي داعش، مروراً بتنقيب تركيا عن الغاز في منطقة اقتصادية تابعة لقبرص التي تعتبرها فرنسا وأوروبا أمراً غير شرعي وغير قانوني دولياً، وصولاً إلى تحويل تركيا كنيسة متحف آية صوفيا إلى مسجد، الأمر الذي أزعج الأوربيين.

وتأتي المسالة الليبية في صدارة الخلافات الفرنسية التركية عبر انتهاك تركيا حظر السلاح الذي فرضته الأمم المتحدة في ليبيا، ويرى المتابعون والمحللون أن مناخ التصعيد والتوتر حادّ وجارٍ بين الطرفين، وهذا يؤكد أن منطقة شرق المتوسط هي منطقة الصراعات والأزمات، وإن حاولنا أن نخوض ولو قليلاً في خضم التحولات والمتغيرات التي حدثت منذ عشرة أعوام فقط والتي سوف تحدث أكثر في الأشهر القادمة، يتأكد كما أكّده التاريخ أكثر أن المناطق الدولية تشهد صراعات ونزاعات عسكرية حادة، سواء كانت بالنيابة أو مباشرة، وتأتي سوريا ولبنان والعراق وليبيا في المقدمة كونها تقع في بقعة استراتيجية من هذا الحوض. وللتذكير فقط فهناك حادثة تعكس حجم التوتر في هذه الجغرافيا، حيث أعلنت فرنسا تعليق مشاركتها في عملية الأطلسي الأمنية بسبب تعرّض إحدى سفنها ومضادّاتها لإشعاعات من رادار السفن التركية، هذا ما أعلنته فرنسا، وبالتالي أعلنت فرنسا الانسحاب من عملية الأمن البحري لحلف شمال الأطلسي في منطقة المتوسط وذلك بسبب الخلاف مع تركيا، وأعلنت متحدثتها أن

بدأت الحملة الفرنسية من ميناء طولون الفرنسيّ على مصر في عام ١٧٩٨، حيث جهزت فرنسا حملة عسكرية ضخمة بقيادة الجنرال نابليون بونابرت، وكان الهدف منها الدفاع عن المصالح الفرنسية في حوض المتوسط والسواحل الشمالية لإفريقيا وشرق المتوسط، بعد أن تعاظم النفوذ التركي العثماني في شرق المتوسط وشمال إفريقيا والحجاز والعراق، وتطور العلاقات العثمانية الإنكليزية، مما أصاب المصالح الفرنسية بالضرر.

في أجواء التوتر الشديد بين باريس وأنقرة قررنا سحب وحداتنا مؤقتاً من عملية سي غرديان، واعتبرت فرنسا أنّ الخطوة التركية تصرّف عدائي تجاه فرنسا، وتؤكد مجريات الأحداث أنه بلغ التنافس والصراع التركي والفرنسي حدّ العداء والصدام الاستراتيجي في ليبيا، حيث وقفت كل من فرنسا وروسيا ومصر والإمارات بجانب المشير خليفة حفتر المتمركز في شرق ليبيا، ووقفت تركيا مع حكومة السراج ومقرّها العاصمة طرابلس، وتعالت التهديدات والانتقادات الفرنسية لتركيا متهمة إياها وبشكل صريح بأنها قامت بنقل العديد من الإرهابيين من أنحاء العالم إلى سوريا ومن سوريا إلى ليبيا، معتبرةً الدورَ التركي إجراميّاً، وصرّح ماكرون أن تركيا مسؤولة عن الإجرام في سوريا وليبيا، مما يؤكد صحة ما نصبو إليه بأن المصالح الفرنسية متناقضة وعميقة في حوض المتوسط والمشرق.

أبعاد العداء والخلافات الفرنسية التركية

وتشابك قضاياها الجيوسياسية

مما لا شكّ فيه أن سياق الجدل الدائر بين فرنسا وتركيا يتوضح لكل متابع للأحداث بأنه ليس موضوع النزاع الليبي أو قضية تنقيب تركيا عن الغاز قرب السواحل القبرصية فقط، بل يتعدى ذلك. فالنزاع في سوريا يشكل مصدراً هاماً من مصادر توتر العلاقات الفرنسية التركية برغم التفاهم على مواجهة النظام السوري الحالي وتحميله مسؤولية الجرائم المرتكبة. فعندما توجّه تركيا قواتها العسكرية لمواجهة القوات الكردية الممثلة بقوات سوريا الديمقراطية المعروفة باسم «قسد» تحت مسمى مواجهة إرهاب حزب العمال الكردستاني، ترى فرنسا ومعها الأوربيون أن تركيا تتصرف بشكل غير عقلاني. فمحاربة تركيا للقوات الكردية التي تتعاون وتتحالف مع الحلف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لمواجهة التنظيمات الإرهابية وعلى رأسها تنظيم داعش وجبهة النصرة، ليس محض صدفة.

ثانياً- قبرص ساحة أخرى من ساحات التوتر بين فرنسا وأوروبا من جهة وتركيا من جهة أخرى. إنّ الانتهاكات التركية تجاه قبرص واليونان ترجع إلى سبب اقتصادي واستراتيجي خالص بعيد كل البعد عن مسببات محاربة الإرهاب. في وقت دعم توقف تركيا في التنقيب عن الغاز والمواد الأولية قبالة سواحل قبرص وحوض المتوسط، والحفر لاستكشاف الجيولوجيا. مما اضطرت فرنسا وأوروبا إلى توجيه تحذير شديد اللهجة لتركيا بأن تركيا مستمرة بسياساتها العنصرية المجحفة بحق شعوب المنطقة، ودسّ السمّ بين مكونات المجتمع القبرصي وتقسيم قبرص على أساس أثنيّ.

ومن أهم الأسباب الرئيسة السبب غير المعلن بدور تركيا في دسّ ونشر ثقافة الخبث الأصولي بين المجتمع الأوربي، عن طريق جمعيات ومؤسسات المجتمع المدني من أبناء الجالية التركية والإسلامية في أوربا، مما يرى العقلاء في أوربا أن تركيا تلعب دوراً غير أخلاقي يشكل خطراً على الثقافة والأمن القومي الأوربي. وهذا ما جعل فرنسا وبعض الدول الأوربية الأخذ بالوقوف في وجه طموحات تركيا في الانضمام إلى النادي الأوربي، ناهيك عن قيادة تركيا للتنظيمات الإرهابية وزجّها في مناطق التوتر لإثارة الفوضى وضرب مصالح الشعوب. وجعلها بذرة لإثارة المشاكل والنزاعات وابتكار الأساليب لغزو واقتطاع أجزاء من دول الجوار، واستثمارها لخدمة مصالحها الشوفينية. فمثلاً في سوريا وليبيا والعراق وأرمينيا وباكستان.

إن قوى مراكز القرار العالمي ليست غافلة عمّا تقوم به تركيا، وإننا كمتابعين نرى أنه سيتعمّق الخلاف والصراع والعداء، وسيجلب المآسي على كل الشعوب إن لم تتوحد القوى الديمقراطية الخيّرة والوقوف بوجه قوى البطش والسلب والنهب والشر والحقد والإجرام.

المراجع والمصادر

-1 تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، خليل أينالجك، ترجمة محمد أرناؤوط، دار المدار، بنغازي، 2002

-2 تاريخ العثمانيين، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، بيروت، 2013

-3 كتاب الاتفاقيات أيفيان، تأليف بن يوسف خدة، دار المطبوعات الجامعية، الجزائر 2016 م

-4 الحرب العالمية الأولى، عمر الديراوي، دار العلم للملايين، بيروت 1999م

-6 الصراع الفرنسي في الشرق، جيمس بار، ترجمة سلافا الماغوط، دار الحكمة، لندن 2018 م

القضيّة الكُرديّة في خِضمِّ الحرب الباردة بين الشَّرق والغرب..
(التّحالفات والانقسامات)

جميل رشيد

تمهيد

لا تزال القضيّة الكُرديّة تحتلُّ مكانةً بارزةً في اهتمام القوى الدّوليّة والإقليميّة، والمراكز البحثيّة المتخصّصة بالتّاريخ والجغرافيا والعلوم السّياسيّة والاجتماعيّة، نظراً للتّداخل الكبير بين القضيّة الكُرديّة، كقضيّة تحرر وطنيّ لشعب يناضل من أجل حقوقه المشروعة، وقضايا التحرّر الوطنيّة في المنطقة والعالم، ليس لجهة التّلاحم الكفاحيّ فقط؛ بل لجهة التأثيرات المتبادَلة بينها، فضلاً عن تقاطعها، وأحياناً كثيرة تضادها مع مصالح الدّول الغربيّة، التي سعت دائماً إلى استخدام القضيّة الكُرديّة ورقةً تساوم عليها وبها في تثبيت مصالحها في منطقة الشّرق الأوسط.

المرحلة التي تلت الحرب العالميّة الثّانية، وبعد أن تجلّى بشكل واضح شكل الخرائط السّياسيّة والجغرافيّة التي رُسِمَت في «يالطا» ومن قبل عدّة مراكز قوى عالميّة؛ قسّمت بموجبها مناطق النّفوذ بين الدّول المنتصِرة في الحرب، ولعلّ أبرزها الولايات المتّحدة الأمريكيّة والاتّحاد السّوفياتي، ووقوع أوروبا الشّرقيّة تحت السّيطرة السّوفييتية، لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع الدّوليّ؛ أبرز سماتها الحرب الباردة بين القطبين الرّأسماليّ والاشتراكيّ.

إنَّ أخطر مرحلة مرّت بها القضيّة الكُرديّة، كانت مرحلة ما بعد انتهاء الحرب العالميّة الثّانية، حيث حالة الستاتيك السّياسيّ التي حافظت عليها القوى العالميّة، وضعتها في الثّلاجة، ولم تُبدِ أيَّ اهتمام يُذكر بحلولها، بل تركتها على غاربها للدّول التي تقاسمت جغرافيّة كردستان فيما بينها، وقوّضت محاولات الحركات الكُرديّة في كسر حالة الموت السّريريّ التي فرضتها تلك الدّول عليها. بل زادت من أعبائها أكثر، بأن عاشت بين دُفّتيها حالة الانقسام بين المعسكرين الاشتراكيّ والرّأسماليّ، بكُلِّ تناقضاتها السّياسيّة والفكريّة والإيديولوجيّة.

ففي حين كانت ثورات حركات التحرّر الوطنيّة العالميّة تحقّق انتصارات باهرة في عدّة بلدان، بعد أن تلقّت الدّعم والمساندة من المعسكر الاشتراكيّ، ضمن إطار منظومة حلف "وارسو" والأمميّة الثّالثة "الكومنتيرن"، وتصل بالتّالي إلى استقلالها الاقتصاديّ والسّياسيّ النّاجز، مرّت القضيّة الكُرديّة بمرحلة من الضياع في البوصلة السّياسيّة والإيديولوجيّة والفكريّة، خاصّة بعد انهيار تجربة جمهوريّة "كردستان/ مهاباد" في شرقيّ كردستان، وإخماد سلسلة الانتفاضات والثّورات الكُرديّة في باكور/ شمال كردستان، ومن ثُمَّ اندلاع ثورة سبتمبر/ أيلول في جنوب كردستان عام ١٩٦١ التي قادها الملا مصطفى البارزاني، واندلاع صراع دمويّ بين الحكومة المركزيّة العراقيّة المتمثلة بحزب البعث والكُرد، وصولاً إلى توقيع اتّفاقيّة الحكم الذّاتيّ في ١١ مارس/ آذار عام ١٩٧٠، ومن ثُمَّ اتّفاقيّة الجزائر المشؤومة في ٥ مارس/ آذار ١٩٧٥ بين شاه إيران ونائب الرّئيس العراقيّ آنذاك صدّام حسين، والقضاء على تجربة الحكم الذّاتيّ وإغراق كردستان بالدم والمجازر.

إنَّ دراسة هذه المرحلة بإسقاطاتها وتداعياتها، ودور القوى العالميّة في تحديد مسارات القضيّة الكُرديّة، وكذلك الطبيعة التكوينيّة للحركات الكُرديّة، وعدم قدرتها على فهم معادلة الصراع الدّوليّة، وبالتّالي انسجامها معها، وتثبيت حلول القضيّة الكُرديّة، لها أهميّة بارزة في فهم تعقيداتها، والوصول إلى طرح الحلول الأكثر نجاعةً للقضيّة الكُرديّة.

سنحاول دراسة تلك المرحلة، وتحديد موقع القضيّة الكُرديّة في لوحة الصراع العالميّ، وتبيين كيف ضحّت القوى العالميّة بالقضيّة الكُرديّة على مذبح مصالحها مع الدّول المحتلّة لكردستان، وكذلك عدم قدرة الحركات الوطنيّة الكُرديّة في كسر حالة الجمود التي فرضتها القوى الإقليميّة والدّوليّة على القضيّة الكُرديّة، وطرح أفكارٍ عصريّة تنسجم مع المعادلة الدّوليّة الجديدة التي تشكّلت في أعقاب الحرب العالميّة الثّانية.

تجربة جمهوريّة كردستان/ مهاباد.. النشأة والانهيار

تأسّست جمهوريّة كردستان في ٢٢ يناير/ كانون الثّاني عام ١٩٤٦، على يد عدد من السّياسيّين الكُرد في شرق كردستان بقيادة «قاضي محمّد» الذي اختير رئيساً للجمهوريّة.

إنَّ قراءة الظروف الدّوليّة والإقليميّة التي ولدت فيها الجمهوريّة، ضمن لوحة الصراع الدّوليّ آنذاك، تُسهّل في فهم تداعياتها وحجم التأثير الدّوليّ في القضيّة الكُرديّة وحلّها وتشابك الخيوط حولها، وكيف أنَّها أضفت عليها مزيداً من التعقيد، ليتبيّن أنَّها أيضاً خاضعة لسياسة المحاور الدّوليّة، التي ما انفكّت تتقاذفها ذات اليمين والشّمال، وحتّى

عصرنا الرّاهن.

التّنافس الحاصل بين الاتّحاد السُّوفياتي والولايات المتّحدة الأمريكيّة وبريطانيا وفرنسا حول مناطق النّفوذ في الشّرق الأوسط، خاصّة بعد توقيع اتّفاقيّة يالطا بين الاتّحاد السُّوفياتي بزعامة ستالين وبريطانيا بزعامة ونستون تشرتشل والرّئيس الأمريكيّ تيودور روزفلت في مدينة يالطا السُّوفياتيّة على البحر الأسود في ١١ فبراير/ شباط عام ١٩٤٥، وغياب الرّئيس الفرنسي شارل ديغول عنها، لخلافات شخصيّة بينه وبين تشرتشل. كان الهدف الرّئيسيّ من المؤتمر كيفيّة تقسيم ألمانيا ومحاكمة أعضاء الحزب النّازيّ.

إلا أنَّ المسألة الأهمّ التي ولدت مع المؤتمر، وبعد تعاظم الدّور السُّوفييتي في أوروبا الشّرقيّة والعالم عموماً، أنّها دشّنت لمرحلة جديدة من الصراع الدّوليّ بين القطبين الدّوليّين، المعسكر الاشتراكيّ بقيادة الاتّحاد السُّوفياتي تحت مظلّة حلف "وارسو"، والمعسكر الرّأسماليّ الغربيّ بزعامة أمريكا وتحت مظلّة حلف شمال الأطلسيّ "النّاتو"، وبدء مرحلة الحرب الباردة، التي كانت سِمَتُها الأساسيّة رفع القدرات التسليحيّة لكلا الطرفين، والبدء بالصراع على مناطق نفوذ جديدة في العالم.

كانت إيران التي يحكمها الشّاه محمّد رضا بهلوي، تتبع للمعسكر الغربيّ، والشّركات النّفطيّة الغربيّة تتغلغل في قطّاع النّفط الإيرانيّ، وخاصّة الشّركات البريطانيّة التي كانت قد دخلت في منافسة حقيقيّة مع نظيراتها الأمريكيّة حول الاستحواذ على عقود الاستثمار فيها. هذا التّنافس وصل إلى درجة دفعت حكومة رئيس الوزراء الإيرانيّ محمّد مصدق إلى تأميم النّفط الإيرانيّ وإخراج الشّركات الأجنبيّة من إيران، ما دفع بالاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة الـ(CIA) إلى تنفيذ انقلاب عليه، وصولاً إلى إعدامه.

جميع تلك الظروف الدّاخليّة والإقليميّة، دفعت ستالين إلى دعم إنشاء جمهوريّة كُرديّة في شرق

"التّنافس الحاصل بين الاتّحاد السوفياتي والولايات المتّحدة الأُمريكية وبريطانيا وفرنسا حول مناطق النّفوذ في الشّرق الأوسط، خاصّة بعد توقيع اتّفاقيّة يالطا بين الاتّحاد السوفياتيّ بزعامة ستالين وبريطانياً بزعامة ونستون تشرتشل والرئيس الأمريكيّ تيودور روزفلتَّ في مدينة يالطا السوفياتية على البحر الأسود في ١١ فبراير/ شباط عام ١٩٤٥، كان الهدف الرئيسيّ من المؤتمر كيفية تقسيمَ ألمانيا ومحاكمة أعضاء الحزب النازي."

كردستان، بالتّزامن مع تأسيسه جمهوريّة أذريّة في أذربيجان الخاضعة لإيران أيضاً. كذلك تشكّلت قناعة لدى ستالين حول علاقة شاه إيران رضا بهلوي (الذي فَرَّ من إيران وحَلَّ محلّه ابنه محمّد رضا بهلوي) بأدولف هتلر، واعتبر أنَّ إيران هي الخاصرة الرَّخوة للاتّحاد السُّوفياتي، والتي يمكن أن تتسلّل منها الدّول الغربيّة لتهدّده، فقرّر الدُّخول فيها عسكريّاً، وإنشاء جمهوريتي كردستان وأذربيجان الدّيمقراطيّتين.

إنَّ تصاعد النّفوذ على إيران الغنيّة بالنَّفط والتي تشكّل بوّابة نحو الشّرق الأوسط، دفعت ستالين إلى دعم إنشاء الجمهوريّة الكُرديّة، من طرف واحد، دون أن تنالَ أيَّ اعتراف رسميّ من قبل أيّ دولة غربيّة أو شرقيّة، ولم تكن لدى القيادة السُّوفياتية أيّ توجّهات جدّيّة ومبدئيّة لحلّ القضيّة الكُرديّة ضمن إطار حقّ تقرير المصير للشُّعوب، حيث طرح الرّئيس الأمريكيّ ويلسون مبادئه الأربعة عشر بعد الحرب العالميّة الثّانية، والتي نصّت على حق الشعوب لتقرير مصيرها بنفسها، وأكّدَته

عصبة الأمم المتّحدة. وفيما بعد ميثاق الأمم المتّحدة بعد الحرب العالميّة الثّانية.

كذلك عارضت الجمهوريّة التركيّة الأتاتوركيّة، إنشاء الدّولة الكُرديّة. وسعت بكُلّ ما تملك من إمكاناتها كدولة لها نفوذ لدى الدّول الغربيّة إلى إجهاضها. من خلال التّوافق مع شاه إيران ودفعه إلى محاربتها. إثر إخمادها آخر انتفاضة كُرديّة ضُدّها في ديرسم عام ١٩٣٧.

لم تتمكّن الجمهوريّة من النهوض والاعتماد على إمكانات الشّعب الكُرديّ في تطويرها وبناء مؤسّسات الدّولة وإداراتها التي تتمتّع بكيان مستقلٍّ. حتّى أنّها اعتمدت العملة الرّوسيّة في التّعامل "الرّوبل الرّوسيّ» ولم يكن لديها القدرة على سكِّ عملة خاصّة بها. فهي لتلك الأسباب وغيرها لم تكن قادرة على مواجهة التحدّيات التي تواجهها من الحكومة الإيرانيّة ومحيطها الإقليميّ. فتواجد الجيش الأحمر السُّوفييتي في أراضي الجمهوريّة. منحها نوعاً من القوّة والثّبات. إلى أنّها لم تمنحها الفرصة الكافية لبناء مؤسّساتها الدّفاعيّة والأمنيّة القادرة على حماية جمهوريّتها الفتيّة.

سرعان ما انسحب منها الجيش الأحمر السُّوفييتي بعد أحد عشر شهراً. نتيجة توافقات بين ستالين وشاه إيران. ما أدّى إلى انهيار الجمهوريّة. إثر هجوم الجيش الإيرانيّ عليها بكُلِّ قوّته. وارتكابه مجازر بحقّ الكُرد. واعتقال قادة الجمهوريّة وعلى رأسهم رئيس الجمهوريّة قاضي محمّد. ومن ثُمَّ إعدامهم في ساحة "جار جرا" التي أعلن فيها عن الجمهوريّة أيضاً.

لعلَّ الأسباب التي دفعت ستالين إلى سحب دعمه من الجمهوريّة. هي إحدى نقاط الضعف التي لا تزال القضيّة الكُرديّة تعاني منها حتّى يومنا هذا. فرغم أنَّ ثورات التحرّر الوطنيّة كانت حينها تلقى دعماً من الكتلة الاشتراكيّة. نرى أنَّ الاتّحاد السُّوفياتي أسهم في إغراق كردستان في بحار من الدِّماء. وقضى على حلم الشَّعب الكُرديّ في تقرير مصيره. وأبعاد ذلك الانسحاب لا يَقُلُّ تدميراً على مستقبل القضيّة الكُرديّة عن اتّفاقيّة لوزان التي تنازل فيها الغرب (بريطانيا وفرنسا) لتركيّا الأتاتوركيّة عن كردستان. مقابل تحويل تركيّا إلى قاعدة متقدّمة للغرب في الشَّرق الأوسط.

ولا نبالغ إنْ قلنا إنَّ الصراع الدّوليّ على الشَّرق الأوسط. يبدأ من كردستان وينتهي فيها. كما أنَّ انتهازيّة الدّول تظهر وجهَها القبيح تجاه القضيّة الكُرديّة. فتقايضها بمصالحها وتتنازل عن مبادئها التي تتبجّح بها ليل نهار. فرغم أنَّ الاتّحاد السُّوفياتي كان في أوج ازدهاره وينشر أفكاره الاشتراكيّة والأمميّة حول العالم. إلا أنَّه تعامل وفق منطق الدّول الرَّأسماليّة مع الكُرد وقضيّتهم. ولم يُبدِ أي مقاربة مبدئيّة منها.

ردَّةُ الفعل الغربيّة على خطوة الاتّحاد السُّوفياتي إنشاء جمهوريّة كردستان. تمثّلت بتقديم مزيد من الدَّعم لحكومة شاه إيران في قمع الجمهوريّة. حيث اتُّهمت الجمهوريّة من قبل بريطانيا وفرنسا بأنَّها تابعة للاتّحاد السُّوفياتي. وأنَّ الكُرد يميلون إلى الأفكار الاشتراكيّة. واعتبرتها أنَّها تشكِّلُ خطراً مستقبليّاً على مصالحها في المنطقة. لتغضَّ الطرف عن قضيّة شعب يواجه الإمحاء والإنكار من قبل الدّول المقتسمة لجغرافيّة وطنه فيما بينها.

كما أنَّ شاه إيران ضغط على الولايات المتّحدة الأمريكيّة التي كانت لها علاقات جيدة معه. والأخيرة ضغطت على الاتّحاد السُّوفياتي. ليسحب دعمه من جمهوريّة كردستان. ليبدأ شاه إيران في شَنِّ هجوم واسع عليها.

إنَّ سقوط الجمهوريّة شكَّلَ نكسةً كبيرة لدى الكُرد. مقابل تقوية نفوذ شاه إيران في إطلاق يده لينكّل بالشَّعب الكُرديّ. وهو ما لاقى ارتياحاً لدى تركيّا والعراق وحتّى سوريّا أيضاً.

مرّة أخرى تغدو القضيّة الكُرديّة ضحيّة

التوافقات بين القوى العظمى وتقاسمها لمصالحها، فستالين ضحّى بجمهوريّة كردستان مقابل توافقات مع الأمريكان في أوروبا الشّرقية وتقسيم ألمانيا بينهما، وكذلك الوعود التي أطلقتها له الولايات المتّحدة بحصوله على قسم من نفط إيران.

ويعتبر الكاتب الدّكتور "ضرغام الدبّاغ" في بحثه عن أسباب سقوط جمهوريّة كردستان/ مهاباد أنَّ "الغرب الرّأسماليّ ينظر لإنشاء الجمهوريّة من زاوية لا علاقة لها بالشّعب الكُرديّ وبحقوقه، ولا حتّى الشّعب الإيرانيّ، فالغرب ينظر للقضيّة من زاوية اقتصاديّة، يحتمل فيها فقدان مصالح له ليس في إيران فحسب، بل في المنطقة بأسرها، فهو يعتبر أنَّه في حال تفكّك إيران؛ فإنَّها ستتحوّل إلى كيانات صغيرة يصعُب الهيمنة عليها كما يفعلها الآن الفرس".

وفق هذه القاعدة الأساسيّة لدى الدّول الغربيّة، فهي لا تدعم نشوء دولة كُرديّة، وتفاضلها مع علاقاتها بالدّول المقتسمة لجغرافيّة كردستان، حيث تصاعد الاهتمام بإيران أكثر بعد انقلاب مصدّق ودخولها في الفلك الأمريكيّ.

انطلاق ثورة سبتمبر/ أيلول في جنوب كردستان عام ١٩٦١

بعد سقوط جمهوريّة كردستان/ مهاباد عام ١٩٤٧، توجَّهَ الملا مصطفى البارزاني، والذي كان أحد المشاركين في تأسيس الجمهوريّة، مع أكثر من /٥٠٠/ من مقاتليه إلى الاتّحاد السُّوفياتي، كلاجئ.

مرّتْ القضيّة الكُرديّة بعد تجربة الجمهوريّة في موت شبه سريريّ، لجهة فقدان الكُرد الثّقة بالقوى الدّوليّة في حَلِّ قضيّتهم، خاصّة بعد تصاعد الحرب الباردة بين القطبين الاشتراكيّ والرّأسماليّ، واعتماد كُلّ طرف إستراتيجيّات وتكتيكات تعكس مصالحهما كدول، ليغدو الصراع الدّوليّ تنافساً على الثّروات ومناطق النّفوذ، خاصّة بعد صعود الولايات المتّحدة الأمريكيّة كقوّة تقود المعسكر

"رعاية الدّول الغربيّة الرأسماليّة لحكومات وأنظمة المنّطقة، وكذلك دخول الاتّحاد السوفياتي إلى المنطقة عبر البوّابة المصريّة والسوريّة؛ دفعها إلى دعم حكومات الدّول التي تتقاسم جغرافيّة كردستان، وإنكارها لحقوق الشّعب الكُردي، لتغدو القضيّة الكُرديّة ضحيّة صراعات الدّول العظمى في المنطقة."

الغربيّ الرّأسماليّ، بعد أفول نجم كُلّ من بريطانيا وفرنسا، خاصّة في الشّرق الأوسط.

إنَّ إنشاء حلف بغداد «منظمة الحلف المركزيّ Central Treaty Organization - CENTO -" أو ما عرف في بادئ الأمر باسم "منظّمة حلف الشّرق الأوسط Middle East Treaty Organization – METO" الذي أنشئ عام ١٩٥٥ للوقوف بوجه المدّ الشّيوعيّ في الشّرق الأوسط خلال الخمسينيات، وكان يتكوّن من العراق وتركيّا وإيران وباكستان والمملكة المتّحدة (بريطانيا).

سعت بريطانيا من خلال حلف بغداد إلى ربط دول الحلف بسياساتها في منطقة الشّرق الأوسط وإلى فرض هيمنتها على الدّول الأخرى خارجه، بعد أن شكّلَ نظام نوري السَّعيد في العراق قاعدة أساسيّة لها للقضاء على أيّ توجُّهٍ تحرّريٍّ في المنطقة.

غير أنَّ قيام الثّورة المصريّة في يوليو/ تمّوز عام ١٩٥٢ والقضاء على النّظام الملكيّ المصريّ، ومن ثُمَّ تأميم قناة السّويس والعدوان الثّلاثيّ الذي شَنَّتهُ كُلّ من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر، ووقوف الاتّحاد السُّوفياتي إلى جانب مصر بقيادة جمال عبد الناصر، ساهم في نقل تأثيرات المدّ القوميّ الناصري خارج مصر، فتأسَّست حركة الضبّاط الأحرار في العراق، والتي ساهمت في انقلاب/ ثورة ١٤ يوليو/ تمّوز ١٩٥٨ بقيادة الضّابط النّاصريّ عبد الكريم قاسم والذي انقلب فيها على النّظام الملكيّ وأعلن قيام الجمهوريّة العراقيّة وحَلّ حلف بغداد، ورفض التبعيّة لبريطانيا.

ضمن الشُّروط والظروف الجديدة التي خلقتها الثّورة المصريّة والعراقيّة في المنطقة؛ أطلّت تركيّا برأسها كرأس حربة متقدّم للمعسكر الغربيّ في منطقة الشَّرق الأوسط، عندما انضمّت إلى حلف شمال الأطلسيّ (النّاتو) عام ١٩٥٢، وساهمت في تقويض الحركات والثّورات الشَّعبيّة في المنطقة، لتهدّد الدّول السّاعية إلى التحرّر من السَّيطرة الاستعماريّة وإطلاق مشاريع تنمية خاصّة بها، مثلما هدّدت سوريّا عام ١٩٥٨ عندما أعلنت عن الوحدة مع مصر، فحشدت جيشها على الحدود مع سوريّا، مهدّدة بشّنّ عدوانٍ واسعٍ عليها، ولتستخدم قوة حلف (النّاتو) في تهديد المنطقة برمّتها.

كما أنَّ الإعلان عن دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، واعتراف تركيّا بها؛ ساهم هو الآخر في اندلاع صراعٍ عميقٍ في المنطقة، أجّجته القوى الغربيّة، لتدخّل المنطقة في دوّامة من الحروب والأزمات استمرّت حتى اليوم.

وجدت الحركة الوطنيّة التحرّريّة الكُرديّة الفرصة مناسبة في العراق للمطالبة بحَلٍّ القضيّة الكُرديّة، فتوجَّهَ الملا مصطفى البارزاني من الاتّحاد السُّوفياتي إلى مصر ومنها إلى العراق، ليعقد اتّفاقاً مع الرَّئيس العراقيّ عبد الكريم قاسم في وضع إستراتيجيّة لحَلٍّ القضيّة الكُرديّة في العراق، ضمن إطار من التّوافق بين الحكومة المركزيّة والحركة الكُرديّة التي كان يقودها آنذاك الحزب الدّيمقراطيّ الكُردستانيّ في العراق.

إنَّ الادّعاء بأنَّ حَلّ القضيّة الكُرديّة يزيد من الانقسامات في المنطقة، ويُعرّض أمن الدّول التي تتقاسم كردستان فيما بينها للخطر، ما هي إلا دعاوى باطلة، يُراد منها عرقلة حَلّ القضيّة الكُرديّة. على العكس تماماً؛ فإنَّ ترك القضيّة معلّقة دون حَلٍّ، يجعل تلك الدّول ضعيفة ومهزوزة، وغير قادرة على إنجاز مهام الاستقلال السّياسيّ والاقتصاديّ النّاجز، وتحقيق تنمية مُستدامة لشعوبها، وبالتّالي دولاً غير مستقرّة، وهو ما أثبتته تجارب السّتينات والسبعينات من القرن الماضي، وصولاً إلى أيامنا هذه.

ويصف الدّكتور عصمت شريف وانلي في مذكّراته أنَّ "تحقيق أيّ نوع من الدّيمقراطيّة في البلدان التي تستعمر كردستان، مرتبط بشكل وثيق بحَلٍّ القضيّة الكُرديّة، ومنح الكُرد حقوقهم المشروعة وفق المواثيق والعهود الدّوليّة".

إنَّ تصاعد التيّار القوميّ الشُّوفينيّ ضمن العراق ممثّلاً بصعود حزب البعث، وانقلابه على نظام عبد الكريم قاسم، ومن ثُمَّ قتله عبد الرّحمن عارف، والضغوط التي مارسها على شقيقه الرَّئيس عبد السّلام عارف في تغيير وجه العراق، أدّى إلى استئناف المعارك بين الثّورة الكُرديّة والحكومة المركزيّة العراقيّة في عام ١٩٦٣، والتي تزامنت مع انقلاب حزب البعث في سوريّا واستلامه السُّلطة في ٨ مارس/ آذار من العام نفسه، ورفعه شعار "محاربة إسرائيل الثّانية في شمال العراق"، أي الثّورة الكُرديّة. فأرسل الجيش لواء عسكريّاً بقيادة اللّواء "فهد الشّاعر"، ليقف مع الجيش العراقيّ لقمع الثّورة الكُرديّة.

ويذكر الكاتب السُّوريّ البعثيّ "عبد الكريم ناصيف" في روايته المُسمّاة "الحلقة المُفرَغة"، أنَّ "القوّات السُّوريّة توجَّهت لنُصرة الشَّعب العراقيّ الشَّقيق ومنع قيام إسرائيل الثّانية في شمال العراق". هذه الذّهنيّة التي سادت بين النُّخب الثّقافيّة والسّياسيّة في كُلّ من سوريّا والعراق

وتركيّا وإيران، ألهبت المشاعر القوميّة العنصريّة ضُدَّ الكُرد وقضيّتهم، وخلقت شرخاً وبوناً واسعاً بين الشُّعوب التركيّة والعربيّة والفارسيّة والكُرديّة، وكان من آثارها أن مورست ضُدَّ الكُرديّ في تلك البلدان سياسة التمييز والإقصاء حتّى على المستوى الاقتصاديّ أيضاً.

الصراع العربيّ الإسرائيليّ، بدوره انعكس بشكل مباشر على واقع الشَّعب الكُرديّ وقضيّته، من خلال اتّهام الكُرد بالتّعامل مع إسرائيل ونعتهم بشتّى الصفات السيئة والتي تقلّل من وطنيّة الكُرديّ، رغم مشاركة الكُرد في بناء تلك الأوطان والدّفاع عنها في حروبها الوطنيّة التحرّريّة، مثل حرب التحرّر الوطنيّة التركيّة بعد الحرب العالميّة الأولى، وكذلك مشاركة الكُرد في حرب الاستقلال السُوريّة التي اندلعت بعد وقوعها تحت الانتداب الفرنسيّ، حيث أُطلِقَت الشَّرارة الأولى للثّورة ضُدَّ الفرنسيّين من جبال الكُرد (عفرين) على يد "إيبو محو شاشو" الذي تحالف مع ثورات إبراهيم هنانو (الكُرديّ الأصل) وصالح العلي في جبال العلويين. كما تبوّأ الكُرد مناصب عديدة في الدّولة السُّوريّة الحديثة، كرئاسة الجمهوريّة ورئاسة الوزراء والإدارات والمؤسَّسات الأخرى.

هذا الأمر كان يسري على العراق أيضاً، فمشاركة الكُرد في ثورة رشيد علي الكيلاني ضُدَّ الإنكليز، أثبتت ولاء الكُرد للوطن العراقيّ ونبذهم كُلّ المشاريع التقسيميّة والانفصاليّة، وحصر مطالبهم ضمن الحكم الذّاتيّ والحقوق القوميّة للشَّعب الكُرديّ ضمن عراقٍ موحّدٍ.

إلا أنَّ الحكومات العراقيّة المتعاقبة على السُّلطة، تنكَّرت لحقوق الشَّعب الكُرديّ، وواجهت مطالبه بالحديد والنّار. فبعد الاتّفاق مع حكومة عبد الكريم قاسم على منح الكُرد حقوقهم ضمن جمهوريّة العراق الموحّدة؛ طغت النَّزعة القوميّة الشُّوفينيّة على أوساط الحكم في العراق، ومارست ضغوطاً كبيرة على "قاسم"، دفعته للّجوء إلى العنف وقوّة الجيش في التّعامل مع المطالب الكُرديّة، وهو ما ولّد عنفاً ثوريّاً مضاداً له، أفضت إلى اندلاع ثورة سبتمبر/ أيلول عام ١٩٦١.

إنّ رعاية الدّول الغربيّة الرَّأسماليّة لحكومات وأنظمة المنطقة، وكذلك دخول الاتّحاد السُّوفياتي إلى المنطقة عبر البوّابة المصريّة والسُّوريّة؛ دفعها إلى دعم حكومات الدّول التي تتقاسم جغرافيّة كردستان، وإنكارها لحقوق الشَّعب الكُرديّ، لتغدو القضيّة الكُرديّة ضحيّة صراعات الدّول العظمى في المنطقة.

ويذكر ضابط الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة "ويربر كرين إيفلاند" في مذكّراته، والذي عمل في منطقة الشَّرق الأوسط طيلة أربعين عاماً، من عام ١٩٤٠ حتّى عام ١٩٨٠، أنَّ الدّول العربيّة تحالفت ضُدَّ الثّورة الكُرديّة في جنوب كردستان، واعتبرتها خطراً لا يَقُلُّ عن إسرائيل على مستقبلها، خاصّة بعد وصول حزب البعث إلى السُّلطة في كُلٍّ من العراق وسوريّا.

تقلَّص النُّفوذ البريطانيّ والفرنسيّ في منطقة الشَّرق الأوسط، بعد نيل الدّول العربيّة استقلالها السِّياسيّ، لكنّها دخلت تحت الهيمنة الأمريكيّة بشكل غير مباشر، عبر إقامتها تحالفات وعلاقات عسكريّة واقتصاديّة واسعة معها، ما أطلق يدها في ترسيخ أنظمتها الملكيّة والدّستوريّة والجمهوريّة، على حدٍّ سواء.

التجربة البعثيّة في كُلٍّ من العراق وسوريّا، وقبلها النّاصريّة في مصر، واستنساخها تجربة الدّولة التركيّة القوميّة في رفض وجود أيّ قوميّة أو شعب آخر ضمن حدود دولها التي رسمت الدّول الغربيّة لها خرائط وأعلام خاصّة بها، اعتبرتْ أنَّ أيَّ مساسٍ بها يعتبر خيانة قوميّة ووطنيّة، وأنَّ كُلّ من يتواجد ضمن حدودها هو – بالضرورة – تركيٌّ أو عربيٌّ أو فارسيٌّ، وإن كان لا ينتمي إلى قوميّتها، فاعتمدت سياسة الصهر القوميّ أساساً في بناء دولها، واتّبعت سياسات عنصريّة بحقّ الشَّعب الكُرديّ، همّشت لغته وثقافته وألغت جميع خصائصه القوميّة الخاصّة به.

> **"لكلٍ من الحكومة العراقيّة والشّعب الكُردي فهم ومعان مختلفة تجاه اتّفاقية الجزائر، التي قضت على حلم الحكم الذّاتيّ الكُردي، مقابل انتعاش موجة القوميّة العربيّة البعثيّة داخل العراق، وشعورها بالنّشوة في تحقيق نصر تاريخيّ لها ولـ"الأمّة العربيّة"، ما أدى تصاعد الخطاب الإنكاريّ العصبوي العروبيّ البعثيّ، وإغراق كُردستان في بحار من الدّماء."**

انعكس هذا الرّفض في تصاعد الثّورة الكُرديّة في جنوب كردستان، وحقّقت انتصارات كبيرة، حيث ألحقت خسائر كبيرة بالجيش العراقيّ، رغم الدّعم الذي تلقّاه العراق من عدّة دول عربيّة، وفي مقدّمتها سوريّا. هذا الصراع الدّمويّ، كان تعبيراً مباشراً عن الصراع الدّائر في المنطقة، حيث وقف الاتّحاد السّوفياتي إلى جانب كُلٍّ من سوريّا والعراق ودعمهما بالأسلحة والعتاد المتطوّر، لمواجهة ما أطلقت عليه حينها اسم "مكافحة الحركة الرّجعيّة الكُرديّة في شمال العراق"، وفق ما ذكره الدّكتور عصمت شريف وانلي في مذكّراته، وكذلك الكاتب الكُرديّ أيّوب البارزانيّ في كتابه "حركة التحرّر الكُرديّة بقيادة البارزانيّين".

فالاتّحاد السّوفياتي الذي دخل في معاهدات "الصداقة" مع كُلّ من سوريّا والعراق، أيّدَ السّياسات التي مارسها النّظامين السّوريّ والعراقيّ ضُدَّ الكُرد. ويذكر العديد من السّاسة الكُرد في العراق أنَّ الطائرات السّوفيتيّة من طراز "أنطونوف وتوبوليف وميغ" شاركت الطيران العراقيّ في قصف مواقع البيشمركه الكُرد في جنوب كردستان، مبرّرة ذلك بأنَّ الحكومة "التّقدميّة" في العراق تواجه حركة انفصاليّة ورجعيّة في شمال العراق.

التوجُّهات السُوفيتيّة في التّعامل مع القضيّة الكُرديّة، من حيث النتائج، لا تَقلُّ ضرراً عن السّياسات الغربيّة الرّأسماليّة في تغييب القضيّة الكُرديّة وتعقيد حلّها. فرغم انقسام الحركات الكُرديّة بين الموالين للمعسكر الغربيّ والشّرقيّ، وتبنّي العديد منها النظريّة الاشتراكيّة واليساريّة في نضالها، إلا أنَّ هذا لم يُغيّر من مواقف الدّول الاشتراكيّة منها، ولتبدي مقاربات عادلة من القضيّة الكُرديّة، بل أخضعتها لمنطق حساباتها في الرّبح والخسارة مع الدّول التي تحتلُّ كردستان. ففاضلت بينها وبين استمرار علاقاتها مع كُلّ من سوريّا والعراق، لتنحاز إليهما، وتبتعد عن المبادئ والقيم التي طالما نادت بها.

إنَّ وصول الثّورة الكُرديّة في العراق إلى مرحلة باتت تهدّد فيها الحكومة العراقيّة؛ دفعت الأخيرة إلى تغيير مواقفها منها والقبول بإجراء مفاوضات مع مجلس قيادة الثّورة التي كان يرأسها الملا مصطفى البارزاني.

اتّفاقيّةُ الحكم الذّاتيّ في جنوب كردستان

إنَّ الظروف الإقليميّة والدّوليّة التي عُقِدَت فيها الاتّفاقيّة بين قيادة مجلس الثّورة الكُرديّة والحكومة العراقيّة، كانت في غاية الحساسيّة والدقّة. فبعد نكسة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧، وتراجع المدّ القوميّ العربيّ، وعدم قدرة الدّول العربيّة تحقيق أيّ انتصار يذكر على إسرائيل، بل على العكس، خسرت الدّول العربيّة، مثل مصر والأردن وسوريّا، وكذلك فلسطين، قسماً كبيراً من أراضيها، حيث احتلّت إسرائيل أراضي سيناء والضفة الشّرقية لنهر الأردن، وكذلك أراضي الضفّة الغربيّة وقطّاع غزّة في فلسطين، وأراضي الجولان السُّوريّ.

هذا الانكسار العربيّ العسكري والسّياسيّ والمجتمعيّ في المواجهة مع إسرائيل؛ عكس يأساً وتراجعاً في الشّعارات القوميّة التي حملتها دول المواجهة، أو ما تُسمّى «دول الطوق» حول إسرائيل، لتنتهج خطاباً سياسيّاً مغايراً – مهزوماً إن صَحَّ التعبير – لما قبل نكسة حزيران، وجد أصدق تعبيراته في الانهزامات التي عاشها الجيش العراقيّ أمام الثّورة الكُرديّة في جنوب كردستان، لتذعن في النّهاية، ومع حلول عام ١٩٦٨، ووصول حزب البعث إلى سُدَّةِ الحكم في العراق عبر الثُّنائي «أحمد حسن البكر وصدّام حسين» ومثّلاً بما كان يُسمّى حينها «مجلس قيادة الثّورة»، وقبوله بدء المفاوضات مع قيادة الحزب الدّيمقراطيّ الكُردستانيّ ومجلس قيادة الثّورة الكُرديّة.

أسفرت المفاوضات إلى توصّل الجانبين الكُرديّ والعراقيّ إلى التوقيع على اتّفاقيّة الحكم الذّاتيّ، أو ما بات يُعرف بصدور «بيان ١١ مارس/ آذار عام ١٩٧٠».

وقّعَ على الاتّفاقيّة من الجانب الكُرديّ الزّعيم الكُرديّ «الملا مصطفى البارزاني»، ومن الجانب العراقيّ نائب الرّئيس العراقيّ آنذاك «صدّام حسين».

وبموجب الاتّفاقيّة؛ والتي نصّت المادّة الأولى من الدّستور فيما بأن أُطلق اسم «جمهوريّة العراق» على الدّولة، وليس «الجمهوريّة العربيّة العراقيّة»، وأنّها تتألّف من قوميّتين، عربيّة وكُرديّة، وتعتبر اللّغة الكُرديّة هي اللّغة الثّانية في المناطق العربيّة، والأولى في المناطق الكُرديّة. وأنشئت منطقة حكم ذاتيّ، ضمّت ثلاث محافظات كُرديّة، هي «أربيل، السُّليمانيّة، ودهوك» والمناطق المتاخمة لها ذات الأغلبيّة الكُرديّة. لكن لم يَتُمّ التوصّل إلى حلٍّ حاسم بشأن قضيّة محافظة كركوك الغنيّة بالنّفط، وبقيت عالقة بانتظار نتائج إحصاءات لمعرفة نسبة القوميّات المختلفة في مدينة كركوك، وكذلك لم تُضَمّ منطقة «شنكال/ سنجار» الإيزيديّة إلى منطقة الحكم الذّاتيّ.

تضمّنت الاتّفاقيّة تمثيلاً للكرد في الهيئات الحكوميّة، على أن تنفَّذ الاتّفاقيّة بالتّدريج وخلال أربع سنوات.

ازدهرت المنطقة الكُرديّة، وعاد السكّان المهجّرون إلى مدنهم وقراهم، وافتتحت جامعة السُّليمانيّة التي تَمَّ التدريس فيها باللّغتين الكُرديّة والعربيّة، على أن يُستكمل تنفيذ بنود الاتّفاقيّة الأخرى في وقت لاحق.

غير أنَّ الشَّيطان يكمن في التّفاصيل وطريقة وأسلوب تنفيذ الاتّفاقيّات، فحاولت الحكومة المركزيّة العراقيّة التنصُّل من التزاماتها، خاصّة عندما «أعلن الزَّعيم الكُرديّ الملا مصطفى البارزاني رسميّاً حقَّ الكُرد في نفط كركوك. واعتبرت الحكومة العراقيّة إصرار الكُرد بشأن كُرديّة كركوك كإعلان حرب، وهذا ما دفع الحكومة العراقيّة في مارس/ آذار ١٩٧٤ إلى إعلان الحكم الذّاتيّ للكرد من جانب واحد فقط ووفق شروطها، دون موافقة الكُرد الذين اعتبروا الاتّفاقيّة الجديدة بعيدةً كُلّ البُعد عن اتّفاقيّات سنة ١٩٧٠، حيث لم تعتبر إعلان ١٩٧٤ مدينة كركوك وخانقين وجبل شنكال/ سنجار من المناطق الواقعة ضمن مناطق الحكم الذّاتيّ للكرد وأطلقت تسمية محافظة التأميم على كركوك». وفق ما ذكره الكاتب جرجيس فتح الله في كتابه «يقظة الكُرد».

من جانبها شرعت الحكومة العراقيّة في اتّباع سياسة التعريب في منطقتي كركوك وخانقين الغنيّتين بالنَّفط، فانهارت اتّفاقيّة الحكم الذّاتيّ، لتندلع الحرب مرّة أخرى في عام ١٩٧٤.

اتّفاقيّة الجزائر في ٥ مارس/ آذار ١٩٧٥

كانت الثّورة الكُرديّة تتلقّى دعماً من شاه إيران محمّد رضا بهلوي، في الوقت الذي كانت الخلافات على أشُدِّها بين العراق وإيران حول أحقيّة أيّ منهما بالسّيادة على شطّ العرب في مدينة الفاو على الخليج العربيّ.

تمكّنت الحكومة الجزائريّة من خلال وزير داخليّتها آنذاك «عبد العزيز بو تفليقة» من ردمِ الهُوّة بين الحكومة العراقيّة وشاه إيران، والتوصّل إلى اتّفاق لرسم الحدود بينهما في شطّ العرب، حيث تنازل العراق عن السّيادة عليه، مقابل قطع شاه إيران الدَّعم عن الثّورة الكُرديّة، وقد وقّعت تلك الاتّفاقيّة بين العراق وإيران في مدينة الجزائر العاصمة.

ما أن قطع شاه إيران المساعدات والدَّعم عن الثّورة الكُرديّة؛ حتّى بدأ الجيش العراقيّ بشَنِّ حملة عسكريّة واسعة على مناطق الحكم الذّاتيّ، وارتكب أبشع المجازر في مدنها وقراها، ما أدّى إلى سقوط الثّورة وتعرُّض قرى ومدن كردستان إلى الحرق والدّمار وتشريد أهاليها، وتوجيه ضربة قاصمة لقوّات البيشمركه.

إنَّ لكُلٍّ من الحكومة العراقة والشَّعب الكُرديّ فهم ومعان مختلفة تجاه اتّفاقيّة الجزائر، التي قضت على حلم الحكم الذّاتيّ الكُرديّ، مقابل انتعاش موجة القوميّة العربيّة البعثيّة داخل العراق، وشعورها بالنَّشوة في تحقيق نصر تاريخيّ لها ولـ»الأمّة العربيّة»، ما أدى تصاعد الخطاب الإنكاريّ العصبويّ العروبيّ البعثيّ، وإغراق كردستان في بحار من الدّماء.

لقد وجد الكُرد أنفسهم مرّةً أخرى ضحايا التّوافقات السّياسيّة بين القوى الإقليميّة والدّوليّة في منطقة الشَّرق الأوسط، فلم تحرّك أيّ من القوى المهيمنة في المنطقة والعالم، لا من المعسكر الغربيّ الرَّأسماليّ ولا الشَّرقي الاشتراكيّ، ساكناً حيال المجازر التي ارتكبها الجيش العراقيّ في كردستان، بل تلقّت الحكومة العراقيّة البعثيّة كُلَّ الدَّعم والمساندة من الدّول الغربيّة والاشتراكيّة، وتنصّلت الولايات المتّحدة الأمريكيّة من كُلِّ تعهّداتها ووعودها بدعم الثّورة الكُرديّة، بل قطعت ذاك الدَّعم الذي كان يَمُرُّ عبر شاه إيران، وفق ما يذكر ضابط الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة «ويربر كرين إيفلاند» في مذكّراته.

وَقْعُ اتّفاقيّة الجزائر على نفوس الشَّعب الكُرديّ، كان شبيهاً بنكسة حزيران على الشَّعب العربيّ، فشكّلت انكساراً نفسيّاً وسياسيّاً، تخطّى هزيمة ثورة ناضلت طيلة عقود من الزَّمن. فرغم أنَّ الثّورة تمكّنت من تثبيت الوجود الكُرديّ في العراق، دستوريّاً، ونالت حقوقاً مشروعة اعترف بها الجانب العراقيّ أيضاً، لكن سرعان ما تلاشى الحُلُمُ الكُرديّ على وقع النَّزعات القوميّة لحزب البعث في العراق، وإنكاره لكُلِّ التزاماته وعهوده التي أبرمها مع الجانب الكُرديّ. رغم أنَّ الكُرد حافظوا على روح اتّفاقيّة ١١ مارس/ آذار ١٩٧٠، ولم يتمادوا في مطالبهم. حتّى أنَّ النزاع على كركوك وخانقين وشنكال، لم تأخذ الحكومة العراقيّة بالإحصائيّات والبيانات التي أجرتها في عام ١٩٦٨.

يذكر الرَّئيس العراقيّ الرّاحل ورئيس حزب الاتّحاد الوطنيّ الكُردستانيّ جلال الطالبانيّ في إحدى مقابلاته؛ أنَّه كان من المُفترض أن تأخذ اتّفاقيّة الحكم الذّاتيّ بالإحصاء الذي أجرته الحكومة العراقيّة عام ١٩٦٨، بخصوص كركوك وخانقين وشنكال، حيث كان حينها عدد سكّان مدينة كركوك حوالي /٨٠٠/ ألف نسمة، منهم نحو /٦٠٠/ ألف من الكُرد، والباقي من العرب والتُّركمان وباقي المكوّنات، وهذا شرط كافٍ لتحديد هُويّة المنطقة وتبعيّتها لمنطقة الحكم الذّاتيّ، إلا أنَّ الحكومة العراقيّة رفضت الأخذ بذاك الإحصاء، وعمدت بعد هزيمة الثَّورة الكُرديّة إلى إجراء تغيير ديمغرافيّ في المدينتين، عبر استقدام العرب من الجنوب وتوطينهم في المدينة، إلى جانب مدِّهم بكُلّ أسباب القوّة الماديّة والعسكريّة لتثبيت وجودهم فيها، أي أنَّ مقاربات الحكومة العراقيّة من قضيّة كركوك وخانقين وأيضاً شنكال كانت قوميّة تستند إلى فكر ونظريّة البعث في جعل كُلِّ من يعيش في العراق «قوميّاً عربيّاً»، وهو ما أثبتت الأيّام ضحالتها وتناقضها مع حقائق التّاريخ والجغرافيا.

إنَّ الأبعاد الكارثيّة لسقوط ثورة جنوب كردستان، ألقت بظلالها على الكُرد في الأجزاء الأخرى من كردستان، فعاش غرب كردستان

انقسامات عديدة بين أحزابها وحركاتها، في ظلّ انكفاء الشّارع السّياسيّ والشّعبيّ عن العمل السّياسيّ. وسادت حالة من اليأس والتشاؤم بعدم إمكانيّة حصول الكُرد على حقوقهم، بعدما انهار الحكم الذّاتيّ الكُرديّ في جنوب كردستان، وأنّه مرّةً أخرى خذلتهم القوى العظمى مثلما تَمّ في تجربة جمهوريّة كردستان/ مهاباد، وأنّه لا أصدقاء لدى الكُرد غير جبالهم، فهي الأوفى والأصدق لهم.

الخاتمةُ

رُبّما الإلمام بجميع تفاصيل الخيبات والانتصارات الكُرديّة في العصر الحديث، يتطلّب الغور أكثر في أعماق التّاريخ، وفهم كُنْهِ تلك المؤامرات الدّوليّة والإقليميّة التي تدور حول القضيّة الكُرديّة، منذ اتّفاقيّة زوهاب/ قصر شيرين بين شاه إيران والسُّلطان العثمانيّ عام ١٩٣٦، وما تلاها من حروب دارت رحاها على جغرافيّة الكُرد، إضافة إلى عوامل جيوسياسيّة وذاتيّة، حالت دون وصول الكُرد إلى حقوقهم المشروعة، كما نصّت عليها المواثيق والعهود الدّوليّة.

غير أنَّ التطوّرات المتلاحقة بعد الثّمانينات، ووصول الحرب الباردة بين المعسكرين الرَّأسماليّ والاشتراكي إلى ذروتها، وولادة حركات وأحزاب سياسيّة كُرديّة استرشدت بالنظريّة العلميّة، تمكّنت من تجاوز الآفاق القوميّة الضيّقة، وحقّق قفزات كبيرة في الفكر والإيديولوجيا والممارسة العمليّة لهما. كما تجرّأت، ولأوّل مرّة، في توجيه النَّقد إلى الغرب والشَّرق، على ضوء المُقاربات الانتهازيّة والبراغماتيّة التي أبداها كُلّ قطب من القضيّة الكُرديّة.

إنَّ بداية عهد البيروسترويكا في الاتّحاد السُّوفياتي، وانهيار جدار برلين والكتلة الشَّرقيّة في أوروبا في النّصف الثّاني من العقد الثّامن من القرن المنصرم، وصولاً إلى انهيار الاتّحاد السُّوفياتي أيضاً في أوّل التسعينيّات، حمل معه انهيارات وتحوّلات عديدة في الفكر اليساريّ والحركات الاشتراكيّة، مقابل انتعاش الفكر الرَّأسماليّ في عدد من الدّول التي كانت حتّى الأمس القريب تعتبر نفسها دولاً اشتراكيّة.

هذا الواقع وجد تعبيراته في الشّارع الكُرديّ أيضاً، عبر انحياز عدد من الحركات والأحزاب الكُرديّة وابتعادها عن الفكر الاشتراكيّ التحرّري، وارتمائها في الحضن الغربيّ، مُدَّعية أنَّها انسجمت مع التطوّرات العالميّة وفهمت المعادلات السِّياسيّة للصراع الدّوليّ على القضيّة الكُرديّة، غير مدركة أنَّها مرّة أخرى ستقع ضحيّة ترتيبات مصالح الدّول في المنطقة، إن لم تعتمد على قوّتها الذّاتيّة في تحقيق انتصارات وقفزات هامّة على صعيد حَلّ القضيّة الكُرديّة.

لا شَكَّ أنَّ القضيّة الكُرديّة تشكّل جزءاً لا يُستهان به من قضايا منطقة الشَّرق الأوسط والصراع عليها، وحلّها مرتبطٌ بشكل وثيق بقضايا شعوب الشَّرق الأوسط في التحرّر والدّيمقراطيّة وإنهاء النّزاعات والصراعات القوميّة والإثنيّة والدّينيّة والمذهبيّة.

المراجع

١ – بحث للكاتب الدّكتور «ضرغام الدبّاغ» عن أسباب سقوط جمهوريّة كردستان/ مهاباد.

2 – مذكّرات الدّكتور عصمت شريف وانلي.

3 – رواية الكاتب السُّوريّ البعثيّ « عبد الكريم ناصيف» المُسمّاة «الحلقة المُفرَغة».

4 – مذكّرات ضابط الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة «وبربر كرين إيفلاند».

5 – الكاتب الكُرديّ أيّوب البارزانيّ في كتابه «حركة التحرّر الكُرديّة بقيادة البارزانيّين».

6 – كتاب «يقظة الكُرد» للكاتب جرجيس فتح الله.

7 – مقابلة مع الرَّئيس العراقيّ الرّاحل ورئيس حزب الاتّحاد الوطنيّ الكُردستانيّ جلال الطالبانيّ.

داعش وماذا بعد سجن الصناعة؟

حسين عمر

ما حصل في سجن الصناعة من جرائم نفذها عناصر التنظيم الإرهابي المتوحش داعش يصعب تصديقه، لما لها من ممارسات بعيدة حتى عن سلوك أعتى المجرمين وسفاكي الدماء في العالم.

حرق جثث العاملين وحراس وإداري السجن في الفرن الذي كان يقدّم لهم الخبز والمأكل. لا أحد يدري حتى اللحظة هل أحرقوا البعض أحياء أم تم ذلك بعد ذبحهم أو قتلهم.

هذه الحقيقة التي أوردها المرصد السوري لحقوق الأنسان تختزل كلّ الأهداف والأساليب والسلوك والممارسات الوحشية للتنظيم الإرهابي الذي أستجرّ من رحم الميراث (الإسلامي) المتناقل الذي تمتدّ جذوره إلى أكثر من ألف عام مضى بواسطة شخصيات غريبة الأطوار مهووسة بالجنس وسفك الدماء، لعبت دوراً تدميريّاً وحشيّاً في تتالي المراحل التاريخية، وصولاً إلى يومنا هذا.

واستفادت على مرّ الفترة المذكورة من ظروف معينة إن كانت في ظل الإمارات والممالك والحكومات الإسلامية المتعاقبة منذ الخلافة الأولى أو داخل مجتمعات قبلية وعشائرية متمرّدة على القوانين الدولتية، مستفيدة من الجهل المتفشي في المجتمعات الإسلامية، وكذلك بعض الممارسات الشنيعة التي أداها بعض قادة المسلمين في المراحل الأولى لفرض وتثبيت العقيدة الإسلامية على المجتمعات التي كانت ترفض الدخول الطوعي في الدين الجديد الغريب عنهم، وهنا لسنا في معرض سرد التسلسل التاريخي لظهور المجموعات المتعصبة (الإرهابية) والتي تحوّلت الى داعش بعد سلسلة من الفتاوى، والاجتهادات وأوامر الجهاد التي أصدرتها مجموعة من الذين امتهنوا الدين وظهروا دعاةً ووعاظاً، لتتبوأ صدارة المشهد وتقود قطيعاً متعطّشاً للانتقام تدفعه غرائزه وشهواته المريضة إلى القيام بأبشع الجرائم التي يندى لها جبين الإنسانية، وقد حصلت تلك الجرائم على يد المجموعات التي حركتها جهة سلطوية أو إدارية أو سياسية منذ عملية النحر الأولى في الإسلام وحتى يومنا هذا، حيث تمّ تجنيد عناصر شاذة مريضة متعصبة دينيّاً وقبليّاً لِتقوم بترهيب المجتمعات واستعباد المواطن لفرض طاعة ما سمّي بولي الأمر، بصرف النظر عن سلوكه، واستمرّ الأمر على ذلك الحال مع ظهور التنظيمات الإرهابية في العصر الحديث، وخاصة القاعدة وتفرعاتها، وجماعة الإخوان المسلمين التي استخدمها حلف الناتو في معاركها مع الاتحاد السوفيتي السابق، وسلطتهم على رقاب شعوب منطقة الشرق الأوسط، وأفريقيا والمسلمين.

وفي العديد من المراحل خرج وتمرّد بعض قادة الجهات التي دعمتها، وتحوّلت لتعمل لحسابها الخاص كما فعل أبو مصعب الزرقاوي، لكنّ التنظيم لم يستطع الاستمرارية في الاستقلال، لأنّ الجهات الداعمة تستطيع خنقه في أية لحظة، لهذا أصبحت أنقره والدوحة وغيرُها مراكزَ رئيسة لرعاية التنظيمات الإرهابية وخاصة القاعدة ووليدها داعش، وبذلك تمّ توجيههم ليكونوا السيف المسلّط على رقاب الشعب الكردي في روجآفا، والإزيديين في باشور بشكل خاص، وحينها حركت تركيا أبا بكر البغدادي ليقود الجهاد ضد الشعب الكردي، ومعروفة تلك المعارك التي دارت بين الطليعة التي وضعت على عاتقها حماية الشعب الكردي وشركاؤه في المنطقة من المكونات الأخرى حتى تحققت على يدهم إزالة ما سمّي بالخلافة الإسلامية الداعشية من الوجود، وهو ما دفع تركيا الى تجديد الدعم للمجموعات المتبقّية منهم، وحماية قادتها في المناطق التي تحتلها، وخاصة لتحريكهم متى ما شاءت ضد الإدارة الذاتية، ولهذا محاولة السيطرة على مدينة الحسكة ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة لداعش، بما أنّ هناك قوة إقليمية تساندها وهو ما ظهر جليا من خلال الأعلام الذي يتخذ من تركيا مقرّاً له مثل قناة سوريا التي يشرف عليها مستشار أمير دويلة قطر عزمي بشارة، وكذلك قناة أورينت التي يمتلكها غسان عبود المعروف بمواقفه العنصرية والمساندة للمجاميع الإرهابية، لقد عنونت قناة عزمي بشارة الهجوم منذ اليوم الأول بملحمة غويران، وهذه التسمية لم تأتِ اعتباطاً، لا من قبل شخص ما يعمل في القناة، بل كانت التسمية مدروسة، لأنّ المعلومات الأولية والجهات التي أمرت وراقبت الهجوم كانت تعتقد أنّ الهجوم سينجح، وسيتمّ تحرير الآلاف، ثم ستتمّ السيطرة على غويران، والأحياء القريبة، وتالياً على جميع أنحاء مدينة الحسكة، ولمؤازرة وتوسيع رقعة السيطرة لم يكن هناك أي عائق ليتقدّم مرتزقة تركيا من مختلف الفصائل الإرهابية

السورية للسيطرة على المنطقة الممتدة بين تل أبيض والحسكة، والتمدد نحو الحدود العراقية، وبذلك يستعيد داعش جزءاً من كيانه ليؤسس مع الجاميع الإرهابية المذكورة إمارتها الجديدة بدعم تركي وتخاذل روسي، وانسحاب أمريكي من المنطقة، نعم لو تحقق الهدف من الهجوم لأعلنت الولايات المتحدة الانسحاب حفاظاً على أرواح جنودها، وهذا هو التعليل المنطقي بالنسبة للتدخّل الأمريكي ومساندة ضمنية من وجهة نظر شعوب المنطقة.

بكل الأحوال استطاعت قوات سوريا الديمقراطية إفشال المخطّط، وقطع الطريق على انتصار وهمي للنظام السوري، وتفوق مخابراتي للنظام التركي، وقد يسأل أحدهم لماذا النظام السوري؟ لأنّه كان الأكثر سعادة، وكان يتمنى ألا يفشل الهجوم، وكانت تصريحات مسؤوليه من بثينة شعبان الى ما يسمى بمحافظ الحسكة خير دليل على ما ذهبنا اليه.

من الواضح أنّ داعش ما زال موجوداً وبقوة، وما زال يتلقّى الدعم والمساندة من النظام التركي، والحاضنة الإسلامية المتشدّدة في البوادي، والقرى النائية، ويحظى برعاية كاملة من بعض القوى المتصارعة في العالم، وستبقى الأداة الجاهزة للتحريك في أي وقت تريده تلك القوى كما حصل مع طالبان تماماً.

ستعود داعش قوة مهينة كما عادت طالبان بعد عشرين عاماً من طردها من كابول. وستعود داعش لِتسيطر على مناطق شاسعة ومنها دمشق وبغداد إذا بقيت تركيا مع وجود أردوغان أو بدونه، داعماً للإرهابيين، كما استمرّت باكستان مع وصول شخصيات مختلفة التوجهات إلى سدّة الحكم، لكن بقيت حاضنة لطالبان والقاعدة، وكذا حال تركيا حتى وإن تغيرت الحكومات، إذا بقي توجّه مركز القرار العالمي على الإبقاء على داعش فإنّها كما طالبان ستعود أكثر قوة وتسيطر لأنّها عملياً هي من تحكم المناطق المحتلة من قبل تركيا وبادية الشام والعراق والعديد من الجيوب المتناثرة في شرقي دير الزور،

"جماعة الإخوان المسلمين التي استخدمها حلف الناتو في معاركها مع الاتحاد السوفيتي السابق، وسلطتهم على رقاب شعوب منطقة الشرق الأوسط، وأفريقيا والمسلمين.

وفي العديد من المراحل خرج وتمرد بعض قادتهم لتعمل لحسابها الخاص كما فعل أبو مصعب الزرقاوي، لكنّ التنظيم لم يستطع الاستمرارية في الاستقلال، لأنّ الجهات الداعمة تستطيع خنقه في أية لحظة، لِهذا أصبحت أنقره والدوحة وغيرها مراكز رئيسة لرعاية التنظيمات الإرهابية وخاصة القاعدة ووليدها داعش"

ستكون عودة داعش زلزالاً يحطم المنطقة.

لهذا المطلوب هو التوافق الداخلي السوري السوري والعراقي العراقي، ووضع الخلافات جانباً، والعمل من أجل دحر الاحتلال التركي من أراضي كلا الدولتين.

ولن يحصل ذلك في ظل الأجواء الحالية بسبب رفض الجهات المستفيدة من وجود داعش وتبني آمالها على استمرارية ذلك التواجد الذي يشكل تهديداً دائماً على القوى الوطنية الديمقراطية في المنطقة.

إنّ تساهل القوى المؤثرة في العالم والمنطقة مع الداعمين للتنظيمات الإرهابية -تركيا ، قطر ودول أخرى - خاصة الولايات المتحدة الأمريكية - تُشكّل أرضية موضوعية لبقاء الإرهاب المنظّم منتشراً في المنطقة، وتهديداً وجودياً للقِوى والمجتمعات الحيوية فيها، إنّ بقاء أكثر من عشرة آلاف من أخطر الإرهابيين على وجه الأرض في مساحة ضيقة ورفض الدول والحكومات استلام

”إن الحل الأمثل للقضاء على إرهاب داعش في المنطقة هو التوافق الداخلي السوري السوري والعراقي العراقي، ووضع الخلافات جانباً، والعمل من أجل دحر الاحتلال التركي من أراضي كلا الدولتين. ولن يحصل ذلك في ظل الأجواء الحالية بسبب رفض الجهات المستفيدة من وجود داعش وتبني آمالها على استمرارية ذلك التواجد الذي يشكل تهديداً دائماً على القوى الوطنية الديمقراطية في المنطقة“

مواطنيها هو بحد ذاته مؤشر موضوعي على أنّ تلك الدول وفي مقدّمتها أمريكا كما ذكرنا لا تريد نهاية سريعة لداعش، ولا ترغب في استتباب الأمن والسلام في المنطقة، ولا تريد (لحلفائها) تثبيت الاستقرار والعمل على تحسين الوضع القلق فيها.

ولا يختلف الوضع بالنسبة لروسيا وإيران والنظام، فهم جميعاً مستفيدون مع بقاء داعش كقوة تهديد للسلم والأمن والحياة في المنطقة.

الإدارة الذاتية تتعرض لهجمات يومية من الخلايا النائمة المدعومة من تركيا والمجاميع الإرهابية المرتبطة بها مع وجود ذلك الكم الهائل من الإرهابيين في سجونها وهو ما يشكل تهديداً حياتيّاً لها. وقد أثبت الهجوم الذي استهدف سجن الصناعة بان المجتمع الدولي لا يبالي بقضية معتقلِي داعش، كما أنّ حكومات الدول التي لها مواطنون إرهابيون معتقلون لدى الإدارة الذاتيّة لا نيّةَ لها في استلام مواطنيها، أو حتى مساعدة الجهة التي تطوّعت، ووضعت على عاتقها حماية الإنسانية من خطر أولئك المجرمين حسب إمكانياتها المحدودة، وفي أجواء سياسية واقتصادية سيئة وفي ظل الهجمات المتكرّرة اليومية - كما ذكرنا - من قبل النظام التركي ومرتزقته على المنطقة، دون أن تتحرك الدول الضامنة لوقف إطلاق النار بين الجهتين، لا بل ترى تلك الجهات -أمريكا وروسيا - مبررات للاعتداءات الإجرامية التركية المتكررة حفاظا على علاقاتها مع الأخيرة وتتسبب تلك الاعتداءات اليومية على توجيه الإمكانيات الرئيسية للمنطقة نحو تأمين السلامة والأمن للمواطنين والجهات الفاعلة فيها العسكرية والمدنية منها وهو ما يؤدي الى زيادة نشاطات داعش العسكرية مستفيدة من الأراضي المحتلة للتحضير والتدريب والتجهيز للقيام بالعمليات الإجرامية داخل مناطق الإدارة.

ولهذا المطلوب عاجلاً البحث عن حل مستدام لموضوع المعتقلين والدواعش وأسرهم في المخيمات داخل مناطق الإدارة الذاتية وهذا الحل لن يتم إلا بتضافر جهود القوى الفاعلة على الأرض من خلال مساعدة الإدارة الذاتية في إنشاء محكمة دولية لمحاكمتهم ليلاقوا جزاءهم العادل، ولن يتم ذلك إلّا من خلال اتفاقيات بين الإدارة الذاتية وتلك القوى، واخصّ هنا التحالف الدولي وروسيا والعراق والنظام السوري.

سيبقى خطر داعش مستمرّاً على العالم ككلّ إذا لم يتم إيجاد حلٍّ قانوني وسياسي لأوضاع المعتقلين وعوائلهم، ولن يكون الخطر على مناطق الإدارة الذاتية فقط وإنما كما ذكرنا في المتن فإنّ دمشق وبغداد هما الهدف.

جبهة التحرير الوطني لفيتنام
«الفيتكونغ»

مصطفى شيخ مسلم

كما الحال بالنسبة لكل الدول التي تحوي صراعاتٍ مُختلفة، أغلبها عسكرية، كان لفيتنام باعٌ طويل في حربٍ
لرُبَّما لم تُشفَ منها إلى يومنا هذا، وُصفَتْ بأنَّها الحَرب الأكثر دَمَويّة في القرن العشرين، بحسب المؤرخينَ
والمعاصرين لتلك الحرب، حيثُ بَلَغتْ خسائر الطرفين الملايين ما بين قتيلٍ وجريح.
هَذهِ الحَرب الضَروس التي دارتْ رُحاها ما بين جبهة التحرير الوطني لفيَتنَام والتي تعرف أيضاً باسم
«الفيتكونغ» إذ حاربتْ ضدَّ الولاياتِ المتحدة الأمريكية، والحكومات الفيتنامية الجنوبية آنئذٍ، حيثُ كانتْ
«الفيتكونغ» منظمةً سياسية جماهيرية في جنوب فيتنام وكمبوديا مع جيشها - قوات التحرير الشعبية المسلحة لجنوب فيتنام (PLAF).

من هم «الفيتكونغ»؟

هو المُصطَلح الذي أطلقته حكومة سايغون على القطَّاع العسكري الثائر من جبهة

التحرير الوطني، والتي تم الإعلان عنها مطلع العام ١٩٦٠.

وكلمة «فيت ـ كونغ» التي دَرجتْ عام ١٩٥٦ تعني باللغة الفيتنامية «الشيوعيين الفيتناميين». وجبهة التحرير الوطني تُمَثِل الواجهة السياسية للحزب الشيوعي الفيتنامي، «لاودونغ» ـ أو حزب العمال الفيتنامي ـ الحزب الشيوعي الحاكم في الشمال. وجبهة التحرير الوطني و«الفيتكونغ»، لا يضمان أحداً من المواطنين غير الشيوعيين. فهما جهتان تنتميان إلى حزب واحد، تَنوَّعتْ أسماؤه، في مراحل مختلفة من الحقبة السياسية لِفيتنام.

إلاّ أنه بقي حزباً شيوعياً واحداً منذ تأسيس حزب الهند الصينية الشيوعي عام ١٩٣٠. وعلى عكس منظمة «**فيت ـ منه**» التي تعني باللغة الفيتنامية، الوطنيين الفيتناميين ـ والتي تسلّل إلى صفوفها الشيوعيون عام ١٩٤٠ تحت ستار محاربة الاستعمار الفرنسي، انتهت بتصفية الوطنيين غير الشيوعيين منها في نهاية عام

١٩٤٥، قبل تصفية فرنسا من الهند الصينية عام ١٩٥٤.

فقصة «الفيتكونغ» ـ ومعها «الفيت ـ منه» ـ تعود إلى أوائل الثلاثينيات من القرن المُنصَرِم. وأشخاصها لا زالوا معنا حتى يومنا هذا، فتحت إمرة ورعاية وتوجيه الرجل الذي أطلق على نفسه اسم هوتشي منه، تأسس حزب الهند الصينية الشيوعي مطلع يناير عام ١٩٣٠. ولفترةٍ من الزمن، انشغل الشيوعيون الفيتناميون ببناء كوادر حزبهم وتَصقيل نفوذهم بدخولهم في المنظمات الوطنية المعادية لفرنسا وَقتَذاك، بُغية إقصاء العناصر الوطنية غير الشيوعية عنها بِكُل السُبُل المُتاحة حينئِذٍ، بما في ذلك كشف أسمائهم للسُلطات الاستعمارية الفرنسية في فيتنام. وفي عام ١٩٤١، انضمّ الشيوعيون الفيتناميون إلى «**جامعة الاستقلال الفيتنامي**» أو «**الفيت ـ منه**» كما عُرِفَتْ فيما بعد، وهي منظمة وطنية لطالما شجّعها الصينيون الوطنيون لمحاربة اليابان في الهند الصينية.

وبين عام ١٩٥٨ وعام ١٩٦٠، كان دور هانوي دوراً بعيداً عن الأضواء. فقد ظَلَّتْ العمليات في الجنوب، عمليات لا تحمل وُسُوم الشمال الرسمية حتى منتصف عام ١٩٦٠، حتّى بدأت هانوي تلمّح لتأييدها الفيتكونغ بشكلٍ خَجول، بل وتدعو رجالات القبائل للثورة، واعدةً إياهم بدعم لا متناهٍ من «**حكومة هوتشي منه المحبوبة**».

وفي ذلك العام بالذات، تحولت عمليات الفيتكونغ إلى عمليات علنية، وتبنّى الحزب الشيوعي ثورة الفيتكونغ على الجنوب بشكلٍ رَسمي في المؤتمر الوطني الثالث في سبتمبر عام ١٩٦٠.

وانبثقت جبهة التحرير الوطني في يناير عام ١٩٦١ عن برنامج كامل لمحاربة «نظام ديم الفاشيستي في الجنوب»، مؤلف من عشر نقاط. وأصبح الفيتكونغ الجناح العسكري للجبهة بشكلٍ رسمي، وبقيت الجبهة واجهة سياسية لتنفيذ ما تريده هانوي.

وبعد مضيّ أكثر من قرن وربع قرن، تقف الولايات المتحدة وجهاً لوجه أمام عدو فيتنامي من جهة، ومع حليف فيتنامي من جهةٍ أخرى. والعدو الفيتنامي عسكرياً، هو الفيتكونغ في الجنوب والقوات النظامية لفيتنام الشمالية، وسياسياً جبهة التحرير الوطني، الذراع السياسية للفيتكونغ في الجنوب، والنظام الشيوعي الذي يرأسه هوتشي منه في الشمال.

وبعد الهجوم الصاعق الذي شنه الفيتكونغ طوال ثلاثة أسابيع، في أكثر المدن «أماناً» في فيتنام الجنوبية، من سايغون إلى دالات حتى هوي، ناسفاً البديهيات التي كانت تقوم عليها الاستراتيجية الأميركية، تصلب موقف الفيتكونغ عند المواقف التالية:

أولاً - لا حلّ وسطاً للحرب الفيتنامية. فالنضال «حتى النهاية» ـ الانتصار أو الموت.

* **ثانياً** ـ الشرط الوحيد لإنهاء الحرب هو الهزيمة الحتمية للولايات المتحدة وحليفتها فيتنام الجنوبية.

* **ثالثاً** - مشاكل فيتنام الجنوبية حُلّ في محادثات بين الأميركيين وجبهة التحرير، وليس بين واشنطن وهانوي.

وكما قال أحد زعماء الفيتكونغ: «في الوقت الذي يوقف فيه الأميركيون قصف فيتنام الشمالية يستطيعون التحدث مع هانوي. أما إذا أرادوا البحث في شؤون فيتنام الجنوبية فعليهم أن يتحدثوا مع جبهة التحرير».

* **رابعاً** - إنّ وجود قوات فيتنامية شمالية في الجنوب هو واجب ملقى على عاتق الشمال لمساعدة إخوانه في الجنوب. ولا انسحاب قبل التحرير الشامل. إنّ الواجب العادي لـ ٣١ مليون فيتنامي يؤلفون أمة واحدة أن يحاربوا معاً. فالأميركيون يعتقدون أنّ القوات الشمالية قوات غازية، وينسون أن فيتنام أمة وشعب واحد.

* **خامساً** - شرط المحادثات الوحيد بين الفيتكونغ والأميركيين هو الاعتراف بجبهة التحرير الممثلة الوحيدة لشعب فيتنام الجنوبية، أي التخلي نهائياً عن الحكومة الحالية ورجالاتها في سايغون.

وتبقى الاستراتيجية الأميركية في فيتنام موضع «شك كبير»، وعلى وجهِ التحديد عقب تبرير هجوم الفيتكونغ الأخير على المدن الجنوبية، بأنه عملية «يائسة». فما زال الأميركيون يصرون على تعليم العدو «ما يجب» أن يفعله، لا «ما يريد» أن يقوم به.

غير أن هذا «الشك الكبير» لا بد له من أن يولّد نوعين من ردود الفعل. الأول يتعلق بالفيتناميين، والثاني بالأميركيين. فبعض هؤلاء في سايغون من الذين يحافظون على إدراكهم الصحيح، يأملون أن يكون هجوم الفيتكونغ الأخير قد أسفر عن نتيجة إيجابية هي أنّ على الفيتناميين أن يختاروا الآن وفوراً إلى أي جانب يريدون أن ينضموا وينتموا إليه.

إذ أنّ الأيام الأخيرة أظهرت أنّ الأميركيين والشيوعيين هما الطرفان اللذان يحاربان باقتناع والتزام دفاعاً عن مبدأين مختلفين لشعب تعب من الحروب على مدى ٢١ سنة كاملة منها، فلجأ إلى عدم الاكتراث ليحمي نفسه من ويلاتها.

لذلك كان قوام الدولة في فيتنام الجنوبية مهلهلاً منذ مؤتمر جنيف عام ١٩٥٤، وعبر عهود دييم وأشقائه ومن بعدهم العسكر وفيالقهم. وإذا لم توقظ هذه الصدمة الفيتناميين الجنوبيين، وتشعرهم بأهمية الفترة المصيرية التي يمرون بها، فلا شيء في الدنيا ينقذهم.

لكن الإدراك الثاني يقع على عاتق الأميركيين، وهو أن الهدف المباشر للهجوم الشيوعي الكبير الذي وقع عليهم في فيتنام، من السفارة الأميركية في سايغون جنوباً حتى الجامعة الإمبراطورية في هوي شمالاً، لم يكن الاستيلاء على المدن، أو احتلال السفارة الأميركية. ولم يكن إثارة معارك جانبية، إذ أنّ هذه المعارك نشبت منذ أشهر في «لوك نيه» و«داك تو» و«لانغ في» على مقربة من «خي سانة».

بل لم يكن معركة خي سانة نفسها. إنّ الهدف الأساسي من الهجوم الصاعق ذاك هو تدمير الجهد الحربي للأميركيين والفيتناميين الجنوبيين، ووقف عمليات التمشيط والإبادة، وبالتالي عمليات «السيطرة السلمية»

على المناطق الجنوبية التي تمَّ تطهيرُها من الفيتكونغ، ثم جعل الحكومة الجنوبية تنهار.

ونجح الفيتكونغ في إلهاء الأميركيين وحلفائهم عن إمكان قيامهم بكل ذلك، بواسطة تضخيمهم إمكان غزو تقليدي للجنوب عبر المنطقة المجردة في الشمال أو حدود لاوس وكمبوديا، وبالتالي تركيز القوى الأميركية على هذه المناطق تركيزاً يمتنع معه وجودها على نحو كافٍ في المدن.

والجنرال جياب يعرف، حتى لو تجاهل القادة الأميركيون، أنّ هذه الحرب يجب أن يكون ربحها في عقول الفيتناميين الجنوبيين وقلوبهم، أكثر من ربحها في الغابات الكثيفة والجبال النائية.

المصادر

- ويكيبيديا
- صحيفة البيان.

الحرب الروسيّة على أوكرانيا... (دروس وعِبر)

صلاح الدين مسلم

تمهيد

ما الذي يهمّنا من هذا البحث؟ وما علاقة هذه الحرب بقضايا الشرق الأوسط؟ وهل بدأت الحروب المباشرة بعد توقّفها ما بعد الحرب العالميّة الثانيّة؟ وهل عادت روسيا إلى الصراع العالميّ كقطب ثانٍ؟ وهي هذه اللعبة الدولية هي ضدّ أوكرانيا؟ أسئلة كثيرة تعتصر في خلجاتنا في الشروع لكتابة هذا الموضوع المهمّ.

فها هي أوكرانيا أو أُكراييننا الدولة التي تعاني حرباً من دولة جارة قويّة، لِأوكرانيا وروسيا نفس العادات والتقاليد والدين والتاريخ، لكن اختلاف في السيادة والطبقات.

عندما نرى جيشاً كاملاً لدولة قويّة تجتاح جارتها التاريخيّة علينا أن نتساءل: كيف؟ ولماذا؟ وماذا يهمّنا؟ وأين نحن؟؟؟ فكلّ أسئلة الاستفهام لا تغادرنا، وكيف يغدر الناتو بدولة قويّة مثل أوكرانيا؟ ولماذا تغدر؟ وما الفائدة المرجوّة من ذلك؟ ولماذا تريد أوكرانيا أصلاً الانضمام إلى الناتو؟ ولماذا كلّ هذا الحقد الروسيّ على هذه الدولة الجارة؟ أو العكس؟

إذا كانت الحروب تخوضها الدول، والشعب وحده يدفع الثمن، والدول إن ربحت أو خسرت فهي رابحة في النهاية، أهي عادة غايات الحروب؟ أهو البحث عن المال والنفوذ والسلطة وتوسيع الإمبراطوريّات؟ فالمبدأ الحربي السائد هو أنّ الدولة القويّة تبتلع الدولة الضعيفة، والدول الأقوى تتفرّج كيف تضعف هذه الدول وتنافسها؟

وهناك من يقول: إنّ اللوم على هذا الطرف، وذاك يقول: اللوم على ذاك الطرف، وهناك من هو مصطفٌّ مع هذا، وهناك من هو متخندق مع ذلك، مع أنّ السبب الرئيس لكلّ هذه الحروب هو {فكرة الدولة} بحدّ ذاتها، فقد جاءت فكرة الحرب مع نشوء الدولة قبل خمسة آلاف عام، وحتّى الآن تعاني الشعوب من تهوّر الدول بكافّة مسمّياتها، فقد يحتوي التاريخ في طيّاته على غزوات في المجتمع الطبيعي، لكنّها كانت غزوات للبحث عن لقمة العيش، وليس البحث عن الرفاهيّة والتعطّش للدماء مثل هذه الحروب.

لمحة عن أوكرانيا

إنّها أوكرانيا أو أُوكرايينا، حيث أنّ عاصمتها مدينة كييف، وهي أكبر مدينة في أوكرانيا، وهي الدولة التي تقع في شرق أوروبا، وتحدّها روسيا من الشرق، وبيلاروسيا من الشمال، وبولندا وسلوفاكيا والمجر من الغرب، ورومانيا ومولدوفا إلى الجنوب الغربي، والبحر الأسود وبحر آزوف إلى الجنوب.

تبلغ مساحتها الكلية ٦٠٣،٧٠٠ كم٢ (٢٣٣،١٠٠ ميل مربع) ممّا يضعها في المرتبة ٤٤ عالمياً من حيث المساحة، وهي خمسة أضعاف مساحة سوريا على وجه التقريب، كما أنّها أكبر دولة تقع بأكملها في أوروبا وثاني أكبر بلد في أوروبا.

انضمت في عام ١٩٢٣ إلى الاتّحاد السوفيتي وانفصلت عنه في ١٩٩١، وشهدت منذ أوائل ٢٠١٤م أزمة سياسية بعدما قامت القوات المسلحة الروسية ببسط سيطرتها على شبه جزيرة القرم، وأجري استفتاء من بعده ضمت شبه الجزيرة إلى قوام روسيا الاتحادية، والذي اعتبرته أوكرانيا والمجتمع الدولي احتلالاً وتعدّياً على سيادة أوكرانيا ووحدة أراضيها.

بعد ذلك تصاعدت مظاهرات مؤيدة لروسيا من قبل جماعات انفصالية في دونباس شرق البلاد، مما أدى إلى حدوث صراع مسلح بين الحكومة الأوكرانية والجماعات الانفصالية المدعومة من روسيا. في شهر آب أغسطس ٢٠١٤، عبرت المدرعات الروسية حدود دونيتسك من عدة مواقع، اُعتبرَ توغل الجيش الروسي مسؤولاً عن هزيمة القوات المسلحة الأوكرانية آنذاك.

وفقاً لتعداد عام ٢٠٠١ يشكل العرق الأوكراني ٧٧،٨ ٪ والعرق الروسي (١٧،٣ ٪) والباقي أعراق أخرى: فالبيلاروس (٠،٦ ٪) والمولداف (٠،٥ ٪) وتتار القرم (٠،٥ ٪) والبلغار(٠،٤٪) والمجر (٠،٣ ٪) والرومانيون (٠،٣ ٪) والبولنديون (٠،٣ ٪) واليهود (٠،٢ ٪) والأرمن (٠،٢ ٪) واليونان (٠،٢ ٪) والتتار (٠،٢ ٪)

تعدّ اللغة الروسيّة اللغة الثانيّة في أوكرانيا، فيتكلّم حوالي ٣٠٪ من الشعب الأوكرانيّ اللغة الروسيّة كلغة أولى، إذ تُستعمل الأوكرانية والروسية في المدن، لكنّ اللغة الروسية أكثر شيوعاً في كييف، بينما تعدّ اللغة الأوكرانية اللغة السائدة في الريف، دأب الاتحاد السوفيتي على استعادة هيمنة اللغة الأوكرانية من خلال سياسة الأكرنة، من خلال الإعلام والتربية والمعاملات اليوميّة، وذلك لما تحمله الشيوعيّة

من أميّة، وعدم اهتمام بالقوميّات، وتعويضاً عن سياسة التجويع التي اتّبعها ستالين.

بينما كانت اللغة الأوكرانية هي لغة الدولة الوحيدة في جمهورية القرم حسب دستورها، مع أنّ الناطقين بالروسية هم (٧٧ ٪)، بينما يتكلم الأوكرانية ١٠,١٪ والمتكلمين بلغة تتار القرم ١١,٤٪ لكن في الحياة اليومية لغالبية تتار القرم والأوكرانيين في القرم فتُستخدم اللغة الروسية.

تمّ حظر استخدام اللغة الأوكرانية في الطباعة من قبل الإمبراطورية الروسية هذا الأمر قمع بشدة النشاط الأدبي في المنطقة، وحيث أُجبِر الكتّاب الأوكرانيون على نشر أعمالهم إما باللغة الروسية أو نشرها في غاليسيا الخاضعة للسلطة النمساوية. لم يُرفع الحظر رسمياً أبداً، لكنه ألغي عملياً بعد ثورة البلاشفة ووصولهم إلى السلطة.

إذاً كانت اللغة الأوكرانيّة لغة المجتمع الريفيّ، وهذا المجتمع محافظٌ على لغته التي كانت بين مدّ وجزر، فهذه اللغة تعود بجذورها إلى المجتمع الأصليّ، ووقعت الدولة الشيوعيّة في فخ التنميط، فكان بعض القادة أمثال ستالين راديكاليين متعصّبين للشيوعيّة الديكتاتوريّة، قد حوّلوا الشيوعيّة إلى قوميّة، والمشكلة كانت في تنفيذ الماديّة كواجب مقدّس، فأجبر ستالين الشعب على تحويل المجتمع من الإقطاعيّة إلى الرأسماليّة بالقوّة، وبالتالي كانت ردّة فعل الأوكرانيين على الدولة كإرث تاريخيّ، فاستذكروا أيّام الإمبراطور الروسيّ الذي كان يمنع اللغة الأوكرانيّة.

على الرغم من انتشار اللغة الأوكرانية في الدولة منذ القِدم، إلّا أنّ الإمبراطورية الروسية قد حظرت استخدام تلك اللغة، الأمر الذي أدّى إلى هيمنة اللغة الروسية على العديد من أجزاء البلاد، ممّا دفع الحكومة الأوكرانية إلى الإعلان عام ٢٠١٢ عن اعتماد بعض اللغات الأخرى كلغات رسمية إلى جانب الأوكرانية وأهمها اللغة الروسية.

"السبب الرئيس لكل هذه الحروب هو {فكرة الدولة} بحدّ ذاتها، فقد جاءت فكرة الحرب مع نشوء الدولة قبل خمسة آلاف عام، وحتّى الآن تعاني الشعوب من تهوّر الدول بكافّة مسمّياتها، فقد يحتوي التاريخ في طيّاته على غزوات في المجتمع الطّبيعي، لكنّها كانت غزوات للبحث عن لقمة العيش، وليس البحث عن الرفاهية والتعطّش للدماء مثل هذه الحروب".

أوكرانيا اقتصاديّاً

يصنف الناتج المحلي الإجمالي (تعادل القوة الشرائية) لأوكرانيا لعام ٢٠٠٧ وفقاً لوكالة الاستخبارات المركزية، في المرتبة ٢٩ في العالم ويقدر ٣٥٩,٩ مليار دولار أمريكي، فإجمالي الناتج المحلي للفرد في عام ٢٠٠٨ وفقا للوكالة كان ٧٨٠٠ $ (من حيث تعادل القوة الشرائية)، في المرتبة ٨٣ عالمياً.

إجمالي الناتج المحلي الاسمي (بالدولار الأمريكي محسوباً بسعر صرف السوق) ١٩٨ مليار دولار، في المرتبة ٤١ عالمياً.

تنتج أوكرانيا تقريباً جميع أنواع سيارات النقل والمركبات الفضائية. يتم تصدير طائرات أنتونوف وشاحنات كراز لكثير من البلدان. تسوَّق معظم الصادرات الأوكرانية إلى الاتحاد الأوروبي واتحاد الدول المستقلة. منذ الاستقلال تحافظ أوكرانيا على وكالة الفضاء الخاصة بها، وكالة الفضاء

الوطنية الأوكرانية. كما تشارك أوكرانيا بنشاط في استكشاف الفضاء والبعثات العلمية وبعثات الاستشعار عن بُعد بين عامي ١٩٩١ و٢٠٠٧، أطلقت أوكرانيا ستة أقمار صناعية و١٠١ مركبة إطلاق محلية الصنع، وتستمر في تصميم المركبات الفضائية. وهكذا حتى يومنا هذا، من المسلّم به أن أوكرانيا دولة رائدة في العالم في إنتاج الصواريخ والتكنولوجيا ذات الصلة.

معظم واردات البلاد من إمدادات الطاقة وخاصة النفط والغاز الطبيعي، وتعتمد إلى حد كبير على روسيا كمورد للطاقة. في حين أن ٢٥ في المئة من الغاز الطبيعي في أوكرانيا يأتي من مصادر داخلية، يأتي نحو ٣٥ في المئة من روسيا والباقي ٤٠ في المئة من آسيا الوسطى من خلال الطرق التي تسيطر عليها روسيا. وفي الوقت ذاته، يمر ٨٥ في المئة من الغاز الروسي إلى غرب أوروبا عبر أوكرانيا.

يصنف البنك الدولي أوكرانيا كدولة ذات دخل متوسط. تشمل القضايا الهامة البنية التحتية ونظام النقل المتخلف، والفساد والبيروقراطية. في عام ٢٠٠٧ سجلت سوق الأسهم الأوكرانية ثاني أعلى نمو في العالم من ١٣٠٪. ووفقاً لوكالة الاستخبارات المركزية، في عام ٢٠٠٦ بلغت القيمة السوقية لسوق الأوراق المالية الأوكرانية ١١١,٨ مليار $. تشمل القطاعات النامية من الاقتصاد الأوكراني سوق تقنية المعلومات والتي تفوقت على جميع دول وسط وشرق أوروبا في عام ٢٠٠٧، حيث نمت بنحو ٤٠ في المئة.

تحتل أوكرانيا المركز الثامن عالمياً من حيث عدد السياح، وفقاً لتصنيف المنظمة العالمية للسياحة. عجائب أوكرانيا السبعة هي المعالم التاريخية والثقافية السبعة في أوكرانيا، إذ يمكن لأوكرانيا تلبية الاحتياجات الغذائية لنحو ٦٠٠ مليون شخص.

كان الاقتصاد الأوكراني في المرتبة الثانية ضمن الاتحاد السوفيتي، لكونه عنصراً صناعياً وزراعياً هاماً في اقتصاد البلاد المخطط. مع انهيار النظام السوفيتي، انتقلت البلاد من الاقتصاد المخطط إلى اقتصاد السوق. كانت عملية الانتقال ثقيلة بالنسبة لغالبية السكان الذين سقطوا في براثن الفقر. انهار اقتصاد أوكرانيا بشدة في السنوات التالية لانهيار الاتحاد السوفيتي. وأصبحت الحياة اليومية للمواطن الأوكراني صراعاً للبقاء. نجح البعض في المناطق الريفية في التخفيف من وطء الأزمة من خلال زراعة الأغذية الخاصة بهم، والعمل في كثير من الأحيان في وظيفتين أو أكثر، كما نجم اقتصاد المقايضة لشراء الضروريات الأساسية.

في عام ١٩٩١، حررت الحكومة معظم الأسعار لمكافحة النقص الواسع في المنتجات، وكان ناجحاً في التغلب على المشكلة. وفي الوقت نفسه، واصلت الحكومة دعم الزراعة والصناعات المملوكة للدولة عن طريق الانبعاث النقدي غير المكشوف. دفعت السياسات النقدية في بداية التسعينيات التضخم إلى مستويات التضخم الجامح. في عام ١٩٩٣، حملت أوكرانيا الرقم القياسي العالمي للتضخم في السنة التقويمية. أكثر من عانى أولئك الذين يعيشون على دخل ثابت.

لم تستقر الأسعار إلا بعد طرح العملة الجديدة، هريفنيا، في عام ١٩٩٦. كما كانت البلاد بطيئة في تنفيذ الإصلاحات الهيكلية. بعد الاستقلال، شكلت الحكومة إطاراً قانونياً للخصخصة، ومع ذلك، ظهرت مقاومة واسعة النطاق للإصلاحات من داخل الحكومة ومن جزء كبير من السكان مما عرقل هذه الجهود. استثنيت أعداد كبيرة من الشركات المملوكة للدولة من عملية الخصخصة.

تعدّ أوكرانيا أكبر دولة ‹أوروبية›، وهي الأولى في أوروبا من حيث الاحتياطيات المؤكدة القابلة للاسترداد من خامات اليورانيوم، والمركز الثاني في أوروبا، والمركز العاشر في العالم من حيث

احتياطي خام التيتانيوم، والمركز الثاني في العالم من حيث الاحتياطيات المستكشفة من خامات المنغنيز (٢,٣ مليار طن ، أو ١٢٪ من احتياطيات العالم) ثاني أكبر احتياطي لخام الحديد في العالم (٣٠ مليار طن)، والمركز الثاني في أوروبا من حيث احتياطيات خام الزئبق، والمركز الثالث في أوروبا (المركز الثالث عشر في العالم) في احتياطي الغاز الصخري (٢٢ تريليون متر مكعب)، والمرتبة الرابعة في العالم من حيث القيمة الإجمالية للموارد الطبيعية، والمركز السابع عالميّاً في احتياطي الفحم (٣٣,٩ مليار طن)، تعدّ الأولى في أوروبا من حيث مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، وفي المركز الثالث في العالم من حيث مساحة التربة السوداء (٢٥٪ من حجم العالم)، والمركز الأوّل في العالم في صادرات عباد الشمس و زيت عباد الشمس، والمركز الثاني عالمياً في إنتاج الشعير، و المركز الرابع في صادرات الشعير، وهي ثالث أكبر منتج ورابع أكبر مصدر للذرة في العالم، وخامس منتج لجينة الچاودر (الكاشكابان) ورابع أكبر منتج للبطاطس في العالم، وهي في المركز الخامس عالمياً في إنتاج النحل (٧٥٠٠٠ طن)، والمركز التاسع في العالم بصادرات القمح، وإنتاج بيض الدجاج، وفي المركز السادس عشر في صادرات الجبن، وهي الأولى في أوروبا في إنتاج الأمونيا، ورابع أكبر نظام لأنابيب الغاز الطبيعي في العالم ١٤٢,٥ مليار متر مكعب من سعة إنتاج الغاز في الاتحاد الأوروبي، وثالث أكبر شركة في أوروبا والثامن في العالم من حيث القدرة المركبة لمحطات الطاقة النووية، وفي المركز الثالث في أوروبا، والمركز الثالث عشر في العالم من حيث طول شبكة السكك الحديدية (٢١,٧٠٠ كم)، والمركز الثالث في العالم (بعد الولايات المتحدة و فرنسا) في إنتاج أجهزة تحديد المواقع ومعدات تحديد المواقع، وثالث أكبر مصدر للحديد في العالم، ورابع أكبر مصدر للتوربينات لمحطات الطاقة النووية في العالم، ورابع أكبر مصنع لقاذفات الصواريخ في العالم، والمركز الرابع في العالم في صادرات الطين، والمركز الرابع في العالم في صادرات التيتانيوم،

"كانت اللغة الأوكرانية لغة المجتمع الريفيّ، وهذا المجتمع محافظٌ على لغته التي كانت بين مدٍ وجزر، فهذه اللغة التي تعود بجذورها إلى المجتمع الأصليّ، ووقعت الدولة الشيوعية في فخ التنميط، فكان بعض القادّة أمثال ستالين راديكاليين متعصّبين للشيوعية الديكتاتورية، قد حولوا الشيوعية إلى قومية، والمشكلة كانت في تنفيذ المادّية كواجب مقدس، فأجبر ستالين الشعب على تحويل المجتمع من الإقطاعية إلى الرأسمالية بالقوة."

والمركز الثامن في العالم في صادرات الخامات والمركزات، والمركز التاسع في العالم في صادرات منتجات الصناعات الدفاعية، وعاشر أكبر منتج للصلب في العالم (٣٢,٤ مليون طن)

كان التصنيع عبئاً ثقيلاً على الفلاحين الأوكران، الذين كانوا يشكلون العمود الفقري من تعداد سكان الأمة الأوكرانية، تلبية لحاجة الدولة في زيادة الإمدادات الغذائية وتمويل التصنيع. وضع ستالين برنامج التجميع الزراعي حيث جمعت الدولة أراضي وحيوانات الفلاحين في مزارع جماعية، وفرضت سياساتها عن طريق القوات النظامية والشرطة السرية. الذين قاوموا واعتقلوا ورحّلوا قسراً وفرضت حصص الإنتاج المتزايد على الفلاحين. كان لسياسة التجميع آثار كارثية على الإنتاج الزراعي، حيث لم يسمح للعاملين في المزارع الجماعية بالحصول على أي حبوب حتى يتم تحصيل الحصص التي كانت مستحيلة البلوغ، وحلت المجاعة في الاتحاد السوفيتي على نطاق واسع.

فبين ١٩٣٢-١٩٣٣، مات الملايين جوعاً في مجاعة صنعها الإنسان تعرف باسم هولودومور. ينقسم الباحثون في تسمية هذه المجاعة بالإبادة الجماعية، لكن البرلمان الأوكراني، وأكثر من اثني عشر بلدا آخر يسمونها بذلك.

لم نفهم كيف شجّع ستالين الصناعة وقضى على الزراعة في أوكرانيا وكازاخستان، وكأنّه يريد أن يجعل البلاد رأسماليّة ليقضي على الملكيّة والإقطاعيّة. فقد حصدت المجاعة ما يصل إلى ١٠ ملايين أوكراني حيث صودر مخزون الفلاحين من الغذاء قسراً من قبل الحكومة السوفيتية من خلال NKVD (سلف كي جي بي) والشرطة السرية. كان ستالين يريد القضاء على الثقافة الفلاحيّة، وذلك ليقضي على فكرة التملّك، فالفلّاح لا يستطيع التخلّي عن أرضه وملكه، فكانت سياسته الغريبة في القضاء على فكرة الملكيّة من خلال العنف الثوريّ الديكتاتوريّ، فلم يأخذ ستالين المجاعة على أنها كارثة إنسانية، وإنما كحالة من حالات الصراع الطبقي، فاستخدم التجويع كأداة لإجبار الفلاحين إلى المزارع الجماعية، حيث تنتفي الملكيّة.

واستطاع ستالين القضاء على الكتاب الأوكرانيين، والفنانين، والمفكّرين، فتخلّص الحزب الشيوعي الأوكراني من نزعته الوطنية.

أوكرانيا عسكريّاً

وقعت الدولة الأوكرانيّة في فخ السلام العالمي، فسلّمت كلّ أسلحتها النووية إلى روسيا لتفكيكها ١٩٩٦، بعد أن كانت ثالث أكبر ترسانة أسلحة نووية في العالم، صارت لا تمتلك سلاحاً نووياً واحداً، وقلّصت الأسلحة التقليدية، وكانت قوّتها العسكريّة ٧٨٠,٠٠٠ عسكريّ، فخفّضت قوات جيشها إلى ٣٠٠,٠٠٠ عسكريّ، مع ذلك يمثل الجيش الأوكراني ثاني أكبر قوة عسكرية في أوروبا، بعد روسيا.

ففي أعقاب انهيار حكومة يانوكوفيتش، وما نتج عنه من ثورة ٢٠١٤ الأوكرانية في فبراير شباط عام ٢٠١٤، بدأت أزمة الانفصال في شبه جزيرة القرم الأوكرانية. بدأت تحمل علامات، الجنود الروس المسلحة التي انتقلت إلى شبه جزيرة القرم في ٢٨ شباط عام ٢٠١٤.

في ١ مارس عام ٢٠١٤، طلبَ الرئيس الأوكراني فيكتور يانوكوفيتش والنظام المنفيين أن روسيا استخدام القوات العسكرية «لإقامة شرعية والسلام والقانون والاستقرار والدفاع عن شعب أوكرانيا «. وفي نفس اليوم، طلب بوتين وحصل على إذن من البرلمان الروسي لنشر القوات الروسية في أوكرانيا وسيطرت على شبه جزيرة القرم في اليوم التالي. بالإضافة إلى ذلك، كان ينظر حلف شمال الأطلسي من قبل معظم الروس كما التعدي على حدود روسيا. هذا وزنه بشكل كبير على قرار موسكو على اتخاذ تدابير لتأمين منفذ لها على البحر الأسود في شبه جزيرة القرم.

في يوم ٦ مارس عام ٢٠١٤، صوّت برلمان القرم على «الدخول في الاتحاد الروسي مع حقوق موضوعة للاتحاد الروسي» والذي عقد في وقت لاحق استفتاء يسأل أهل هذه المناطق ما إذا كانوا يريدون الانضمام لروسيا كموضوع الفيدرالية، أو إذا أرادوا أن يعيد العمل بدستور القرم عام ١٩٩٢، والوضع في شبه جزيرة القرم باعتبارها جزءاً من أوكرانيا. على الرغم من أنه مرت بأغلبية ساحقة، لم تتم مراقبة التصويت من قبل أطراف خارجية ولم يتم الطعن في النتائج دوليّاً.

أعلن الاستقلال رسمياً باسم جمهورية القرم وطلبت أن يتم قبولها بوصفها من مكونات الاتحاد الروسي. وفي ١٨ مارس ٢٠١٤، وقعت روسيا والقرم معاهدة انضمام جمهورية القرم وسيفاستوبول في الاتحاد الروسي، على الرغم من أنه صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة لصالح بيان غير ملزم يعارض الضم الروسي لشبه الجزيرة.

وفي الوقت نفسه، بدأت الاضطرابات في المناطق الشرقية والجنوبية من أوكرانيا في العديد من المدن في دونيتسك وغانسك، وانتشر مسلحون معلنين أنفسهم بأنهم ميليشيا محلية، فضبطت المباني الحكومية ومراكز الشرطة والشرطة الخاصة في عدة مدن من المناطق.

بدأت محادثات في جنيف بين الاتحاد الأوروبي وروسيا وأوكرانيا والولايات المتحدة الأمريكية أسفرت عن بيان الدبلوماسية المشتركة، ويشار إلى أن ميثاق جنيف ٢٠١٤ الذي طالب الطرفين وجميع الميليشيات غير القانونية إلقاء السلاح وإخلاء المباني الحكومية المضبوطة، وكذلك إنشاء الحوار السياسي الذي يمكن أن يؤدي إلى مزيد من الحكم الذاتي لمناطق أوكرانيا. عندما أصبح واضحاً أن بوروشينكو قد فاز في الانتخابات الرئاسية، في ذلك المساء ٢٥ مايو ٢٠١٤، أعلن بوروشنكو «سيكون لي أول زيارة رئاسية لدونباس»، حيث أعلن المتمردون الموالون لروسيا استقلال الجمهوريات الانفصالية دونيتسك الشعبية الجمهورية وجمهورية لوغانسك الشعبية، وسيطرت على جزء كبير من المنطقة. تعهد بوروشنكو أيضاً بمواصلة العمليات العسكرية من جانب القوات الحكومية الأوكرانية لإنهاء التمرد المسلح الذي تدّعي «عملية مكافحة الإرهاب لا يمكن ولا ينبغي أن تستمر شهرين أو ثلاثة أشهر، ويجب أن تستمر ساعات «.

ردّت روسيا بالقول إنها لا تحتاج إلى وسيط في علاقاتها الثنائية مع أوكرانيا. كما وعدت بوروشنكو بمتابعة عودة شبه جزيرة القرم الأوكرانية لسيادة الرئيس المنتخب.

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ورثت أوكرانيا قوة قوامها ٧٨٠,٠٠٠ عسكري على أراضيها، مزودة بثالث أكبر ترسانة أسلحة نووية في العالم.

في أيار / مايو ١٩٩٢، وقعت أوكرانيا على معاهدة تخفيض الأسلحة الاستراتيجية (ستارت) والتي وافقت فيها البلاد على التخلي عن جميع الأسلحة النووية لصالح روسيا لتفكيكها، والانضمام إلى معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية كدولة غير حائزة على الأسلحة النووية. وصدّقت أوكرانيا على المعاهدة في عام ١٩٩٤، وبحلول عام ١٩٩٦ أصبح البلد خالياً من الأسلحة النووية. وقبل الحرب الروسيّة على أوكرانيا مثّل الجيش الأوكراني ثاني أكبر قوة عسكرية في أوروبا، بعد روسيا.

أخذت أوكرانيا خطوات متسقة لتقليص الأسلحة التقليدية. وقعت على معاهدة القوات المسلحة التقليدية في أوروبا، والتي دعت إلى التخفيض من أعداد الدبابات والمدفعية والعربات المدرعة (تم تخفيض قوات الجيش إلى ٣٠٠,٠٠٠). وحوّلت البلاد القوة العسكرية القائمة على التجنيد إلى قوة مختصة تطوعية ما بعد عام ٢٠١١، وتلعب أوكرانيا دوراً متنامياً في عمليات حفظ السلام، أعلنت أوكرانيا نفسها دولة محايدة.

تشارك وحدات عسكرية من دول أخرى القوات الأوكرانية في مناورات عسكرية متعددة الجنسيات في أوكرانيا بشكل منتظم، بما في ذلك القوات العسكرية الأمريكية. بعد الاستقلال. امتلكت البلاد شراكة عسكرية محدودة مع روسيا، وغيرها من بلدان رابطة الدول المستقلة وشراكة مع حلف شمال الأطلسي منذ عام ١٩٩٤.

في بداية القرن الحالي، مالت الحكومة إلى منظمة حلف شمال الأطلسي، وإلى تعميق التعاون مع قوات التحالف والتي حدّدتها خطة العمل بين حلف الناتو وأوكرانيا الموقعة عام ٢٠٠٢. كما تم الاتفاق في وقت لاحق على إجراء استفتاء وطني في مرحلة لاحقة حول الانضمام إلى حلف شمال الأطلسي. اعتبر الرئيس السابق فيكتور يانكوفيتش مستوى التعاون الحالي بين أوكرانيا وحلف شمال الأطلسي كافياً، حيث أن يانوكوفيتش ضد انضمام أوكرانيا إلى الحلف.

”كان التصنيع عبئاً ثقيلاً على الفلاحين الأوكران، الذين كانوا يشكلون العمود الفقري من تعداد سكان الأمة الأوكرانية، تلبية لحاجة الدولة في زيادة الإمدادات الغذائية وتمويل التصنيع، وضع ستالين برنامج التجميع الزراعي حيث جمعت الدولة أراضي وحيوانات الفلاحين في مزارع جماعية، وفرضت سياساتها عن طريق القوات النظامية والشرطة السرية. الذين قاوموا اعتقلوا ورحلوا قسرا وفرضت حصص الإنتاج المتزايد على الفلاحين.“

أعلنت منظمة حلف شمال الأطلسي في قمة بوخارست ٢٠٠٨ أنّ أوكرانيا ستصبح عضواً في منظمة حلف شمال الأطلسي متى تريد ومتى تتوافق مع معايير الانضمام.

الحرب الروسيّة على أوكرانيا

لم يمضِ على استقلال أوكرانيا ثلاثون عاماً، وكانت تحت الوصاية الأجنبية على مدّة ستة قرون متواصلة، ولم يتعلّم هذا الرئيس الجديد فنّ المساومة، وهو غرّ أمام هؤلاء العمالقة الروس والأميركيين والبريطانيين الألمان، هو والطاقم الرئاسي، وخاصّة تركيز الدولة الأوكرانيّة على إحياء الدولة القوميّة التي استرجعت أيّام الظلم الروسيّ ما قبل البلاشفة وبعدهم.

هي عادة الدول القوميّة في إزكاء روح العداء، وهذا العداء لم يخدم الشعبين الروسيّ والأوكرانيّ، بالطبع لا يختلف الأمر في روسيا، فقد اعتبر الروسُ الأوكرانَ قوميّةً متدنيّةً، بالإضافة إلى الدينين المتصارعين (الكاثوليكي والأرزوسكسي) في أوكرانيا.

إنّ الدولة الأوكرانيّة فيها موزاييك لا يختلف عن الموزاييك الشرقي، وهذا ما لا يحبّه الغرب بعد أن خطّت هذه الحدود الأوروبيّة بالدماء، وفرضت الدولة القوميّة عليها، وكأنّ على أوكرانيا أن تدفع دماء أخرى لتُقبل في الاتّحاد الأوروبيّ.

هي عادة الاتّحاد الأوروبيّ في إضعاف الدول كما فعلت في يوغسلافيا، حتّى قسّمتها إلى دول صغيرة ضعيفة جدّاً، وقبلت بشراكة بكرواتيا وأيضاً جورجيا ومولدوفا وسلوفينيا وأوكرانيا وجورجيا وأرمينيا أذربيجان، ولم تقبل حتّى الآن بالجبل الأسود والبوسنة والهرسك وكوسوفو وصربيا ومقدونيا بالإضافة إلى تعليق طلب ألبانيا وأيسلندا وتركيا....

كلّ الحروب الأميركيّة في هذا القرن، إمّا تطول وتفشل وتصعب السيطرة عليها كما في العراق وأفغانستان وسوريا، أو يؤول الأمر بالانسحاب، ويبقى الشعب أمام هذا التهوّر الغربيّ.

لقد مهّد الرئيس الأمريكي جو بايدن لحرب روسيا على أوكرانيا وروّج لها قبل أسابيع من بدء الحرب في شباط ٢٠٢٢، واستنفرت السياسة الخارجيّة والإعلام الأميركي من أجل هذه الحرب، وكأنّها لا تصدّق متى تقام هذه الحرب؟ على العكس من الهجوم المفاجئ للجيش التركي لشمال شرق سوريا، عندما كانت قوّات سوريا الديمقراطيّة تتفق مع القوّات الأميركيّة وهي توقع معاهدة مراقبة الحدود ما بين الجيش التركي والجيش الأميركي وقوات سوريا الديمقراطيّة، وهنا يكمن مبدأ اللا مبدأ في التحالفات الجديدة، فلا مبادئ للدول، ولا عقود، فظلّت أوكرانيا تعطي فروض الطاعة لأوروبا وأميركا، وظلّت تحاول الدخول في نظام العالم الأوّل والخروج من العالم الثالث حسب تصوّر الأوكرانيين لكنّ هذا الخنوع لهذا النظام لم ينفع، فلهذا النظام حساباته الخاصّة.

هذه اللعبة التي لعبها الغرب في أوكرانيا في

جرّها إلى الحرب. والتصريحات الغربيّة التي تظهر أنّ هذه الدول ستكون مساندة لأوكرانيا. والرئيس الأوكرانيّ الذي لا يمتلك تلك الخدع السياسيّة وقع في الفخّ العالميّ. فالغرب يتمنّى أن تطول هذه الحرب لتُستنفد القوّتان. فروسيا تقوى يوماً بعد يوم. وهي حليف للصين. وأوكرانيا إذا دخلت الاتّحاد الأوروبي ستصبح أقوى دولة من حيث القوّة العسكريّة. وهذا ما لا ترضاه ألمانيا وفرنسا.

عندما دخل هتلر أوكرانيا اصطفّ الكثير من الأوكرانيين مع الجيش الألمانيّ ضدّ ستالين مُدمِّر أوكرانيا. ومُدمِّر الاتّحاد السوفيتي اقتصادياً. ومدمّر الاشتراكيّة. وهو تكرار للتاريخ. فأوكرانيا لا تتحالف مع جارتها التاريخيّة وترضى بالغرب الغريب. وذلك ليس عبثاً. فنظام القيصر الروسي قد حارب الشعب الأوكراني واعتبره طبقة متدنيّة من المجتمع. وتابعاً له. وأتمّ نظام الاتّحاد السوفيتي أيضاً هذه السياسة وزاد عليها سياسة المجاعة.

الروسي يعتبر الأوكراني طبقة ثانية. وبعد هذا الانفتاح الاقتصادي صار دخل الفرد الأوكراني أفضل بكثير من دخل الفرد الروسي. وما زال شبح النظام الشيوعي ماثلاً حتّى الآن في ذهنيّة الأوكرانيّ. فبعد هذه النقلة النوعية من النظام السابق والنظام الغربيّ الحالي يحدث بلبلة في ذهنية الأوكرانيّ الخائف من عودة التقشّف.

لقد تغيّر القادة السياسيّون. فمعظم القادة ضعفاء لا يمتلكون الخبرة. فمنذ وصول جورج بوش الابن إلى الحكم الذي كان يقوده نائبه ديك تشيني الدموي. تغيّرت هذه المعادلات. فترى شاباً شاذاً وصل الحكم. ومجنوناً متهوّراً. وشاباً لا يمتلك الخبرة. ورجل عصابات. ومتعصّب. ويميني متطرّف. وامرأة بذهنيّة الرجال. ومتخلّف وأمّي وقادة يكذبون دون أي حياء وقادة أغرار أخلاقيين لكنّهم غير خبراء. لقد بات العالم على حافة الجنون لوصول هذه الحداثة الرأسماليّة إلى أقصى درجات التدنّي الأخلاقي. وأقصى درجات الاستهتار والتفكّك.

لا جوهر في الحكم. ولا حكمة. سباب على الهواء وعلى النت. تصريحات لا معنى لها. تلفيقات... فإذا كان القادة هكذا فكيف ستكون مؤسّسات هذا النظام الرأسمالي. فلماذا لا تكذب وسائل الإعلام؟ ولماذا لا يكذب المفكّرون الجدد في عالم الكذب والتلفيق وتزيف الحقيقة. ولماذا لا يختلقون النظريّات التي ستدمّر هذا الكون؟

تبدأ الشعوب المتحرّرة من نير الإمبراطوريات من الخوف على مصيرها. إثر تجدّد مفاهيم الحروب الإمبراطوريّة والحربين العالميتين الأولى والثانيّة. في هذه الحرب الروسيّة على أوكرانيا. فهذا القانون الدولي الذي يعتمد على ازدواجيّة المعايير بات وبالاً على الشعوب. والأمم المتّحدة التي تحكمها خمسة دول متناقضة في العالم. فعلى سبيل المثال كيف سيتبنّى مجلس الأمن قراراً ضدّ روسيا وروسيا تمتلك حقّ الفيتو؟

هل سيثبت التاريخ أنّ الرئيس الأفغاني كان أكثر حكمة من هذا الرئيس الأوكرانيّ زيلينسكي؟ فقد قبِل الرئيس الأفغاني أشرف غني المنفى. وفضّله على أن يعرّض شعبه لخطر حربٍ لا معنى لها. مع أنّه لم يكن له دور في هذا الخداع الأمريكي.

هل تدفع المقاومة الأوكرانيّة ثمن تهوّر قائد لا يمتلك الحكمة. أو الخطأ في تحليل النظام العالمي المهيمن الذي بات غدّاراً مكّاراً بكلّ صراحة ودون مواراة. أو أنّ الغرب جرّ الشعب إلى هذه الحرب لغايات لديها؟ هل إذا كان زمام الأمور بيد الأوكرانيين لقبلوا شروط بوتين شريطة أن يؤول الحكم إلى الأوكرانيين. هل سيقول الشعب: - لا فرق بين الحكم الأوكراني التابع للروس وبين الحكم الأوكرانيّ التابع للغرب؟ فكلا الحُكمين تابعان للآخر. ولا رأي للشعب في هذا الحكم. وما الفرق بين الاستبداد الروسي وبين الجنون الغربيّ؟ لكنّ الشعب مؤدلج عبر الكراهيّة التي زرعتها الأيديولوجيّة القوميّة. وهذا ما لمسناه في تفريق الجيش بين طوابير الأوكرانيين والمهاجرين.

أم على الشعوب أن تقاوم. لكن مع وضع خطّة مستقبليّة للسياسة والحكم والإدارة.

وهذا ما يجب أن يحصل عند أيّ شعب في العالم، وعندما تنتصر الشعوب يحضّر المتسلّقون أنفسهم لقيادة هذه الشعوب. بالطبع هذا الأمر لا ينطبق على الاحتلال التركي لشمال وشرق سوريا، فالعدوّ التركيّ يريد القضاء على الشعوب الأصيلة في ميزوبوتاميا، كما قضى على الأرمن والسريان وشتّت الكرد وما زال يحاربهم، ويعتبر الكرد العدو الرئيس منذ وصول كمال أتاتورك إلى الحكم وحتّى الآن. لقد دافعت هذه الشعوب الأصليّة في ميزوبوتاميا عن مناطقها، واستمدّت شرعيّتها من العالم بأسره، وحاربت ضدّ أعتى تنظيم في التاريخ؛ وهو داعش، وكان الاحتلال التركي يعتمد على المرتزقة في حربها غير الشرعيّة.

وبالمقابل لا يوجد أمان لهذا النظام العالمي المهيمن، فهو يريد أن يقضي على الشعوب الأصليّة، فهذا النظام قضى على كلّ ما هو أصيل، من الهنود الحمر في القارة الأمريكيّة، وصولاً إلى المحاولات الجاهدة لإبادة الشعب الكرديّ وصهره عبر الوسيط التركيّ.

يعلم الاتّحاد الأوروبي أنّ الهجوم الروسيّ على أوكرانيا هو حرب على هذا الاتّحاد الأوروبيّ الذي يعتمد على الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وبات الناتو أيضاً أسير الولايات المتّحدة، أيّ أنّ النظام العالميّ المهيمن هو أسير المزاجيّة الأميركيّة التابعة للرئيس الأمريكي الذي يمتلك كلّ صلاحيات الحرب والسلم، وهذا الرئيس أسير حملته الانتخابيّة، وأسير الحزب التابع له.

لا معنى لكلّ هذه التسميات: (الحرب العالميّة الأولى) (الحرب العالميّة الثانية) (الحرب الباردة) (الحرب السيبرانية)... فلم تتوقف الدول عن الحرب أبداً، وقد ظلّت تقتات على الحروب، وظلّت هذه الحروب منذ نشوء الدولة، والباحث عن السلم في هذه الفوضى هو الباحث عن الاستسلام فحسب، فعلى الشخص أن يكون بيته متنقّلاً ليهرب إلى المكان الذي ليس فيه حرب، ولا أمان في هذه الدول المتوحّشة، فكلّ الأمكنة مؤقتة، فحتّى أميركا خلقت حرباً في أكثر الأماكن أمناً في العالم.

لا تحبّ الشعوبُ الحربَ، لكنّ الدول تعيش على الحرب، وعندما تروّج الدول التي تمتلك ترسانات السلاح لفكرة نزع السلاح، فهي تغري الدول القريبة من الديمقراطيّة لنزع السلاح، ليسهُل القضاء عليها في النهاية، وعندما تختلق حرباً ما فهي تجبر الدولة المحاربة على بيعها الأسلحة، وبالتالي تبدأ صفقات الأسلحة.

انعكاس هذه الحرب على الشرق

ظلّ الاتّحاد الأوروبي يتعامل مع الأقلّيات المناهضة للإمبراطوريات كالأرمن والأوكران والكرد وغيرهم بطرق إقصائيّة وبمماطلات، وآخرها الوعود الخادعة لأوكرانيا.

يبدو أنّ الولايات المتّحدة بحاجة دائمة إلى دوام الصراعات في الشرق الأوسط وفي روسيا والدول المجاورة، والشرق الأقصى، حيث الصين والدول المجاورة، فعندما تزداد التوترات والحروب تبقى تلك الدول ضعيفة ومنشغلة بصراعاتها اللا نهائيّة.

لا شكّ أنّ هذه الحرب الروسيّة على أوكرانيّة قد وضعت تركيا في خانة صعبة، وهذه الازدواجيّة في الانحياز للناتو حيناً، ولروسيا تارّة هو ما أثّر على الحلّ في سوريا، ودفع الشعب السوريّ ثمناً لهذه الازدواجيّة، فكيف ستتخلّى تركيا عن البحر الأسود؟ وستصبح روسيا على حدودها إن ربحت الحرب، وكيف ستتحكّم تركيا بالمضائق البحريّة؟ وهي رئة الاتّحاد الروسيّ، بل كيف ستقبل روسيا بهذه الدولة التي تقف عائقاً أمام طموح الروس في السيطرة على الممرّ بين الشرق والغرب؟ وهل تستطيع تركيا أن تواجه كلّ هذا الغرب؟ فقد وحّدت هذه الحرب ما بين أوروبا وأميركا وكندا واليابان، فلا بدّ أن تنحاز للناتو، فلا مجال لإمساك العصا من المنتصف، فخاصّة أن اقتصادها منهار، وقائدها أردوغان أيضاً على شفير الهاوية، فعام ٢٠٢٢ و٢٠٢٣ هو عام تجديد الخرائط، وتجديد المعاهدات والاتفاقيّات.

لم يستطيع أردوغان أن يصل إلى صورة البطل المشابه لكمال أتاتورك الذي وحّد الأمّة التركيّة، وانتصر في معارك عدّة، وكان له شعبيّة كبيرة بين المجتمع حينها، فلم يتخلَّ عن مبادئه وإن كانت معادية للشعوب غير التركيّة، بالمقابل لم يكن أردوغان على مبدأ واحد، فهو قوميّ عنصريّ أتاتوركيّ تارة، وتارة عثمانيّ من اليهود الدونما، وتارة أصوليّ إسلاميّ داعشيّ، وتارة مع الكرد، وتارة ضدّ الكرد، وقد نجح بفضل الإسلاميين، لكنّه خانهم، إنّه لا يمتلك مبدأ واحداً، وخاصّة في تعامله مع الولايات المتّحدة وروسيا، لكنّه الآن لا خيار له، بعد أن صرّحت الخارجيّة الأميركيّة لا يجب أن يكون هناك حياد في العالم في الحرب الروسيّة على أوكرانيا، فلا مجال إلّا أن ينحاز للناتو، طيّعاً، ذليلاً، خائباً، وهذا الانحياز سيُطيل من عمره قليلاً.

إنّ تطبيق تركيا لاتفاقية مونترو بإغلاق معبري البوسفور والدردنيل أمام السفن الحربيّة الروسيّة إعلان بفكّ شهر العسل ما بين روسيا وتركيا، روسيا التي أهدت تركيا عفرينَ، والآن تدفع روسيا الثمن، وسيدفع أردوغان الثمن أيضاً، بعد انتهاء الحرب الأوكرانيّة.

قد تكون أوكرانيا هدية أمريكيّة لروسيا شريطة أن تتخلّى عن الصين، وتركيا كبيرة على الأتراك كما قالها الغرب سابقاً، وكل الدول الغربيّة تعيد أمجادها، فها هي ألمانيا تتحدّث بقوّة، وتزوّد أوكرانيا بالسلاح، وكذلك اليابان، وهما الدولتان اللتان خسرتا الحرب العالميّة الثانيّة، فألمانيا لا تنسى التاريخ، فعندما عبر هتلر أوكرانيا انضمّ معظم الأوكران للجيش النازي، وتركيا التي خسرت الحرب حينها لن تقف على الحياد هكذا دائماً، فإمّا أن تنضمّ للناتو الذي يقوى إعلاميّاً ويفرض العقوبات على روسيا ويعزلها دوليّاً، وسيعزل تركيا أيضاً إن وقفت مع روسيا وهذا مستعبد حالياً، كون أردوغان بات على شفير الهاوية، وكيف سينضمّ للناتو الذي يدعم قوّات سوريا الديمقراطيّة؟ وكيف سيتنصل من وعوده للائتلاف ومرتزقته من فلول الجيش الحر وجبهة النصرة.

> **مهّد الرئيس الأمريكي جو بايدن لحرب روسيا على أوكرانيا وروّج لها قبل أسابيع من بدء الحرب في شباط ٢٠٢٢، واستنفرت السياسة الخارجيّة والإعلام الأميركي من أجل هذه الحرب، وكأنها لا تصدق متى تقام هذه الحرب؟ على العكس من الهجوم المفاجئ للجيش التركي لشمال شرق سوريا، عندما كانت قوات سوريا الديمقراطيّة تتفق مع القوات الأميركيّة وهي توقع معاهدة مراقبة الحدود.**

في هذه الحرب الروسيّة على أوكرانيا، نستذكر الحرب التركيّة على الشمال السوريّ، مع اختلاف كبير، لكنّ هذه الحرب لا مبرّر لها سوى النفوذ، والعالم كلّه يتفرّج، فإذا كان رأس هرم النظام العالمي أميركا صامتاً لا يتحرّك، فإنّ العالم كلّه سيصمت، مع أنّ أميركا قد حفرت حفرة هذه الحرب الروسية على تركيا، والاستخبارات البريطانيّة تعمل على إشعال الحرب وعدم إطفائها، من خلال التمهيد والتصفيق لها منذ زمن، والوقوع أمام أي مفاوضات روسيّة أوكرانيّة.

وجه الاختلاف الكبير بين الحرب التركيّة على عفرين على وجه الخصوص وهذه الحرب الروسيّة على أوكرانيا، هو أنّ أوكرانيا دولة لها اعتراف دوليّ، ولها جيش وأسلحة تدمير ومصفّحات ودبّابات وطائرات... فهي الدولة الأولى عسكريّاً في أوروبا، أي أقوى من بريطانيا وفرنسا وغيرها، أمّا المجتمع المقاوم في عفرين وتل أبيض وسرى

كانييه لا يمتلك شيئاً سوى الإرادة والتكاتف المجتمعيّ.

ولا تقارن عفرين على سبيل المثال بدولة كبيرة مثل أوكرانيا، لكنّ المقاومة العفرينيّة أثبتت للعالم أنّ الإرادة هي أعظم أدوات المقاومة، والإيمان بالإرادة هو أعظم سلاح يريد أن يحطّمه العدوّ في المجتمعات.

علينا أن نستنبط الدروس من هذه الحرب، فلا نضع بيضنا كلّه في سلّة واحدة مثلما فعل الرئيس الأوكرانيّ الذي اعتمد على حلف الناتو الذي تخلّى عنه دون خجل.

كلمة ختاميّة

كلّ هذا التهريج الإعلاميّ هو تمييع للثورات، كما ميّع الإعلام ثورةَ الربيع العربي، أو ثورةَ ربيع الشعوب، فترى على الإعلام المنتخبَ الأوكرانيَّ وهو في أبهى حلّته مرتديّاً الزيّ العسكريّ، وترى فتاة بيدها كلبٌ وهي تجتاز الحدود مبتسمة، وترى ممثّلةً فاتنةً مرتديةً اللباسَ العسكريّ كأنّها في نزهة، وترى الكلّ يضع بروفايلاً لملكة جمال أوكرانية وهي مرتدية الزي العسكريّ، في دعاية للحرب، بينما يخجل معظمنا من وضع صورة شهدائه على بروفايلاته، إنّه الاغتراب الشرقيّ تجاه الحضارة الغربيّة، فالشرقي الضعيف يرى أنّه لا يمتلك مشرّفاً، ويريد أن ينسلخ عن هذه الحضارة الديمقراطيّة التاريخيّة في المجتمع الزراعيّ الشرقيّ، ليلبس لبوس الغرب الرأسماليّ العيد عن الحضارة.

باتت هذه القنوات الإعلاميّة تعزف سيمفونيّة متجانسة، ومكرّرة، منذ اندلاع الثورات في الشرق عبر بوّابة تونس، وتشجع على المقاومة حتّى تفنى الدولة عن بكرة أبيها دون أن تضع حلولاً نهائيّة، فعلى سبيل المثال الحلّ موجود عند الولايات المتّحدة، فرئيسها قادر على إنهاء هذه الحرب بجملة واحدة وهي (لن نقبل أوكرانيا في حلف الناتو) لكنّه لا ينهي هذه الحرب، وبالمقابل لا يقبل أوكرانيا في حلف الناتو.

ينسى الناس تاريخ الحروب في استقرار بسيط، وكأنّ التّاريخ كلّه سلام، لكنّ عندما تقلّب صفحات أيّة بقعة في هذا الكون ترى الويلات، والدماء، وحدوداً صنعت بالدماء، وإمبراطوريّات شيدت بالجماجم، ومدناً شيدت بالعبيد.

هو التاريخ الذي يكرّر نفسه دائماً، لكنّ التطوّر العلمي والتكنولوجيا والاتصالات والقنبلة الذريّة وتدمير البيئة هي عوامل أفول هذه الشعوب، والدول.

لقد قاوم الشعب الكرديّ في عفرين ستين يوماً، ولا تعادل مساحة عفرين مساحة ٠,٠١٪ من مساحة أوكرانيّة، بين احتلّت روسيا مساحات تقدّر بمساحة سوريا في ثلاثة أيّام فحسب، ليس هذا الكلام انتقاصاً من قدر الشعب الأوكرانيّ، لكنّه انتقاص من هذه الليبرالية التي تضعف الشعوب والمجتمعات وتصبح لقمة سائغة للدول الناهبة.

أهناك فرق إن ربحت أوكرانيا هذه الحرب أو خسرتها؟ بالطبع هي صراعات دولتية، يدفع الشعب ثمناً لها، فإن كانت هناك حروب فهناك دماء الأبرياء تُسال، وإن كان هناك سلام فهناك تسارع فظيع في تضخّم عمالقة المال، ومجاعات في أطراف أخرى في العالم، ووفيّات نتائج تدمير البيئة، واحتكار كلّ شيء من قبل هذا النظام العالميّ المهيمن الذي قاطع الأخلاق مقاطعة نهائيّة.

إذا لم تستطع المجتمعات أن تقي نفسها من هذه الحروب الشعواء من قبل الدول على المجتمعات بكلّ أنواعها؛ الفكريّة والأيديولوجيّة والاقتصاديّة والعسكريّة فستظلّ سلسلة هذه الحروب مستمرة، وتبقى الشعوب أسرى أهواء الدول المتهوّرة

الشرق الأوسط الديمقراطي

رافقت الثورةُ الصناعيةُ حملةُ التمدنِ الممهورة بالرأسمال المالي الذي بَسَطَ الهيمنةِ على شرائحِ الحِرَفِيّين في المناطقِ الريفيةِ. فالصناعويةُ والبيروقراطيةُ قد ضَخَّمَتا المدنَ كالتيهورِ تزامناً مع القرنِ التاسعِ عشر. وهذا التضخمُ من النوعِ السرطانيّ، الذي انتهى بالبيئةِ إلى كارثةٍ حقيقية. أي أنَّ المدينةَ لا تَقتلُ نفسَها فحسب، بل وتَقتلُ معها البيئة، وبالتالي تَستَهلِكُ وتقتل أيضاً المجتمعَ الريفيّ، أي حقيقةَ التاريخِ المُعَمِّرةَ 000,15 سنة، وقوتَه المنتجة، ومنبعَ الثقافةِ المادية والمعنوية. والنتيجةُ هي تَخَبُّطُ المجتمعِ ضمن قضايا عملاقة، وتَحَوُّلُه إلى مركزٍ عامٍّ لإنتاجِ البطالةِ والحرمان. أي أنَّ مدينةَ الشرقِ الأوسطِ التي خَسِرَت هيمنتَها، قد صارت مركزَ اللامدينة، ومركزَ مَوتٍ وإماتةِ إحدى أهمِّ وسائلِ المدينةِ وبالتالي المجتمعيةِ بشكلٍ مستمر.

تاريخُ المدنيةِ الشرقِ أوسطيةِ هو تاريخُ دمارٍ وإنكارِ البيئةِ والمحيط. حيث يتحول ذلك إلى عادةٍ متأصلةٍ في التاريخِ بحُكمِ تَشَكُّلِ قِيَمِ المدنيةِ كثقافةٍ ماديةٍ ومعنويةٍ بالتأسيسِ على إنكارِ قِيَمِ المجتمعِ النيوليتيّ (تَفنيدُها دياليكتيكياً)، رغمَ أنَّ المجتمعَ النيوليتيَّ أيكولوجيٌّ على صعيدِ قِيَمِ كِلتا الثقافتَين. فالبيئةُ في عالَمِه المعنويّ وفي دينِه حيويةٌ وتُقَدَّسُ كأسمى قيمة. كما أنَّ تنامي إمكانياتِ التغذيةِ بالالتفافِ حول المرأةِ هو بمثابة بداية الاقتصاد. أي أنَّ الطبيعةَ والمرأةَ ضمن اتحادٍ متناغم. كما يُرمَزُ بالإلهةِ الأُمِّ إلى مفهومِ الدينِ الطبيعيّ الحيويّ. فالقِسمُ الأكبرُ من وسائلِ الإنتاجِ الماديّ هو من اختراعِ المرأة، وثقافةُ المأكلِ والمَلبَسِ أيضاً تَحمِلُ طابعَها. كلُّ هذه القِيَمِ تتعرضُ مع المدنيةِ إلى الإنكار، وستُصَيَّرُ وسائلَ ربحٍ وقمعٍ تحت ظلِّ هيمنةِ الرجل. كما وتُستَحقَرُ الأرضُ الأُمّ. تقولُ الكتبُ المقدسةُ مخاطبةً الرجال: "نساؤُكم حَرثٌ لكم، فأتوا حَرثَكم أنّى شئتم".

فصلية فكرية تحليلية حرة تعنى بشؤون الشرق الأوسط

رقم الاعتماد

لدى نقابة الصحفين العراقيين 148

رقم الإيداع

دار الكتب و الوثائق في بغداد 868 لسنة 2005

لدى وزارة الثقافة المصرية

دار الكتب و الوثائق في القاهرة

رقم 24217